من تراث المغرب

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد المراكشي

تقديم وتحقيق وتعليق

دكتور / محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجاني
للنشر والتوزيع

المعجب
في تلخيص أخبار المغرب

من تراث المغرب

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد المراكشي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور/ محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجاني للنشر والتوزيع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾
وبه نستعين

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى وبعد :

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة فى حياة أمتنا العربية ، وهى صفحة هامة للباحثين والدارسين فلهذا أسرعت فى تقديم كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ضمن سلسلة الدراسات المغربية ، حيث يُعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول ، وفى نفس الوقت طرازاً تاريخيًّا أو موسوعة تاريخية أيضاً ، فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور فى منطقة الشرق والغرب الإسلامى حتى القرن السابع الهجرى بشىء من الدقة والتفصيل .

فعبد الواحد المراكشى يمثل أديبًا ومؤرخًا فى آن واحد وله عدة آراء غريبة نذكر منها : أنه حد حدود بلاد المغرب فشملت جزيرة أيبريا وجبال البرانس حتى المحيط الأطلسى أى ضمن دول ومدائن بلاد الأندلس ، كذلك المراكشى تعمق فى دولة الموحدين على حساب الدويلات الأخرى .

وشخصية عبد الواحد المراكشى مجهولة من نواحٍ عديدة سواء فى مكان مولده أو تفقهه وعلمه وأين هم أساتذته ومشايخه . فالآراء مضطربة عنه فهناك رأى يقول إنه ولد فى مدينة مراكش سنة ٥٨١ هـ فى عهد أبى يوسف المنصور الموحدى ، وإنه ترك مراكش إلى فاس وهو يبلغ من العمر ٩ سنوات ، وقرأ القرآن والحديث ثم رجع إلى موطنه مراكش وظل يتردد بين فاس ومراكش من حين لآخر ، وأثناء وجوده فى مدينة فاس التقى بالعالم أبى بكر بن زهر ، ولما بلغ من العمر ٢٢ سنة اتجه إلى مدينة الأندلس ، فاتصل بأبى إسحاق ابن أبى يوسف المنصور الموحدى وكان وقتذاك حاكماً لإشبيلية من قِبَلِ أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين ،

ثم تقابل فى قـرطبة مع أبى جعفر الحميرى يتعلم منه ويتأدب ، وكـان المراكشى قد ذهب فى رحلة لـزيارة بلاد المشرق مثل مصر والشام والحجـاز وبغداد حيث تقابل مع وزيـر السلطان الناصر لدين الله العباسى فأظهرعطفه وكرمه وجوده عليه .

صفوة القول : إن الكتـاب يتحدث عن أدب وتاريخ بلاد المغـرب والأندلس بشىء من الدقة والإمعان .

وقد اعتمـدت فى إظهار هذا الكتاب على تحقيق أستـاذنا الجليل الأستاذ ـ محمـد سعيد العريان مع وضع بعض الهوامش والتعليقات والخرائط والجداول .

د / محمد زينهم محمد عزب

القاهرة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م

***

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله مفنى الأمم ، وباعث الرمم ، وواهب الحكم ، ذى[1] البقاء والقِدم ، الذى لا مطمع فى إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحمده على ما علم وألهم ، وسوّغ وأنعم ؛ وصلى الله على كاشف الظُلم ، ورافع التُهم ، ومُوضح الطريق الأمم[2] المخصوصِ بجوامع الكلمِ ، والمبتعثِ إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلّم عليه وعليهم وشرّف وعَظم .

وبعد ـــ أيها السيد الذى توالت علىّ نِعمه ، وأخذ بضَبعى حضيضى الفقر والخمول واعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إلىّ ومحبته التى جُبلتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمُه ـ فإنك سألتنى ـــ بوّأك الله أعلى الرتب ، كما عَمر بك أندية الأدب ، ومنحك من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القِسَم ، كما جمع لك فضيلتى التدبير والقلم ـ إملاءَ أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ، وشىء من سِير ملوكه ، وخصوصًا ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ م ـ وأن يضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيتُه أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية ، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُدًّا من إسعافك والمسارعة إلى ما فيه رضاك ؛ إذ هى الغاية التى أجرى إليها ، والبغية التى أثابر أبداً عليها ؛ ولوجوب طاعتك علىّ من وجوه يكثر تعدادها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى إليه ، واستعنته واعتمدت فى ذلك عليه ؛ فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أنى أعتذر لمولانا ـــ فسح الله فى مدته ـــ من تقصير إن وقع بثلاثة أوجه من الأعذار :

---

(١) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٢) بمعنى الطريق الواضح أو الظاهر .

فأولها : ضعف عبارة المملوك وغلبةُ العِيِّ على طباعه ، فمهما وقع فى هـذا الإملاء من فتورِ لفظ ، أو إخلالٍ بسرد ، فهو خليق بذلك .

والوجه الثانى : أنه لم يصحبنى من كتب هـذا الشأن شىء أعتمد عليه وأجعلـه مستنداً كما جرت عـادة المصنفين ، وأما دولـة المصامدة خصـوصًا فلم يقـــع إلىَّ لأحـد فيها تأليفٌ أصلاً ، خلا أنى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبـارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجمــوع لا أعرفه إلا سماعًا .

والوجه الثالث : أن محفوظـاتى فى هذا الوقت على غايـة الاختلال والتشتت ؛ أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فـرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادتـه وحميد خلقه من التسامح والتغـاضى ، لا زال مجده العالى يرفع الهمم ، ويعقد الذمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

***

فصـل

فى ذكر جزيـرة الأنـدلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس(1) وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها ، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ؛ إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى ، والمعتبر منه ، والمنظورَ إليها فيه ، وهي كانت كرسى المملكة ، ومقر التدبير ، وأم قُرى تلك البلاد ، لم يزل هذا معروفًا من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني(2) ، فصارت إذ ذاك تبعًا لمراكش من بلاد العُدْوَة(3) ، ثم تغلب عليها المصامدة بعده(4) فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، فأقول وبالله التوفيق :

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومي(5) مما يقابل طنجة(6) ، في موضع يعرف بالزقاق(7)، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً : وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعني بحر مانطس وبحر

---

(١) يقال بضم الذال وفتحها وضم الدال ليس إلاّ ، وهي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام . فالأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة .

الجزيرة : الأرض التي يدور بها الماء من جميع جهاتها ، وليست الأندلس كذلك ، فهي تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة « فرنسا » ، وإنما سميت جزيرة على المجاز ، كما سميت جزيرة العرب في آسيا جزيرة وليست كذلك .

(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

(٣) يقصد به الشاطىء الأندلسي وقد قيل شاطىء الإفريقي أو شاطىء المغرب الأقصى ، ولكن القول الأول أقرب إلى الصواب .

(٤) المقصود بها دولة الموحدين .

(٥) يقصد البحرالأبيض المتوسط وكان قديما عند الجغرافيين والفلكيين اسم للبحر الذى نطلق عليه الآن بحر آزوف الذى يخترق إلى البحر الأسود ثم إلى بحر مرمرة ثم إلى البحر الأبيض ، ولكن المؤلف أطلق عليه بحر مانطس أى بحر الروم وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة .

(٦) بالفتح ثم السكون والجيم وهاء بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر . وقد قيل : إن طنجة آخر حدود إفريقية .

(٧) بضم أوله وآخره مثل ثانيه وهو في الأصل طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة وهي مدينة بالمغرب على البر المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء وهي في جزيرة الأندلس .

أُقيانس[1]، وحداها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أُقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة ، وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم وهو مانطس ، والبحر الأعظم ، ومسافة ما بين البحرين من هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس ، وحداها الأكبران الجنوبى والشمالى مسافة كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة ، وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذى هو الحد المشرقى من الأندلس ، هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسية من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى[2] .

والأندلس آخر المعمور فى المغرب ، لأنها ـ كما ذكرنا ـ منتهية إلى بحر أقيانس الذى لا عمارة وراءه .

ومسافة ما بين طُليطلة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلة ، ووسط الأندلس ـ كما ذكرنا ـ مدينة طُليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتى

---

(١) هو الأوقيانوس ، أو المحيط الأطلسى ، نسبة إلى سلسلة جبال أطلس التى تشرف عليه من المشرق ، وله فى كتب القدماء أسماء شتى ، فهو الأوقيانوس ، وبحر الظلمات ، أو بحر الظلمة ، والبحر الأخضر ، والمحيط ، وإليه بلغ عقبة بن نافع الفهرى فى فتوحه فى القرن الأول للهجرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفته المأثورة وهو يقول : « اللهم رب محمد ، لولا أنى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا . . . » أو كما قال .
ترى ماذا كان يحدث لو أن عقبة كان يعلم يومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلاداً وناساً ودنيا تعدل فى الغنى والعمران سائر بلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيها بعد ، ووطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولمبوس بسنين ، ولكنهم ـ وا أسفا ـ قد ضيعوا الأمانة وأفلتوا الفرصة فنُسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم إلى نصارى الأسبان !

وقد يسمى هذا المحيط بالمحيط الأطلنطى ، نسبة إلى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خسف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ما جاء فى بعض الأساطير .

(٢) يقصد بها كل ما يقع فى شبه جزيرة الأندلس شرقاً وغربًا إلى القسطنطينية من أراضى يطلق عليها بلاد إفرنجة ومركزها رومية .

بيانه ، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضًا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، على البحر الجنوبى منها[1]، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة .

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس فى الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغِلَظ ما هى ، فنبت عن كثير من الحكمة .

وطائفة من الأندلس فى الإقليم الرابع ، كإشبيلية ومالقة وقُرطبة وغرناطة والمرية ومُرسية ، فهذه البلاد التى ذكرنا فى الإقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهًا من البلاد التى فى الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألوانًا وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ، إذ كان للميول والسُموت فى اللغات تأثير بيِّن لمن استقرأ ذلك وفهم علته .

وجملة مدن الأندلس التى هى أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الأمر منها : أولاها فى الحد الشمالى مدينة شِلب ، ثم مدينة إشبيلية ، ثم قرطبة ، ثم جَيَّان ، ثم أغرناطة[2] ، ثم ألمريَّة ، ثم مُرسية ، ثم بلنسية ، ثم مالقة وهى على البحر الرومى .

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن : شلب ، وإشبيلية ، وبينهما قريب من خمس مراحل .

والذى على البحر الرومى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى من أعمال إشبيلية ، ثم مالقة ، وهى مستقلة ، ثم ألمرية ، ثم دانية : هذه كلها على البحر الرومى ، ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .

---

(١) يطلق عليه قديماً بحر الروم .

(٢) ذكرت فى كثير من المصادر والمراجع غرناطة .

ولما استقر أمـر المسلمين بالأندلس فى غُـرة المائة الثانية ، تخيروا مدينـة قرطبة فجعلـوها كرسى المملكة ومقـر الإمارة ، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أميـة بالأندلس ، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلبٌ على ما سيأتى بيانه .

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم ، وقـد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرهـا فى هذا الموضع ، إلا أن ذكـرها سيرد فيها يأتى من تفصيل أخبـار الأندلس ، تعرف ذلك بقولى : « أعادها الله للمسلمين » .

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدى المسلمين .

***

فتح الأندلس

وذكر لمحة عنها قبل الفتح

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس فى شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يد طارق ، قيل ابن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة ، مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان فى أقصى المغرب ، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق ، وبالمجاز ، رتّبه موسى بن نصير أمير القيروان ، وقيل : إن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عَرَض له ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته ، وذلك أن الذى كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم[١] خطب إلى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعّده ، فلما بلغه ذلك جمع جموعًا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقًا خلوُّ تلك الجهة ، فهذه الفرصة التى انتهزها . . .

وقيل : إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسمٌ : يوجه إليه أعيان قواده و (أمراء دولته)[٢] ببناتهم ، فيربيهن عنده فى قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه . . . ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسُن أدبُها زوجها فى قصره لمن يرى أنه كفء أبيها ، فوجه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء ، فرآها يومًا فأعجبته ،

---

(١) يذكر المراكشى فيما يلى سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذى حبب إليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ، والذى عليه أكثر المؤرخين أنه كان حاكما لسبتة أو طنجة ، على الشاطىء المغربى ، ويصفه ابن القوطية بأنه كان تاجراً من تجار العجم ، يعنى الروم ، أو القوط ، لا أميرًا من أمرائهم ولا حاكمًا من حكامها ، واسمه يوليان ، « وكان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر - المغرب - ويجلب إلى لذريق عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب ، فتوفيت زوجة ذلك التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لذريق بالتوجه إلى العدوة ، فاعتذر له بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بإدخالها القصر ، فوقعت عين لذريق عليها فاستحسنها فنالها ، فأعلمت أباها بذلك عند قدومه فقصد طارق بن زياد فرغبه فى الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة . . . » .

(٢) إضافة من المطبوع .

فدعاها فأبت عليه ، وقالت : لا والله حتى تُحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجنى ، هذا بعد مشورة أبى ! فغلبتْه نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك : فهذا كان السبب الذى بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح ، فالله أعلم أىُّ ذلك كان ، فأول موضع نزله فيما يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم ، نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه ، فبُنى بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، أسأل الله إبقاء ه إلى أن تقوم الساعة . . .

ثم دخل طارق هذه الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى ابن نصير مُوليه بخبر الفتح وغلبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده ، إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذى ينتهى إليه الكتاب فيه حتى يلحق به ، وخرج متوجهًا إلى الأندلس ، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله ، وذلك فى رجب سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبى عبيدة الفهرى(١) ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك ـ لعنه الله ـ بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضاه ، ورام أن يستلَّ ما فى نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومن قبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك ، وحمل طارق إليه ما كان غنم من الأموال ، فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقًا من قبله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقى على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعًا للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهراً من سنة خمس ، وقبض على طارق ، ثم استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز

---

(١) انظر : نهاية الأرب للنويرى ، وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

ابن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو، ورجع إلى القيروان ، ثم سـار منها بما حصل من الغنائم وأعده من الهدايـا إلى الوليد ابن عبد الملك ـ وكان مما وجد بمـدينة طليطـلة حين فتحها ، مائدةُ سليمان بن داود عليهما السلام ، فيقال إنها طـوق ذهب وطوق فضة ، مكللة باللـؤلؤ والياقوت ـ ومعـه ـ فيما يقال ـ طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية فى سنة ٩٦ ، فحمل ما كان معه إلى سليمان ابن عبد الملك ، ويقال : إنه وصل وأدرك الوليد حيًّا ، فالله أعلم .

وأقام عبـد العزيـز بن موسى بن نصـير أميراً على الأنـدلس إلى أن ثار عليـه من الجند جماعة ، فيهـم حبيب ابن أبى عبيدة الفهرى ، وزيـاد ابن النابغة التميمى ، فقتله بعضهـم ، وخرجـوا برأسه إلى سليمان بن عبـد الملك ـ وذلك فى صـدر سنة ٩٨ ـ[1] بعد أن أمّـروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير[2] ويقـال : إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكـروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنـالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زمـاناً لا يجمعهم وال ، ثم ولى عليها السمح بن مـالك الخولانى قبل المائة[3] ، واجتمع عليـه النـاس ، ثم ولى عليهـا الغمر بن عبـد الرحمن بن عبد اللـه ، ثم وليها عنبسـة بن سـحيم الكلبى وعُزل الغمـر بن عبد الرحمن ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكى نحـواً من العشـر ومائة ، وكان رجلاً

---

(١) كان مقتله فى المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ داراً فى كنيسة تشرف على مرج إشبيلية ، ونكح امرأة لذريق القوطية وسماها أم عـاصم ، وآواها إلى داره تلك ، وابتنى على باب الدار مسجداً هو الذى قتل فيه ، وقد بقى دمه فى ذلك المسجد زمانا ! .

(٢) هو أيوب بن حبيب اللخمى .

(٣) كانت الأندلس يومئذ إلى والى إفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية إفريقيـة بعد عزل موسى بن نصير إلى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعـل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم ، وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولانى .

صالحا ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى ، ثم عقبة بن الحجاج ، فهلك عقبة بالأندلس وردَّ عبد الملك بن قطن ، ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى أرسل إليهم واليا أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة ، وفى تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراء ها وولاة الحروب فيها أيام بنى أمية قبل ذهاب دولتهم فى المشرق(١) .

***

(١) انظر : الحلة السيراء لابن الآبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس طبعة دار المعارف ـ القاهرة .

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر ها هنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :

فمنهم : محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، ويروى عن أبى هريرة .

ومنهم : حنش بن عبد الله الصنعانى ، ويروى عن على بن أبى طالب وفضالة بن عبيد

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ومنهم : يزيد بن قاسط ، وقيل ابن قسيط ، السكسكى المصرى ، يروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

ومنهم : موسى بن نصير الذى يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الدارى .

***

فضل بلاد المغرب

ذكر خبر دخول عبد الرحمن
ابن معاوية الأندلس

وفى هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس ، الملقب بالداخل : فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف بن عبد الرحمن ابن أبى عبدة[1] بن عقبة بن نافع الفهرى الوالى على الأندلس المذكور آنفاً ، فهزمه . واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك ، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولدٍ اسمُها « راح »[2] ويكنى أبا المطرف ، دخل الأندلس فى ذى القعدة ، واستولى على قرطبة دار مُلكها فى التاريخ المذكور ، وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بنى العباس ، فلم يزل مستتراً يتنقل فى بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ، ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال ، فلم يزل يُصرِّف حِيله ويسمو بهمته والقدرُ مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على مُلكها ومَلكَ بعض بلاد العُدوة ، وكان أبو جعفر المنصور إذا ذُكر عنده قال : « ذاك صقر قريش[3] » .

---

(١) انظر : الحلة السيراء .

(٢) كانت أمه راح بربرية من بنى نفرة فى طرابلس وكذلك كانت أم أبى جعفر المنصور بربرية .

(٣) روى ابن خلدون أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وتتبعوا بنى أمية بالقتل ـ كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية هذا ، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يُؤْثِرونها عن مسلمة بن عبد الملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ونزل على أخواله بنى نفرة ، واستنصر بقوم من زناتة ، ثم انتقل إلى مكناسة فمليلة وبعث مولاه بدراً إلى أشياع بنى مروان فى الأندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبثوا له فى الأندلس دعوة ونشروا له ذكرًا ، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمنية والمضرية ، فاجتمعت اليمنية على نصرته كيداً ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وعبر عبد الرحمن المجاز والظروف مواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف وهو ينتصر فى موقعة إثر موقعة ، حتى غلب يوسف على أمره واحتز رأسه ودخل قرطبة حاضرة الملك . . .

وظل عبد الرحمن الداخل يدعو للمنصور على منابر الأندلس زمانًا ثم قطع دعوته ، ولكنه اكتفى من ذلك بلقب الأمير تأدبا مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الإمارة ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من أمراء بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف أمر الخلافة العباسية فى بغداد بعد المائة الثالثة ، وتوارث أبناؤه الإمارة من بعده إلى أن كانت آخرة الدولة المروانية فى الأندلس .

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ، ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمى الحِمصى ، وله أدب وشعر ، ومما أنشدهُ وقاله يتشوق إلى معاهدة بالشام[1] قوله :

أيُها الراكب المُيممُ أرضى ... اقرأ من بعضِى السلام لبعضى

إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ ... وفؤادى ومالِكيه بأرضِ

قُدِّر البيْنُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونى غَمْضِى

قد قضَى اللـه بالفِراقِ علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يَقضِى !

وله شعر كثير أبرعُ من هذا أورده المؤرخون فى كتبهم[2] ، وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة دار الملك إلى أن تُوفى ، اثنتين وثلاثين سنة .

---

(١) كتب بها إلى أخته بالشام .

(٢) روى أن بعض أهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب إليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه ، وكأنما شعر عبد الرحمن بعض المن فى كتاب قريبه هذا المروانى ، فكتب إليه مجيبًا .

شتان من قام ذا امتعاض ... منتضى الشفرتين نصلا

فجاب قفراً ، وشقّ بحراً ... مُسامياً لجةً ومحلا

دبر ملكاً ، وشاد عزًا ... ومنبراً للخطاب فصلا

وجند الجند حين أودى ... ومَصَّر المصر حين أجلى

ثم دعا أهله إليه ... حيث انتأوا أن هَلمَّ أهلا

فجاء هذا طريد جوعٍ ... شديدَ روعٍ يخاف قتلا

فنال أمناً ونال شبْعاً ... ونال مالاً ، ونال أهلا

ألم يكن حق ذا على ذا ... أعظم من مُنعمٍ وولى !

ويروى هذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ، ذلك أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون فى مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله بن على بن السفاح أيام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة لم تردعه هيبة مجلسه ولا سيوف شيعته الحافين من حوله ، مستطيلاً بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى أغص عبد الله بن على بريقة ، لم يسكت حتى تناولته سيوف بنى العباس تمزقه . . . فكأن الأمير عبد الرحمن حين استمع إلى حديث أولئك القوم فى التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمته أعظم قدراً منه ، فقال ذلك الشعر . . .

ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم وَلِّى بعد عبد الرحمن ابنه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ [خمس و [1] ثلاثون سنة] ، واتصلت ولايته سبعة أعوام[2] إلى أن مات فى صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحريًا للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صُرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء ، لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات فى التاريخ المذكور ، أمه أم ولد اسمها حوراء .

(=) وبلغه وقد استقامت له الدولة أن بعض من أعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة ويزعم أنه لولا جهده ما بلغ الداخل مبلغاً ، وأنه نال ما نال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن إلى شعر يروى له ، وهو :

لا يلف ممتنٌ علينا قائلٌ : « لولاى ما ملك الأنامَ الداخلُ »
سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادرٌ بلغت وحالٌ حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلُ
والحزمُ كل الحزم ألا يغْفلوا أيروم تدبيرَ البريةِ غافلٌ ؟
ويقول قومٌ سعدُه لا عقله خيرُ السعادة ما حماها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدْعكم بالغرب رغماً والسعودُ قبائل
ما دام من نسلى إمام قائمٌ فالملك فيكم ثابت متواصلُ

ومن شعره قد رأى نخلة فى رصافته بقرطبة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول اكتئابى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبةٌ فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى يصح ويستمرى المساكين بالوبْل

(١) إضافة من نفح الطيب للمقرى .
(٢) قيل : قضى فى الحكم ثمانِ سنوات ولكن الثابت تاريخيًّا أنه مكث فى الحكم سبع سنوات وعدة شهور .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضى

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاصى ، أمه أم ولد اسمها زُخرف ، وكان طاغياً مسرفًا ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذى أوقع بأهل الرّبض الوقعة المشهورة[1] ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ، وكان الربض محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم فى بعض أمره ، ففعل بهم ذلك ، فسمى الحكم الربضى لذلك .

وفى أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ، أعنى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصر على كِبره ، المتهاون بأمر ربه ، أَفِق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك . . . » وما نحا هذا النحو ، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشد الناس عليه فى أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان ابن حيان أخبار الأندلس ، أنه لما تُسُور عليه القصرُ وأحس بالشر ، قال لأخص غلمانه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية[1] ، فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ، فقال : يا مولاى ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ! بم يُعرف رأسى إذا قطع من رءوس العامة إن لم يكن مضمخا

---

(١) تفصيل هذه الواقعة أن الحكم الربضى هذا فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ومباذله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بألسنتهم ، وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأى فى البلاد ، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من أهل الفقه والورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار المعافرى ، ومن أصحاب مالك بن أنس ورواة الموطأ ، فثاروا به يريدون خلعه وإقامة أخيه المنذر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربى من قرطبة ، ثم زحفوا إلى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم ، وفر من بقى منهم على وجهه ، فمنهم من لحق بفاس من أرض العدوة ، ومنهم من لحق بالإسكندرية من أرض المشرق ، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالإسكندرية أن ثاروا بها ثورة أخرى ، وكانت مصر يومئذ إلى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم ، ففروا من وجهه إلى إقريطش (كريت) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم ، إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم ، فانهزموا وقُتلوا قتلاً قبيحًا ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحُرقت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومى المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية .

ومن أعجب ما حكى أبو مروان ابن حبان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضًا ، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت[2] كان جليل القدر فى الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه ، وكان قويًّا فى دينه ، فلما أوقع الحكم بأهل الربض ــ كما ذكرنا ــ وأمر بتغريب من بقى منهم ، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال ، فاستخفى فى دار رجل يهودى سنة كاملة ، واليهودى فى كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ، ويعظمه أشد التعظيم ، فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء ، فاستدعى اليهودى وشكره على إحسانه إليه ، وقال له : قد عزمت غداً على الخروج وقصد دار فلان الكاتب[3] ، لأنه قرأ علىّ ولى عليه حقُّ التعليم ، وقد بلغنى أن له جاهًا عند هذا الرجل ، فعسى هو يشفع لى عنده فيؤمننى ويدعنى فى بلدى ! فقال له اليهودى : يا مولاى ، لاتفعل ، فما آمَنُهم عليك ! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أَمَلَّهُ ذلك ولا ثقُلَ عليه ، فأبى إلا الخروج ، فخلى بينه وبين ذلك ، فخرج حتى أتى دار ذلك الكاتب بغَلس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رحب به وأدنى مجلسه ،

---

(١) وهو العطر الجميل .
(٢) هو طالوت بن عبد الجبار المعافرى .
(٣) جاء فى نفح الطيب للمقرى هو أبو البسام الكاتب وزير الحكم بن هشام الربضى .

وسأله أين كان فى هذه المدة ؟ فقص عليه قصته مع اليهودى ، ثم قال له : اشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى ويمنَّ علىّ بتركى فى بلدى ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل على الحكم ، فقال [له كل ماسمع من طالوت ، ووشى به إليه : فأحضره الحكم إليه فعنَّفه ووبخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لى أن أخرج عليك ، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول : « سلطان جائرٌ مدةً خيرٌ من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : الله . تعالَ ! لقد سمعت هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إنى قد سمعته ، قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودىّ مدة عام ، ثم إنى قصدتُ هذا الوزير فغدر بى ! فغضب الحكم على أبى البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً : فرؤى أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت رحمه الله تعالى] (١).

---

(١) ورد فى نفح الطيب أن الحكم بن هشام تقلد الحكم سنة ١٨٠ هـ ومات سنة ٢٠٦ .

ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم ، وقد ولى الإمارة بعد أبيه ، وتوفى سنة ٢٣٨ وقد بلغ من العمر اثنتين وستين سنة .

ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ وقد بلغ من السن خمسًا وستين سنة .

ثم ابنه المنذر بن محمد ، وكانت وفاته بغتة فى سنة ٢٧٥ وقد بلغ من السن ستًّا وأربعين سنة .

ثم أخيه عبد الله بن محمد ، وكانت وفاته سنة ٣٠٠ وقد بلغ اثنتين وسبعين سنة .

ثم أخيه عبد الرحمن الناصر ـ وهو أول من نودى بلقب أمير المؤمنين من بنى أمية فى الأندلس ـ وكانت وفاته سنة ٣٥٠ وقد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة قضى منها على العرش خمسين سنة ! وفى عهده وفد إلى الأندلس من المشرق أبو على القالى صاحب الأمالى .

ثم تولى ولده الحكم المستنصر بالله ، وكانت ولايته غداة موت أبيه الناصر فى رمضان سنة ٣٥٠ .

وفى سياق الحديث عن الحكم المستنصر هذا أورد المراكشى شعراً لأبى عمر يوسف الرمادى وصل الخرم إلى منتصفه ولم نوفق إلى بدايته ؛ وسيأتى مزيد تفصيل عنه فيما يلى من حديث المراكشى عن أحداث عصر المستنصر . . . وكذلك فى كتاب نفح الطيب .

... ...

فقـــال وقـــد مضى ليل وثـــان ... ولم يسمعـه غنًى : ليت شعـرى(١)

أجـــارى المؤنس ليـــلاً غنـــاءً ... لخيرٍ قطْـــعُ ذلـــك أم لِشرّ ؟

فقـالـــوا إنـه فى سجـن عيسى(٢) ... أتـــوه بـــه بليلٍ وهـــو يسرى

فنـادى بـــالطـويلـة « وهى ممـا ... يكـون بـراسـهِ لجليلِ أمـر »(٣)

ويمم جـــاره عيسى بن مـــوسى ... فـــلاقـــاه بإكـــرام وبـــر

وقـــال : أحـــاجـــةٌ عـــرضت فإنى ... لقـــاضيهـــا ومتبعُهـــا بشكـــرِ !

فقـــال : سجنت لى جـــارًا يُسمى ... بِعمـــرٍو ! قـــال : يُطلـق كُلُّ عمـرو

بسجنى حيث وافقـه اسـمُ جارِ الـ ... ـفقيه ولـــو سجنتهمـو بـــوتـــر !

فأطلقهـم لـــه عيسى جميعـــاً ... لجارٍ لا يبيتُ بغير سكـــــــر !

فـإن أحببـت قُل لجوار جـــــارِ ... وإن أحببتَ قـل لطـــلاب أجـــرِ

فإن أبـــا حنيفـــة لم يـــؤُبْ من ... تطلبُـــه تخلصُـــه بـــوزرِ

وتلخيص هـذه الحكايـة التى نظمها أبـو عمر فى شعـره ، أن أبا حنيفـة رحمه الله كـان يجاوره رجل كيال ، فكـان كل ليلة يأخذ سمكـة ورغيفاً وشيئاً من النبيـذ ، فإذا صلى العشاء الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أضـــاعـــونى وأى فتًى أضـــاعـــوا ... ليـــوم كـــريهةٍ وســـدادِ ثغـــرِ

---

(١) أول الشعر مجهول ، وهـو لأبى عمر الرمادى ، من شعـراء عصر الحكم المستنصر كما سبقت الإشارة ، ويتضح من السياق أن الشاعر ينظم حكاية معروفة يوردها المراكشى منثورة فيما بعد .

(٢) عيسى بن موسى صاحب الشرطة فى بغداد لعهد الرشيد .

(٣) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للرأس .

فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة ـ على ما اشتهر عنه ـ يُحيى الليلَ كله صلاةً ، فلما كان فى بعض الليالى فقد صوت ذلك الرجل ، فقال لبعض من عنده : ما فعل جارُنا هذا الذى كان يغنى كل ليلة ؟ أهو مريض أم غائب ؟ فقالوا له : إنه مسجون ! فقال : ومن سجنه ؟ فقالوا : خرج فى الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطة فأتوا به فأمربسجنه ، فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى فى بيته ، فلما أُعلم عيسى بمكان أبى حنيفة خرج يتلقاه مسرعًا ، وبالغ فى تكريمه وبره ، وسأله عن حاجته ، فقال : لى فى سجنك جارٌ اسمه عمرو ، فقال عيسى : يُطلق كل من كان اسمه عمروٌ بسجنى من أجل جار الفقيه ! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه ، فأتى الرجل أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أضعْناك ؟ قال الرجل : لا والله ، بل حفظت الجوار حفظك الله !

والبيت الذى نظمه أبو عمر وكان يتغنى به الرجل جارُ أبو حنيفة ، هو للعرْجِى ، رجلٍ من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة ، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن .

ولأبى عمر هذا شعر كثير جيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات الشعراء الأندلسى ، فمما على حفظى له أول قصيدة يمدح بها أبا على القالى المتقدم الذكر[1] وهى :

من حاكم بينى وبين عذُولى ... الشجْو شَجْوِى والعويلُ عويلى
أقصر فما دين الهوى كفرٌ ولا ... أعتدُّ لومك لى من التنزيل
عجباً لقوم لم يكن أذهانهم ... لهوًى ولا أجسادهم لنُحُول
دقت معانى الحب عن أفهامهم ... فتأولوه أقبح التأويل
فى أى جارحة أصون مُعذِّبى ... سلمت من التعذيب والتنكيل
إن قلت فى عينى فثم مدامعى ... أو قلتُ فى قلبى فثم غليلى
[لكن جعلتُ له المسامع موضعًا ... وحجبتها عن عذل كل عذول][2]

(١) له ذكر فى عصر المستنصر .
(٢) إضافة من نفح الطيب .

هذا ما بقى فى حفظى منها . وكان أبـو عمر هذا من مُقدَّمى شعراء الحكم المستنصر[1] وكان مختصاً بأبى الحسن المُصحفى[2] ، منضويًا إليه ، وهو الـذى حمله على هَجو محمد بن أبى عامر[3] ، فلما أفضى الأمر إلى محمـد قبض على المصحفى واستصفى أموالـه ووضعه فى المُطبِق ، فلم يزل به حتى مات جـوعًا وهزالاً ، وأما ما كان من أبى عمر الشـاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالاً ، وأمر بتغريبه[4] ، فشُفِعَ له عنده فى أن يتركـه ببلده ، فأذن فى ذلك ، غير أنه

---

(١) كان الحكم المستنصر محبًّا للعلوم مكرمًا لأهلها ، جامعًا للكتب على اختلاف أنواعها ، اجتمع له منها ما لم يجتمع لأحـد من الملوك قبلـه ، قال تليد الخصى ــ وكان على خزانــة العـلوم والكتب بدار بنى مروان : إن عدد الفهـارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهـرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الـدواوين . وقد أقام الحكم للعلم والعلماء سوقًا نافقة ، جُلبت إليها البضائع من كل قطر ، وكـان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يـزودهم بالمال الجم لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهد ، وبعث فى كتـاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ـ وكان نسبـه فى بنى أمية ـ بألف دينـار من الذهب العين ثمنًا لنسخة مـن كتابه ، فبعث إليه أبـو الفرج بنسخة منـه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع أبى بكـر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكـم . ولما وفد على أبيـه أبو علي القالى مـن بغداد سنـة ٣٣٠ أكرم مثواه وحسنـت منزلتـه عنده واختص به ، واستفـاد منه الحكم علماً . قال ابن بشكوال : « قلما يـوجد كتاب من خزائنـه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى شىء ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن » . وله شعر جيد ، فيما ينسب إليه قوله :

إلى اللـــــه أشكـــــو مـن شمائل مسرف ... علىّ ظلـــــــوم لا يـــــــدين بما دِنـتُ
نأتْ عنـــه دارى فـــاستـزاد صـدوده ... وإنى على وجـــْدى القـــديـم كما كنت
ولـــو كنت أدرى أن شـــوقى بـــالغٌ ... من الـــوجـد مـــا بُلِّغْتُــه لم أكـن بنتُ

وقوله :

عجبتُ وقـــد ودعتُهـــا كيـف لم أمت ... وكيف انثنت بعـد الـوداع يـدى معى
فيـــا مقلتـى العبْرى عليهـــا اسكبى دمًـــا ... ويـــا كبـدى الحرَّى عليهـــا تقطعى !

(٢) وهو الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى للخليفة المستنصر .

(٣) وهــو المنصور ابن أبى عـامر وكـان الحكم قـد استوزره لـولده هشـام فترقى أمـره حتى بلغ من الجاه والسلطان .

(٤) انظر : نفح الطيب ٢ / ١٠٠ ـ ٢٠٠ .

خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادى [بذلك] فى جميع جهات قرطبة ، فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام أبى عامر .

وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرًا ، وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد ، لم يعش له ولد غيره .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر
[وتغلب المنصور ابن أبى عامر](١)

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنه إذ وَلى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيباً لا يظهر ولا ينفذ له أمر ، وكان الذى تغلب على أمره أولاً وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته ، أبو عامر محمد بن عبد الله ابن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافرى القحطانى(٢) .

وكان أصل ابن أبى عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طُرش ، على نهر يسمى وادى آرُوا ، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ، ورد شابا إلى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز فى ذلك ، وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالى الأمور ، وتزيد فى ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك ، وله فى ذلك أخبار عجيبة ، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن

---

(١) إضافة من الحلة السيراء ونفح الطيب .
(٢) وهو المنصور الذى ذكر من قبل .

أبو عبد الله محمد ابن أبى نصر الحُميدى[1] طرفًا فى كتابه المترجم بـ « الأمانى الصادقة » ، فمن جملتها قال الحميدى :

حدثنى أبـو محمد على بن أحمد بن حـزم قال : أخبرنى أبو عبـد الله محمـد بن إسحاق التميمى قال :

كـان محمد ابن أبى عـامر نـازلاً عنـدى فى حجرة فـوق بيتى ، فدخلت عليـه فى بعض الليالى فى آخـر الليل ، فوجدته قـاعداً على الحال التى تركتــه عليها أولَ الليل حين فصلت عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ! قال : لا ؛ قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ! قلت : فى مـاذا كنت تفكـر ؟ قـال : فكـرت : إذا أفضى إلىَّ الأمـر ومـات محمـد بن بشير القاضى ، بمن أستبدله ، ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجلتُ الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد إلا رجلاً واحداً . . . قلت : لعله محمد بن السَّليم[2] ، قال : هو والله هو ، لشدَّ ما اتفق خاطرى وخاطرك !

قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبـو محمد على بن أحمد قال : كـان ابن أبى عامر يـومًا جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : ليختر كل واحد منكم خطة أُولِّيه إياها إذا أفضى إلىَّ الأمر ! .

---

(١) كان الحميدى شاعراً مؤرخاً حافظاً راوية ، تتلمذ على الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهرى ، وعنه يروى أكثر علمه ، وكان مولده سنة ٤٢٠ ، ووفاتـه سنة ٤٨٨ ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ألف فيها كتاباً فى طبقات علماء الأنـدلس سماه « جذوة المقتبس » ، وعن كتابه هـذا وكتابه الآخر المسمى بـ « الأمانى الصادقة » نقل عبد الواحد كثيراً من أخبـاره عن الفترة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس ، وتوجد من كتاب « جذوة المقتبس » نسخة مخطوطة فى أكسفورد .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الشهير بالسليم ، قـاضى الجماعة بقرطبة ، ذكره المقرى فيمن كانت لهم رحلة إلى المشرق ، وله شعر كتب به إلى الحكم المستنصر ، هو قوله :

لـــو ان أعضـــاء جسمى السنّ نطقت ... بشكـــر نعماك عنـــدى ، قل شكـــرىَ لكْ
أو كــــان ملّكنـى الـــرحمن مـن أجَلى ... شيئـــاً وصلت بـــه يـــا سيـــدى أجلكْ
ومن تكـن فى الـــورىَ آمـــالــــه كثــرت ... فـإنما أملى فى أن تـــــــرى أملكْ !

توفى سنة ٣٦٧ .

فقال أحدهم : تُـولينى قضاء كورة ريَّة ، وهى مالقـة وأعمالها ، فإنه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها ! .

وقال الآخر : توليني حِسبة السوق ، فإني أحب هذا الأسفنج !

وقال ثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطـاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطلىٌّ بالعسل ليجتمع علىَّ الذباب والنحل !

وافترقوا على هذا ، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى بلغ كل واحـد منهم أمنيته على نحــو ما طلب ! .

ولم تزل حالـه تعلو منذ ورد قرطبـة إلى أن تعلق بوكالة السيـدة صبح أم هشام المؤيد ابن الحكم والنظر فى أمـوالها وضياعها ، فزاد أمره فى الترقى معهـا إلى أن مات الحكم المستنصر ، وكـان هشـام صغيراً كما ذكـرنـا ، وخيف الاضطـراب ، فضمن لصبح سكـون الحال وزوال الخوف واستقرار المُلـك لابنها ، وكـان قوىَّ النفس ، وسـاعدتـه المقاديـر ، وأمــدته المرأة بالأمـوال ، فاستمال العساكـر إليه ، وجرت أحوال علت قـدمه فيها ، حتى صـار صاحب التدبير والمتغلب على الأمور ، وحجب هشاماً المؤيد ، وتلقـب هو بالمنصور ، فأقام الهيبة ، فدانت لـه أقطار الأندلس كلها وأمنت بـه ، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حيـاته لعظم هيبته وفرط سياسته .

واستـوزر جماعة منهم الـوزير أبـو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بـالمصحفى ، ومنهم الوزير الكـاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريـس الجزيرى ، ومنهم الوزير أبو بكـر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ـ وقد تقدم ذكره[1] ـ وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستـوزر أبا العـلاء صـاعـد بن الحسن الرَّبعىّ اللغـوى البغـدادى ، ولـه معه أخبـار مستطرفة ، ولعلى سأورد طرفًا منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

---

(١) وهو أول كتاب فى اللغة وضعه الخليل بن أحمد .

وكان محبًّا للعلوم مؤثراً للأدب مفرطًا فى إكرام من ينسب إلى شىء من ذلك (ويفد)[1] عليه متوسلاً به ، بحسب حظه منه وطلبه ومشاركته فيه[2] ورد عليه الأندلس فى أيام إمارته أبو العلاء صـــاعد بن الحسن الربعى المذكور آنفًا ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً جمة ، وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ ، أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقرأ بها ، وكان عالمًا باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فَكِهَ المجالسة ممتعًا ، فأكرمه المنصور وأفرط فى الإحسان إليه والإفضال عليه ، وكان مع ذلك محسنًا لظريف السؤال ، حاذقًا فى استخراج الأموال ، طَبًّا بلطائف الشكر .

أخبرنى بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبى عامر يومًا فى مجلس أنسه ، وقد كان تقدَّم له أن أتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فلبسهِ تحت ثيابه ، فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرَّد وبقى فى القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له : ما هذا يا أبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التى وصلتْ إلىَّ فيها صِلات مولانا أتخذها شعاراً ! وبكى ، وأتبع ذلك من الشكر فصلاً كان رواه ، فأعجب ذلك المنصور ، وقال له : لك عندى مزيد ! وكان كما قال .

وألف له أبو العلاء هذا كتبًا ، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص ، على نحو كتاب النوادر لأبى على القالى ، واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ، فخانت الغلام رجله فسقط فى النهر هو والكتاب ، فقال فى ذلك بعض الشعراء ـ وهو أبو عبد الله محمد ابن يحيى المعروف بابن العريف ـ بيتاً مطبوعًا بحضرة المنصور ، وهو :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص ‏ ‏ ‏ ‏ وهكذا كلُّ ثقيل يغوص !

---

(١) إضافة من نفح الطيب .

(٢) ورد ذكره فى نفح الطيب [تفاصيل القصة] .

فضحك المنصور والحاضرون ، فلم يَرُعْ ذلك صاعداً ولا هاله ، وقال مرتجلاً مجيباً لابن العريف :

عاد إلى معدنه إنما ... توجد فى قعر البحار الفصوص !

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجى أبى السرى سهل بن أبى غالب ، سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف ، وكتاب آخر فى معناه سماه كتاب الجوّاس بن قَعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء ، وهو كتاب مليح جدًّا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب ، أعنى الجوَّاس ، حتى رتَّب له من يخرجه أمامه كل ليلة ، ويقال : إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أُنْس لأحد ممن ولى الأمور بعده من ولده ، وادَّعى وجعًا لحقه فى ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا و يعتذر به فى التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ، وفى ذلك يقول فى قصيدته المشهورة فى المظفَّر أبى مروان عبد الملك بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وهو الذى ولى بعد أبيه ، وأولها :

إليك حَدَوتُ ناجيةَ الركاب ... محمَّلة أمانىَ كالهضابِ

وبِعتُ ملوكَ أهل الشرق طُرًّا ... بواحدها وسيِّدها اللُّباب

وفيها يقول :

إلى اللهِ الشَّكِيَّةُ من شَكاةٍ ... رَمَتْ ساقى فجلَّ بها مُصابى

وأقصتنى عن الملكِ المُرجَّى ... وكنت أَرِمُّ حالى باقترابى

ومما استُحسن له قوله :

حَسبتُ المنعِمين على البَرايا ... فألفيتُ اسمَهُ صَدْرَ الحساب

وما قدَّمْتُه إلا كأنى ... أقدِّم تالياً أُمَّ الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدى(1) : أخبرنى أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد ابن حزم(2)، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدى المظفَّر فى عيد الفطر سنة ٣٩٦ ـ قال أبو محمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفَّر ـ ولما رآنى أبو العلاء أستحسنُها وأُصغى إليها كتبها لى بخطه وأنفذها إلىّ . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيراً ما تُستغرب له الألفاظ ، ويُسأل عنها فيجيب بأسرع جواب ، على نحو ما يحكى عن أبى عمر الزاهد المطرِّز غلام ثعلب ، ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لحُمل على التصديق فى كل ما يأتى به من ذلك وقد ظهر صدقه فى بعض ما قال ، فمما يحكى عنه فى هذا المعنى أنه دخل على المنصور يومًا وفى يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزبيل ، وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال : لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب القوالب والزوابل(3) لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يا مولانا ، رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل فى جوانبها علامات الوُضَّاع هكذا هكذا . . . فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا [الذى تقدم ذكره](4)، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولَّدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ونسبتُه إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافق .

وقال له المنصور مرة أخرى وقدقدم طبقًا فيه تمر : يا أبا العلاء ، ما التمر كل فى كلام العرب ؟ قال : يقال تمر كل الرجل تمر كُلاًّ إذا التف فى كسائه !

---

(١) انظر : تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢١٨ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٩٢ ، العبر ٣/ ٣٣٣ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٦ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٨٥ .

(٢) انظر : بغية الملتمس ٤٠٣ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦ ، جذوة المقتبس ٢٩٠ ، شذرات الذهب ٣/ ٢٩٩ ، الصلة ٢/ ٤١٥ ، العبر ٣/ ٢٣٩ ، وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠ .

(٣) انظر : إنباء الرواة .

(٤) إضافة من نفح الطيب .

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالماً .

قال أبو عبد الله الحميدى : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك ابن أبى عبدة ، عن أبى عبد الله العاصمى النحوى قال :

لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، جمعنا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه ، هو من طبقتى فى النحو ، وأنا أناظره . قال : ثم سألنا صاعدًا فقال : ما معنى قول امرىء القيس :

كأنَّ دماء الهاديات بنحرِهِ عُصارة حَنَّاء بشيبٍ مُرجلِ .... ؟

فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقرت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا :

كُمَيتٌ يزِل اللبدُ عن حال متنه كما زلَّت الصفواء بالمتنزّلِ .. ؟

قال : فبُهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط ، واضطررنا إلى سؤاله عنه ، فقال : إنما عنى أحد وجهين : إما أنه تغشى صدره بالعَرق ، وعرقُ الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ، وإما شيء كانت العرب تصنعه ، وهو أنها كانت تَسمُ باللبن الحار فى صدور الخيل فيتمعَّط ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض ، فأيها عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم .

قال أبو عبد الله : وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور أبى عامر عن قول الشماخ بن ضرار :

دار الفتـــاة التى كنــا نقـــول لها يـاظبيـــةً عُطُـلاً حُسَّـانـة الجيـــد

تُـدنِـى الحمامـة منهـا وهـى لاهيـة من يـــانع المردِ قِنـوانَ العنـــاقيــد

فقالوا : هى الحمامـة ، تنزل على غصن الأراكـة أو الكرمـة فتنفضه فتتمكن الظبيـة منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة فى هذا البيت هى المرآة ، وهى اسم من أسمائها ، فأراد أن هـذه الجارية المشبهة بـالظبية إذا نظرت فى المرآة أدنت المرآة منهـا فى المنظر شعرَها الذى هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التى لا يكاد يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى إلى المنصور أبى عامر أيِّلاً وكتب معه بهذه الأبيات :

يـــا حِـــرز كلِّ مُخوَّفٍ ، وأمــان كل مُشرَّدٍ ، ومُعـــزَّ كل مُـــذلَّـلِ

جـدواكَ إن تخْصُـص بـه فـلأهلِـه وتعُمُّ بـــالإحسـان كلَّ مـــؤمِّل

كـالغيـث طبَّق فـاستـوى فى وبْلـه شُعْـث البـــلادِ مع المراد المقبـل

اللـــه عَـونك مـــا أبـرَّك بـالهدى وأشـد وقعك بـــالضـلال المُشْعل

مـــا إن رأت عينى ، وعلمُك شــاهــد شروَى عـــــلائك فى مُعـمٍ مُخولِ

أنـدى بمُقـرَبـةٍ كسِرحـــان الغَضَـا ركضــاً ، وأوغل فى مُثــار القصطِل

مـولاى ، مـؤنسَ غُـربتى ، مُتخطفى من ظفـــر أيـــامـى ، مُمنع معقلى

عبـدٌ نشلت بضبعـــه وغـرستــه فى نعمـــة أهـــدى إليك بأيِّـل

سميتــه « غــرسِيـــةً » وبعثتُـه فى حبلـه ليُتـاح فيـه تفـاؤلى

فلئـن قبلتَ فتلـك أسنَى نعمـــةٍ أســدى بها ذو منحـة وتطــول

صحبتك غـــاديـــة السرور وجَللتْ أرجـاءَ ربْعِك بـالسحـاب المُخْضلِ

فقضى الله فى سابق علمه أن غرسية بن شانجة من ملوك الروم -(1) وكان أمنع من النجم - أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلاً بأسره(2)، وهكذا فليكن الجد للصاحب والمصحوب، وكان أسر غرسية هذا فى ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن، وقصد صقلية فمات بها قريب من سنة ٤١٠(3) - فيما بلغنى - عن سن عالية .

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر طول أيام مملكته مواصلا لغزو الروم، مفرطا فى ذلك لا يشغله عنه شىء، وكان له مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيمًا بقرطبة، وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأول، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر . غزا فى أيام مملكته نيفًا وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها فى كتابه الذى سماه بـ « المآثر العامرية » واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها ؛ وفتح فتوحًا كثيرة، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة، بلغنى أنه نُودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة - وكانت ذات جمال رائع - فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً

---

(1) وهو ملك البشكنس .

(2) قال المقرى [« وسبب أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءتْ به، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب »] .

(3) اختلف المؤرخون فى سنة وفاته وقد قيل : إنه مات سنة ٤١٧ هـ، وقيل : سنة ٤١٩ هـ، وهناك رأى آخر سنة ٤١٤ هـ .

عامرية ، وكان فى أكثر زمانه لا يُخِل بأن يغزو غزوتين فى السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التى حضر فيها معمعة القتال ، وأن يُجمع ويتحفظ به ، فلما حضرته المنية أمر بها اجتمع من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وُضع فى قبره[١] .

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين ، بموضع يعرف بمدينة سالم ، مبطونًا ، فصحت له الشهادة ، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣[٢] فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة ، وكان معافرى النسب ، وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيى بن زكريا التميمى ، وكان يُعرف بابن برطل ، ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلى من قصيدة له :

تلاقت عليه من تميم وَيعرُبٍ — شموس تلألأ فى العلا وبدورُ
من الحِمْيريين الذين أكفُّهم — سحائبُ تهمى بالندى وبحُورُ

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم ، وذكره أبو منصور الثعالبى فى كتاب اليتيمة وقال فيه : القسطلى عندهم كأبى الطيب بصقع الشام . هذا قول أبى منصور أو معناه[٣] ، وكنت أنا فى أيام شبيبتى مولعاً بشعره كثير الدراسة له ، فلم يبق اليوم على خاطرى منه شىء أصلاً ، خلا بيتين هما مما ارتجل فى بعض مجالسه ، وهما :

أَجِدِ الكلامَ إذا نطقتَ فإنما — عقلُ الفتى فى لفظِه المسموعِ
كالمرأ يختبرُ الإناءَ بصوته — فَيرى الصحيحَ به من المصدوعِ

(١) هناك رواية ذكرت بأنه أمر بجمع ما بقى من تراب ليجعلها وسادة لرأسه فى القبر .
(٢) والثابت تاريخيا ٣٩٣ .
(٣) ورد فى يتيمة الدهر « أبو عمر : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام » .

تقلد المظفر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبى عامر هذا ، ابنُه أبو مروان عبد الملك بن أبى عامر وتلقب بالمظفر ، فجرى فى الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه ، وكانت أيامه أعيادًا فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين ، إلى أن مات وثارت الفتن بعده .

تقلد الناصر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر ، فخلط وتسمى ولى العهد ، ولم يزل مضطربَ الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، فخلع هشاماً المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقُتل وصُلب .

وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار ـ المتقدم ذكره ـ لما قام تلقب بالمهدى ، وبقى الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن هشام بن عبد الجبار ، ورد هشام المؤيد إلى الأمر ، وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٤٠٠ ، وبقى كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان ، واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، فدخل البربر مع سليمان قُرطبة وأخلوها من أهلها حاشا المدينة وبعض الربض الشرقى ، وقُتل هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وكان ـ كما ذكرنا ـ فى طول دولته متغلباً عليه لا يُنفذ له أمر ، وغلب عليه فى هذا الحصار ، أعنى حصار البربر ، واحدٌ من العبيد بعد محمد بن أبى عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر .

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، على هشام بن الحكم فى

جمادى الآخرة ــ كما تقدم ــ فخلعه وتسمى بالمهدى ، وكان يُكنى أبا الوليد ، أمه أم ولدٍ اسمها مُزنة ، وكان له ولد اسمه عبيد الله ، وكان مولد المهدى فى سنة ٣٦٦ ، وقُتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة(١) ، ولم يزل والياً إلى أن قام عليه ـ يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ ـ هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحةَ اليوم الثانى ، فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدى ، فانهزم البربر وأُسر هشام بن سليمان ، فأتى به إلى المهدى فضرب عنقه .

ظهور الفتنة

واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ، فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ، فبرز إليه جماعة أهل قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيفٌ وعشرون ألف رجل ، فى جبلٍ هنالك يعرف بجبل « قنطش » ، وهى الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير . واستتر محمد بن هشام المهدى أيامًا ، ثم لحق بطليطلة ، وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته ، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ، فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى « دار البقر » فانهزم سليمان والبربر ، واستولى المهدى على قرطبة ، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاشوا بالجزيرة ، فالتقوا بموضع يعرف بوادى أره ، فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى ، وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبى(٢) ، فقتلوه وردوا هشام المؤيد كما تقدم قبل .

---

(١) وردت فى الأصل ٣٧ سنة .

(٢) كان واضح الصقلبى من موالى بنى عامر ، وكان يسمى أيضًا واضحًا العامرى ، فقد أخذ بثأر مواليه إذن حين أعان على قتل المهدى ، كما مَهَّدَ الأمر لنفسه بذلك ، إذ تولى الحجابة لهشام المؤيد !

فكانت مدة ولاية المهدى منذ قام إلى أن قُتل سبعة عشر شهراً[1] ، من جملتها الستة الأشهر التى كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر ، وانقرض عقبه فلا عقب له .

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قرطبة كما تقدم فى ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله ، مضافًا إلى المستعين بالله ، ثم خرج عنها فى شوال من السنة بعينها ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه فى بلاد الأندلس ، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة لا يُبقى البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل قرطبة فى صدر شوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بنى حمُّود]

وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن على بن أبى طالب ، يسميان القاسم وعليا ابنى حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس [بن إدريس] ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، فجعلهما قائدين على المغاربة ، ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة وهو علىٌّ الأصغر منهما ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزُّقاق ، وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً ، وقد ذكر فيما قبل .

---

(١) والصحيح أنه قتل سنة ٤٠٠ هـ .

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدنًا عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور ـ وقد حدث له طمعٌ فى ولاية الأندلس ـ فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يوليه عهده ، فاستجابوا له وبايعوه ، فزحف من سبتة إلى مالقة ، وفيها عامر بن فتوح الفائقى ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ، فاستجاب له وأدخله مالقة ، فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ، ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر ، فانهزم محمد بن سليمان ، ودخل قرطبة على بن حمود ، وقُتل سليمان بن الحكم صبراً : ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أبوه الحكم ابن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان ــ منذ دخل قرطبة إلى أن قُتل ــ ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأيامًا ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ، وكانت مدته ــ منذ قام مع البربر إلى أن قُتل ـ سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياما .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذِكرهُم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

وكانت أم سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد ولّى عهده محمدًا ، والوليد ، ومسلمة .

وكان سليمان أديباً شاعرًا ، قال الحميدى : أنشدنى أبو محمد على بن أحمد قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد : وأنشدَنيها قاسم بن محمد المروانى قال : أنشدَنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبـا يهابُ الليث حـدَّ سِنـاني وأهـاب لحظ فـواتـرِ الأجفـانِ

وأقـارع الأهـوالَ لا متهيبـاً منهـا سـوى الإعـراض والهجـران

وتملكتْ نفسى ثـلاثٌ كـالـدُّمى زُهـرُ الـوجـوه نـواعمُ الأبـدان

ككـواكب الظلماءِ لحنَ لنـاظـرٍ من فـوق أغصـان على كُثبـان

هـذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترى حُسنـاً ، وهـذى أختُ غُصن البـان

حـاكمتُ فيهن السُّلـوَّ إلى الضنى فقضى بسلطـانٍ على سُلطـانى

فـأبَحْنَ مـن قلبـى الحمَى وثنيننـى فى عـزِّ مُلكى كـالأسير العـانى

لا تعـذلـوا ملكًـا تـذلل للهـوى ذُلُّ الهوى عِـزٌّ وملـكٌ ثـان

مـاضرَّ أنى عَبـدُهُـنّ صبـابـةً وبنـو الـزمـانِ وهن من عبدانى

إن لم أطع فيهـن سلطـان الهوى كلفـاً بهن فلستُ من َمـروان

وإذا الكـريمُ أحب أَمَّنَ إلفـه خطب القلى وحـوادث السلـوان

وإذا تجارى فى الهوى أهـلُ الهوى عـاش الهوى فى غِبطـة وأمـان

وإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضـة الأبيات التى عَمِلها العباسُ بن الأحنف على لسان هارون الرشيد فنُسبت إليه ، وهى :

ملك الثـلاثُ الآنسـاتُ عِنـانى وحللـن من قلبـى بكـلِّ مكـان

مـالى تُطـاوعنـى البريـة كلهـا وأطيعهـن وهـن فى عِصيـانـى

مـا ذاك إلا أن سلطـان الهوى وبـه قَـوِينَ أعـزُّ من سلطـانى

أبومحمـد الذى يحدث عنه الحُميدىّ : هـو أبومحمد على بن أحمد بن سعيـد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان ابن حرب بن أميـة بن عبد شمس بن عبد منـاف القرشى ، قُرِىء علىَّ نسبُه هـذا بخطه على ظهر كتـاب من تصانيفه ، أصل آبائه الأدنين من قـرية من إقليم لبلة من غـرب الأندلس ، سكن هو وأبوه قرطبـة ، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبى عـامر ، ووزراء ابنه المظفر بعده ، وكان هو المدبر لدولتيهما ، وكان ابنه أبـو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر باللـه ، أخى المهدى المذكور آنفا ، ثم إنه نبذ الوزارة وأطرحهـا اختيارًا ، وأقبل على قراء ة العلوم وتقييـد الآثار والسنن ، فنال من ذلك مـا لم ينله أحد من قبلـه بالأندلس ، وكان على مذهـب الإمام أبى عبد الله الشافعـى رحمه الله ، أقام على ذلك زمانًـا ، ثم انتقل إلى القول بـالظاهر ، وأفـرط فى ذلك حتى أربى على أبى سليمان داود الظاهـرى وغيره من أهل الظاهـر ، وله مصنفات كثيرة جليلـة القدر شريفـة المقصد فى أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذى يسلكـه ، ومذهبه الذى يتقلده ، وهو مذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومن قال بقـوله من أهل الظاهر وُنفاة القياس والتعليل ، بلغنى من غير واحـد من علماء الأنـدلس أن مبلغ تصـانيفـه فى الفقـه والحديث والأصـول والنِّحَل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له ـ نحو من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قـريب من ثمانين ألف ورقة ، وهـذا شىء ما علمنـاه لأحد ممن كان فى مـدة الإسلام قبله إلا لأبى جعفـر محمد بن جـرير الطبرى ، فإنه أكثـر أهل الإسلام تصنيفًا ، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصلة ، وهو الذى وصل به تاريخ أبى جعفر الطبرى الكبير : أن قـومًا من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حيـاته منـذ بلغ الحلم إلى أن توفى فى سنـة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنـة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاتـه ، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، وهـذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية البارى تعالى وحسن تأييده له .

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة ، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة ، فمن شعره :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى

إذا أمكنتْ فيه مسرةُ ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حُزنا

إلى تبعاتٍ فى المعاد وموقفٍ ... نود لديه أننا لم نكن كنا

حصلنا على هَمٍّ وإثم وحسرةٍ ... وفات الذى كنا نقرُّ به عينا

حنين لما ولى ، وشُغل بما أتى ... وغم لما يُرجى ، فعيشك لا يهْنا

كأن الذى كنا نُسرُّ بكونه ... إذا حققته النفسُ ، لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغربُ

ولو أننى من جانب الشرقِ طالعٌ ... لجدَّ على ماضاع من ذكرى النهب

ولى نحوأكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصَّبُ

فإن يُنزل الرحمن رحلى بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فكم قائلٍ أغفلتُهُ وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجىء به الكتبُ !

هنالك يدرى أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفتُه القُرب !

فياعجباً من غاب عنهم تشوقوا ... له ، ودُنُوُّ المرءِ من دارهم ذنبُ

وإن مكاناً ضاق عنى لضيقٌ ... على أنه فسح مهامُههُ سُهبُ

وإن رجالاً ضيعونى لضُيعٌ ... وإن زماناً لم أنل خصبةُ جدب(١)

---

(١) إضافة من نفح الطيب .

ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لى فى يـــــوسف خير أســـوةٍ ... وليس على مَن بــالنبــى ائتسى ذنب

يقول ــ وقال الحق والصدق ـ إننى ... حفيظٌ عليم ، مــا على صــادقٍ عتب

ومن المختار له قوله :

لا يشمتن حـاسدى إن نكبة عـرضت ... فــالـــدهــر ليس على حـــالٍ بمُترِكِ

ذو الفضل كالتبرِ طـوراً تحت ميقعةٍ ... وتــــارةً فى ذُرى تـــــاج على ملك !

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحـتُ مــــرتحلاً بشخصى ... فــــروحى عنـــدكم أبـــداً مقيمُ

ولكـن للعيـــــان لطيـفُ معنـى ... لـــه ســال المُعـــاينـــة الكليمُ

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمّام :

أنـم مـن المرآة فى كـل مـــــادرى ... وأقطع بين النـــاس من قُضُب الهنـــد

كأن المنــــايــــا والــزمـــان تعلمَا ... تحيلـــه فى القطع بين ذوى الـــوُد !

وُجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفى رحمه الله فى سلخ شعبان سنة ٤٥٦ .

وإنما أوردت هذه النبـذة من أخبار هـذا الرجل وإن كانت قـاطعة للنسق خـارجة عن

بعض الغرض ، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم .

ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولى على بن حمود على ما تقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر ، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غرناطة ، وهى من البلاد التى تغلب عليها البربر ، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحِدة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته ، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفى أمره .

وبقى على بن حمود بقرطبة مستمرٌ الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبةٌ له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد : يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولى بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أسن منه بعشرة أعوام ، وكان وادعًا ، أمن الناس معه ، وكان يُذكر عنه أنه تشيع ، ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غير على الناس عادةً ولا مذهبًا ، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس[١] .

---

(١) المقصود بنى حمود ويرجع أصلهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على مالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بإشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتَسمَّى بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى ، فبقى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ بن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره .

ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقل وبها كانت امرأته وذخائره ، وغلب ابن أخيه الثانى إدريس بن على صاحب سبتة ، وهى كانت عُدة القاسم ، يلجأ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس .

عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلقوا أبوابها دونه(1) ، وحاصرهم نيفاً وخمسين ام الجمعة فى مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبى عثمان ، أثره باق إلى إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه .

القاسم إشبيلية ، وبها كان ابناه محمد والحسن ، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه ومجيئه إليهم ، طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر ، وضبطوا البلد ، وقدموا على ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد (٢) ، ومحمد بن يريم الألهانى ، ومحمد بن الحسن الزبيدى ، ومكثوا كذلك أياماً فى سياسة البلد وتدبيره ، ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد تدبير ، وصار الآخران من جملة الناس .

إلى ما وراء أسوار مدينة قرطبة بعد ثورة أهلها عليه .
مؤسس بنى عباد أصحاب إشبيلية .

ولحق القاسم بشريش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار فى قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ، فقُتل القاسم خنقا سنة ٤٣١ ، وحُمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفن هناك .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمَّى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابن أخيه يحيى وإدريس ، إلى أن قُتل - كما ذكرنا - فى أول سنة ٤٣١ ، ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة بنت الحسن ابن قنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ولاية يحيى بن على المعتلى

اختُلف فى كنيته ، فقيل أبو القاسم ، وقيل أبو محمد ، وأمه لبُونة بنت محمدبن الحسن ابن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان الحسن بن قنون من كبار ملوك الحسنيين وشُجعانهم ومردتِهم وطغاتهم المشهورين ، فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنهم إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين فى رد دعوته إلى قرطبة فى سنة ١٦ فتم لهم الأمر ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرنى(١) ، فبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر ، (٢) وصرفوا عاملهم ، وبايعوا المعتلى الأموى أخا المرتضى(٣) ، وبقى المعتلى

---

(١) وهو منسوب إلى يفرن من قبائل البربر وقد وصل إلى درجة من الجاه والقوة فى عهد عبيد الله ابن المهدى .

(٢) إضافة من نفح الطيب .

(٣) انظر : نفح الطيب ٤٩ - ٥٠ .

هـذا يردد لحصـارهـم العسـاكر ، إلى أن اتفقت كلمـة البربـر على الاستسلام لأبى القـاسم وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن ، وعظم أمره بقـرمونة ، فصار محاصراً لإشبيلية ، طامعاً فى أخذهـا فخرج يومًا وهـو سكران إلى خيل ظهرت من إشبيلية بقـرب قرمونة ، فلقيهـا وقد كمنوا لـه ، فلم يكن بأسرع من أن قتلوه(١) ، وذلك يوم الأحد لسبع خلـون من المحرم سنة ٤٢٧ ، وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، ولأمّ ولد .

[رد الأمر إلى بنى أمية]

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبى القاسم كما ذكـرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة وهـم : عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهـدى المذكور آنفا(٢) ، وســـليمان ابن المرتضى المذكــور آنفـا ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدى ابن الناصر(٣) .

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبـد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضـان سنة ٤١٤ ، وله اثنتـان وعشـرون سـنة ، وتلقب بـالمستظهر ، وكان مـولده سنة ٣٩٢ فى ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف ، وأمه أم ولد اسمها غاية .

ثم قام عليه أبوعبـد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد اللـه بن عبد الرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتل عبد الرحمن بن هشام ، وذلك لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له(٤) .

---

(١) كان هذا بإيعاز من ملك إشبيلية ، ابن عباد .

(٢) انظر التفاصيل فى نفح الطيب ١/ ٤١ .

(٣) انظر : المعجب ٤١/ ٤٢ .

(٤) جلس فى الحكم ٧٥ يوما .

وكان فى غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ، كذا قال أبو محمد على بن أحمد ، وكان خبيراً به ؛ لأنه وزر له ، وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد : كان المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل فى ابنة عمه :

حمامة بيت العبشميين[1] رفرفت	فطرت إليها من سراتهم صقْرا
تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يدًا	ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا
وإنى لطعانٌ إذا الخيل أقبلت	جوانبها حتى ترى جُونها شُقرا
ومُكرِمُ ضيفى حين ينزل ساحتى	وجاعل وفرى عند سائله وفرا

وهى طويلة ، قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين .

قال أبو عامر : « وكان متهما فى أشعاره ورسائله ، حتى كتب أبياتًا ليعلى بن أبى زيد حين وفد عليه ارتجالا ، فعجب أهل التمييز منه ، وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزلَّ ، فأجاد وزاد » هذا آخر كلام أبى عامر .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله

ولى محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر ؛ لأن مولده فى سنة ٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان أبوه قد قتله ابن أبى عامر فى أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه فى القيام وطلبه للأمر .

---

(١) وهم من بطن بنى عبد شمس .

وكان محمدبن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفى بالله ، وكانت ولايته ستة أشهر وأيامًا ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وَزَرَ له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد ، هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته ، فقل فى دولة يُديرها حائك . . . !

ولم يزل كذلك إلى أن خلع وقُتل وزيره المذكور فى داره : دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد إلى أن برد ، وخلعوا المستكفى بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجونًا لا يصل إليه طعام ولا شراب ، ثم نفوه ـ كما ذكرنا ـ فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى بن على الفاطمى(١) .

وانتهى المستكفى المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شمنت(٢) » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبد الرحمن بن محمد ابن السليم ، من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ، فكره هذا القائد التمادى معه ، فاستدعى المستكفى غَدَاءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعُصارة نبت يقال له البيش(٣) ـ وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة ـ فلما أكلها المستكفى مات مكانه ، فغسَّله وكفنه وصلى عليه ودفنه ، فقبره هناك ، ولا عقب له(٤) .

ثم أقام يحيى بن على الفاطمى فى الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقيمًا بقرمونة كما قد قدمنا إلى أن قُتل فى التاريخ الذى تقدم ذكره .

ولاية هشام المعتدّ بالله

---

(١) وهو المعتلى ابن حمود .
(٢) وجاءت عبارة أخرى عند المقرى « وفرَّ المستكفى إلى ناحية الثغر ومات بفرة » .
(٣) وهو صاحب ابن زيدون الشاعر المعروف .
(٤) انظر : الحلة السيراء ١/ ١١٠ .

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمى عن قرطبة فى التاريخ الذى ذكرناه ، أجمع رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى معظمه وسعى فى تمامه ، الوزير أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبى عبدة ، وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرياسة ويخبُّ فى الفتنة بقرطبة ، فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور ، وداخلهم فى هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفا .

وكان هشام هذا مقيمًا بحصن يدعى « ألبُنْت » ، من الثغور ، عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها ، فبايعوه فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقب بالمعتدِّ بالله .

وكان مولده فى سنة ٣٦٤ ، وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، وسنه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمه أم ولد اسمها « عاتب » .

فبقى ينتقل فى الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك ، فسار إليها ودخلها فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخُلع ، وجرت أمور يطول شرحها ، من جملتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههنَّ ، حافية أقدامهن ، إلى أن أُدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أيامًا يُتعطَّف عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أُخرجوا عن قرطبة .

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقالٍ بقرطبة ، فلم يزل يجول فى الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة وسرقسطة وأفراغة وطُرطوشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات سنة ٤٢٧ ، ولا عقب له ، فهشام هذا آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

نسبُه : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصرى بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوةُ لبنى أمية وذِكرُهـم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بنى أمية بالأندلس على شرط التلخيص .

***

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها وعن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلُح للإمارة ولا من تليق بـه الرياسة ، استولى علـى تدبير مُلك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه فى ترجمة هشام المعتد .

وأبـو الحـزم هـذا قديم الـريـاسة شريـف البيت ، كان آبـاؤه وزراء الـدولة الحكمِيـة والعامرية ، وهـو موصوف بالدهاء وبُعد الغور وحصـافة العقل وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك ، كان يتصاونُ عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادى من الـرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واصطنع بحمايتها .

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرًا ، جرياً على ما قدمنا من إظهار سُنن العفاف ، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسـه مُمسكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارتـه فيسلم إليه ذلك ، ورتّب البوابين والحشم على تلك القصـور على ما كانت عليـه أيام الدولة ، ولم يتحول عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لـذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسـواق جنـداً له ، وجعل أرزاقهم رءوس أمـوال تكون بأيـديهم محْصاة عليهم يأخـذون ربحها ورءوس الأمـوال باقية محفـوظة ، يُـؤخذون بها ويراعـون فى كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمـرهم بتفرقته فى الـدكاكين والبيوت ، حـتى إذا دهمهم أمـرٌ فى ليلٍ أو نهار كان سـلاح كل واحد معه حيث كان فى بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهـد الجنائز ويعود المرضى ، جاريًا على طـريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمـوال تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمنا وادعـًـا وقرطبة فى أيامـه حرماً يأمن فيه كل خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات فى غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً .

ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير مخُل بشيء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليه بعد أمورٍ جرت ، الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طُليطلة ، فدبرها مدة يسيرةً إلى أن مات .

وخلَّف فيها بعده من البربر رجلاً يُعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبوالقاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك .

وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعًا لإشبيلية .

***

فصــل
عن بنى حمود وطمع بنى عباد
فى قرطبة

وأمـا أحوال الحسنيين ، فإنــه لما قُتل يحيى بن على - كما ذكرنا ــ لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ــ رجع أبو جعفـر أحمد بن موسى المعـروف بابن بقنـة ، ونجا الخادم الصقلبى ، وهما مدبرا دولـة الحسنيين ، فأتيا مالقة وهى دار مملكتهم ، فخـاطبا أخاه إدريس بن على ، وكان بسبتة ، وكـان يملك معها طنجة ، واستدعيـاه ، فأتى مالقة وبايعـاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتـول مكانه بسبتـة ، ولم يبايعا واحـداً من ابنى يحيى ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ، فأجابهما إلى ذلك ، ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة ، وكان حسن أصغر ابنى يحيى ولكنه أسدُّهما رأيا .

وتلقب إدريس بالمتـأيد ، فبقى كذلك إلى سنـة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنـة ، وحدث للقاضى أبى القـاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صـاحب إشبيلية أمل فى التغلب على تلك البلاد ، فأخـرج ابنه إسماعيل فى عسكر مع من أجابـه من قبائل البربر ، ونهض إلى قرمـونة فحاصرها ، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة ، وحصن آخر يدعى أستجة فأخذهما ، وكانا بيد محمـد بن عبد الله ، رجلٍ من قواد البربـر من بنى برزال ، فاستصرخ محمد بن عبـد الله إدريس بن على الحسنى وقبائل صنهاجة ، فأمده صـاحب صنهاجة بنفسه ، وأمده إدريس بعسكر يقـوده ابن بقنة أحمد بن موسى مـدبرُ دولته ، فـاجتمعوا مع محمد بن عبـد الله ، ثم غلبت عليهم هيبة إسماعيل بن محمـدبن إسماعيل بن عباد ، قائد عســكر أبيـــه القاضى أبى القاسم ، فافترقوا ، وانصرف كل واحـد منهم إلى بلده ، فبلغ ذلك إسماعيل بن محمد ، فَقَوِىَ أمله ، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحـب صنهاجة ، وقدر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه ، فـوجه إلى ابن بقنـة يسترجعه ، وإنما كـان فارقـه قبل ذلك بساعـة ، فرجـع إليه

والتقت العساكر فما كان إلا أن تراءى الجمعان ، فولّى عسكر ابن عباد منهزماً ، وأسلموا إسماعيل ، فكان أول مقتول ، وحُمل رأسه إلى إدريس بن على الحسنى .

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك ، فنزل على مالقة إلى جبل بباشتر ، وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر[1] ، فتحصن به وهو مريض مُدنف ، فلم يعش إلا يومين ومات ، وترك من الولد يحيى ، قُتل بعده ، ومحمداً الملقب بالمهدى ، وحسناً المتلقب بالسامى ، وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على ، مات فى حياة أبيه ، وترك ابنا اسمه عبد الله ، أخرجه عمه[2] ونفاه لما وَلِى .

وقد كان يحيى بن على المذكور قبلُ قد اعتقل ابنى عمه محمداً والحسن ابنى القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبى الحجاج ، فحين وصل إليه خبر قتل يحيى ، جمع من كان فى الجزيرة من المغاربة والسودان ، وأخرج محمداً والحسن ، وقال : هذان سيداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ، وانفرد محمد بالأمر دون الحسن ، وملك الجزيرة ، إلا أنه لم يتسمَّ بالخلافة ، وبقى معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى فى التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا ، وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيى بن على المعتلى[3] .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابن بقنة أحمد بن موسى ضبط الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون ، ثم لم يجسر على ذلك الجسر التام ، وتحير وتردد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن على إلى نجا الخادم الصقلبى ،

---

(١) لا يوجد أى أخبار عن ابن حفصون .

(٢) المقصود به يحيى بن على بن حمود .

(٣) وردت فى نفح الطيب رواية المقرى : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة ٤١٤ ، وفر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة ٤٤٠ ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة ٤٥٠ »
ولم يذكر المقرى شيئاً عن تنسُّك محمد بن القاسم ولبسه الصوف .

وكان بسبتة ، استخلف عليهـا من وثق به من الصقالبة ، وركب البحـر هو وحسن بن يحيى إلى مالقـة ، ليرتب الأمر له ، فلما وصـلا إلى مرسى مالقـة ، خارت قوى ابن بقنـة وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلاً من مالقة .

ودخل حسن ونجـا مالقة ، واجتمع إليهما من بها مـن البربر ، فبايعـوا حسن بن يحيى بالخلافة ، وتسمى المستعلى ، ثم خاطب ابن بقنـة وأمّنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس .

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة ، وترك مع الحسن رجلاً كان من التجار يعرف بالسطيفى ، كان نجا كثير الثقة به ، فبقى الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيى متزوجـًا بابنة عمه إدريس ، فقيل : إنها سمته أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطيفى على الأمر ، واعتقل إدريس بن يحيى وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابن صغير عند نجا ، فقيل إنه اغتـاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم ولم يُعقب حسن بن يحيى ، فاستخلف نجا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقـة ، فلما وصل إليها زاد فى الاحتياط على إدريس بن يحيى ، وأكد اعتقالـه ، وعزم على محو أمـر الحسنيين جملة ، وأن يضبط تلك البلاد لنفســه ، فدعـا البربر الـذين كانـوا جـند البلـد ، وكشف الأمر إليهم عـلانية ، ووعـدهم بالإحسـان ، فلم يجدوا لمساعـدته بـدًّا ، فوافقـوه فى الظاهـر ، وعظم ذلك فى أنفسهم باطنـاً ، ثـم جـــمع عسكره ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربـه أياما ، ثم أحس بفتور نيات الذين معـه ، فرأى أن يرجــع إلى مالقـة ، فـإذا حـصل فيهـا نفـى مـــن يخـــاف غـائلتـــه منهم واستصلـح سـائرهـم ، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ، وأحس البربر بهذا منـه ، فاغتـالوه فى الطريق من قبل أن يصل إلى مـالقة ، فقُتل وهـو على دابته فى مضيق صار فيـه ، وقد تقـدمه إليـه الذى أراد الفتك بـه ، وفر من كـان معه من الصقـالبة

بأنفسهم ، ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلا وهما يقولان : البشرى البشرى ، فلما وصلا إلى السطيفى ، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من حبسه ، فقدموه وبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالعالى ، فظهرت منه أمور متناقضة ، منها أنه كان أرحم الناس قلباً ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، ورد كلَّ مطرود عن وطنه إليه ، ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بغياً فى أحد من الرعية ، وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبيات الحسان(١) ، ومع هذا فكان لا يصحبُ ولا يؤثر إلا كل ساقط رذْل ، ولا يحجُب حُرمه عنهم ، وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يفرن أعطاه إياه ، وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبرأمره وصاحب أبيه وجده : موسى بن عفان السبتى ، فلما أخبره أن الصنهاجى كتب إليه يطلبه منه وأنه لابد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجى فقتله .

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابنى إدريس بن على فى حصن إيرشُ ، فلما رأى ثقته الذى فى الحصن اضطراب آرائه ، خالف عليه وقدم ابن عمه محمد بن إدريس ، فلما بلغ ذلك السودان المرتبين فى قصبة مالقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس ، وراسلوه بالمجىء إليهم وامتنعوا بالقصبة .

واجتمع العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ، ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُواق ناقة(٢) ، فأبى فقال لهم : الزموا منازلكم ودعونى ، فتفرقوا عنه .

---

(١) من شعراء الذخيرة .

(٢) تعبيراً عن السرعة .

وجاء ابن عمه ، فسُلم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهده ، وسماه السامى ، واعتقل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان معتقلا فيه(1) .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وأرسلوا المرتب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه ، فأجابهم وقام بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أول ولايته بعد قتل نجا ـ كما تقدم ـ قد ولى سبتة وطنجة رجلين من برغواطة ، قبيلةٍ من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سكات ، فلما خُلع إدريس ، كما تقدم ، بقيا حافظين لمكانيهما .

فلما قام ـ كما ذكرنا ـ بدعوة صاحب حصن إيرشُ ، لم يُظهر محمد مبالاة بذلك ، بل ثبت ثباتاً شديدًا ، وكانت والدته تشجعه وتقوى متنه وتُشرف على الحرب بنفسها فتُحسن إلى من أبلى ، فلما رأى البربر شدة عزمه وثباته ، فَتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلوا عن إدريس ابن يحيى ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة ، إلى البرغواطين اللذين ذكرنا ، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتهما ، فلما وصل إليهما أظهرا تعظيمه ومخاطبته بالخلافة ، إلا أنهما حجباه حجابًا شديداً ولم يدعا أحداً من الناس يصل إليه ، فتلطف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدين قد غلبا عليك ، وحالا بينك وبين أمرك ، فأذن لنا نكفكهما ؛ فأبى ، ثم أخبرهما بذلك ، فنفيا أولئك القوم ، وأخرجا إدريس بن يحيى وبعثا به إلى الأندلس ، وتمسكا بولده لصغره ، إلا أنهما فى كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامى أمراً ، فنفاه إلى العُدوة ، فصار فى جبال غمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنيين ، وأهلها يعظمونهم تعظيماً مفرطاً .

---

(1) خرج من الحكم سنة ٤٣٨ هـ ومات سنة ٤٤٧ هـ .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم[1] الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر، فاستفزه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وَتَسَمَّى بالمهدى ، وصار الأمر فى غاية الأخلوقة[2] والفضيحة : أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً فى مثلها .

فأقاموا معه أيامًا ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد[3] خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام ، فقيل : إنه مات غمًّا، وترك نحوًا من ثمانية ذكور .

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يَتَسَمَّ بالخلافة .

وبقى محمد بن إدريس [المهدى] بمالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥[4] .

وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى[5] عند بنى يفرن بتاكرونة ، فلما توفى محمد بن إدريس بن يحيى [المهدى] ردت ، العامة إدريس العالى إلى مالقة واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسنيين[6] .

فلما مات[7] أجمع البربر على رأيهم فى نفى الحسنيين عن الأندلس إلى العدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم وما أراد وما منه .

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة ، ومالقة وما وما لاها أيضاً إلى

---

(١) أبوه القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالمأمون ، وكان محمد هذا مقيمًا بالجزيرة منذ خروجه من إشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنها محرفة عن« الأضحوكة » ولا داعى لهذا الظن .

(٣) يعنى محمد بن القاسم .

(٤) فى نفح الطيب أن وفاته كانت سنة ٤٤٤ .

(٥) هو ممدوح أبى زيد الأشبونى السابق ذكره .

(٦) يروى المقرى أن إدريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم ، فقد بويع من بعده ولده محمد بن إدريس ولقب بالمستعلى ، ثم سار إليه باديس بن حيوس سنة ٤٤٩ فتغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هذا إلى ألمرية مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة وبايعوه سنة ٤٥٦ فظل إلى أن مات سنة ٤٦٠ . .

(٧) كانت وفاته سنة ٤٤٧ هـ .

حصن منكب وغرنـاطة وأعمالها ، فى ملك البربر ، وملكـوا مع ذلك بعض أعمال إشبيلية ، كحصن أشـونة ، وقـرمونـة ، وشَلَّبر : ولم يـزالوا كـذلك إلى أن أخـرج من أيديهم مـا كانـوا يملكـونه من أعمال إشبيليـة المتعضد بـاللـه أبو عمـرو عبـاد بن محمد بن إسماعيل بن عبـاد اللخمى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .

وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بهما ، حسبما أورده أبـو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى ، عليـه عوَّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابـه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطـه فيها أصلحتُها جهد ما أقدر .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو المسئول فى الهداية قولاً وعملاً .

***

فصل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدولة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية ، فإن أهلها تفرقوا فرقًا ، وتغلب على كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا ألقاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية ، وفى ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق .

مما يزهدُنى فى أرض أندلسٍ	سماع مُقتدرٍ فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد !

وأنا ذاكر ـ إن شاء الله ـ فى هذا الفصل أسماءهم والجهات التى تغلبوا عليها ، على نحو ما شرطتُ من الإجمال ، إذ لكل منهم أخبار وسِير ووقائع لو بسطت القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب ، وأيضاً فالذى منعنى من استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم ، قلةُ ما صحبنى من الكتب ، واختلالُ معظم محفوظاتى .

[ملوك الطوائف]

فأولهم فى الربع الشرقى(١) ، رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقب بالمؤتمن ، وتلقب ابنه بالمقتدر ، وتلقب ابنه بالمستعين(٢) .

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية(٣) : طُرطُوشة(٤) وأعمالها ، وسرقسطة (٥) وأعمالها ، وأفراغة ، ولاردة ، وقلعة أيوب(٦) .

---

(١) تقع البلاد الآتى ذكرها فى الشرق الشمالى لا فى الجنوب .

(٢) كذا بالأصل ، وفى غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين، وابنه بالمقتدر ، وابنه بالمؤتمن ، وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى ، مولى أبى حذيفة الجذامى ، وجدهم هود هو الداخل إلى الأندلس .

(٣) فى الأصل : الجنوبية .

(٤) مدينة جليلة على نهر أبرة ، اسمها الرومانى درتوزه (Dertosa) استولى عليها العرب فى بداية الفتح ، ثم عاد الأسبان فملكوها ، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم فى عهد أبيه الحكم بن هشام الربضى ، ولوجودها فى طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون إبعاده من أهل الفتنة ، ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف ، صارت طرطوشة إمارة مستقلة يحكمها مولى من موالى بنى عامر اسمه نبيل الصقلبى ، ويحكم معها بلنسية ، وفى سنة ٤٥٢ ثارت طرطوشة بأميرها هذا الصقلبى ، فلجأ إلى المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة ، ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم فى طاعة بنى هود .

ثم كان استيلاء النصارى عليها فى منتصف شعبان سنة ٥٤٣ ، وكان الذى استولى عليها هو ريموند بيرانجة صاحب برشلونة ، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين وأساطيل بيزة وجنوة، كما استولى فى السنة نفسها على أفراغة ولاردة ، وتقع أفراغة ولاردة مما يلى بطرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم .

(٥) مدينة كبيرة على نهر أبرة ، ترتفع عن البحر نحو ١٨٤ مترًا ، تحدق بها البساتين ، فتحها العرب سنة ٩٤ واتخذوها قاعدة من قواعدهم فى الأندلس ، وكان صاحب الأمر فيها لعهد بنى مروان أمير من بنى قصى ، وهى أسرة إسبانية دانت بالإسلام وكان منها أمراء وقواد فى جيش الدولة .

ثم توارثها بعد محمد بن لب آخر أمراء بنى قصى الإسبانى الأصل ، أمراء من بنى تجيب ، وبنو تجيب : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح .

فلما كانت أيام الفتنة ، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة ، فاستخلصها لنفسه من بنى تجيب ، وجعلها حاضرة ملكه ، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين ، وهذا مبدأ دولة بنى هود ، وتوفى المستعين فى سنة ٤٣٨ ، فخلفه ابنه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤ ، وتسلسل الملك فى بنى هود إلى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة ٥١٢ .

(٦) مدينة من أعمال سرقسطة ، بالقرب من مدينة لبلة ، بنى قلعتها أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير الفاتح ، وإليه تنسب ، وكان سقوطها فى يد الإسبان أوائل القرن السادس .

هذا اليوم كلها بأيدى الفرنجة ، يملكها صاحب برشلونة ، لعنه الله ، وهى البلاد التى تسمى أرغن ، حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنونى مما يلى بلاد إفرنسة

***

[ويجاور بنى هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرياسة ، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدُّم لشرف بيته ولا أعلم له لقبا ، كان يملك بلنسية وأعمالها[1]] .

***

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له : أبو مروان بن رزين ، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة .

***

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون .

وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم ، تلقب بالمأمون ، كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة

ولم يزل أبوالحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأدفنش لعنه الله[2] ، استولى عليها النصارى فى شهور سنة ٤٧٨[3] ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

***

---

(١) إضافة من البيان فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى .
(٢) وهو ملك ألفونس السادس صاحب قشتالة .
(٣) وردت فى الأصل سنة ٣٧٦ .

وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر : جَهَور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه[1] إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذى النون والد أبى الحسن المذكور آنفا .

وكان يملك إشبيلية وأعمالها القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى[2] ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ما سيأتى الإيماء إليه ـ إن شاء الله عز وجل .

***

كان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما والى ذلك : البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمناه .

وتغلب على ألمرية وأعمالها زهير العامرى الخادم ، ثم ملكها بعده خيران العامرى أيضا الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم ، فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهور سنة ٤٨٤ .

***

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامرى ، أصله رومى مولى لأبى عامر محمد بن أبى عامر ، ثم ملكها بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصونَ منه نفسًا ولا أطهر عرضًا ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرمًا لأهلها ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير ، لا أتحقق [من] تاريخ وفاته[3] .

***

---

(١) انظر : البيان ٥٧ .
(٢) انظر: البيان ٥١ .
(٣) ظل على بن مجاهد يلى أمر دانية حتى غلبه عليها المقتدر صاحب سرقسطة ٤٦٨ هـ .

وكان يملك الثغر الذى من الجهة المغربية[1] من الأندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم : ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ، ذهب عنى اسمه[2] ، ثم كان له ابن اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك بطليوس وأعمالها ، ويابرة ، وشنترين ، والأشبونة .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحى ، وعيون الأخبار لأبى محمد ابن قتيبة ، جاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ، ترجمه « المظفرى » .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لا يُغب الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ .

وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ، وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلَّت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقلَّ لها النظير ، وكثر إليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير ، فلله هى من عقيلة خدرٍ قربت بسهولتها حتى أطمعت ، وبعُدت حتى عزّت فامتنعت ، أوردتها فى هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذى رسمته ، مُخل بالتلخيص الذى شرطته : لصحة مبانيها ، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها ، سلك فيها أبو محمد ـ رحمه الله ـ طريقة لم يُسبق إليها ، وورد شرعةً لم يُزاحم عليها ، فذلك قل مثلها لا بل عُدم ، وعز نظيرها فما تُوُهِّمَ ولا عُلم ، وهى :

---

(١) وردت فى المطبوع الشمالية .

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاءُ على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلُوكَ موعظةً ... عن نومةٍ بين ناب الليث والظفر

فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمةً ... والبِيضُ والسودُ مثل البيض والسُّمر

ولا هَوادة بين الرأس تأخذه ... يدُ الضرابِ وبين الصارم الذَّكر

فلا تغُرنك من دنياك نومتُها ... فما صناعةُ عينيها سوى السهرِ

ما لليالى ـ أقال الله عثرتنا ... من الليالى وخانتها يد الغير

فى كل حينٍ لها فى كل جارحةٍ ... منا جراحٌ وإن زاغت عن النظر

تسُر بالشيء لكن كى تُغرَّ بهِ ... كالإيم ثار إلى الجانى من الزهر

كم دولةٍ وليت بالنصرِ خدمتها ... لم تُبق منها ـ وسل ذكراك ـ من خبر (١)

هوت بداراً وفلت غرب قاتله ... وكان عَضباً على الأملاكِ ذا أُثُر (٢)

واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبنى يونان من أثرِ (٣)

---

(١) الضمير هنا أيضًا يعود على الليالى . والمعنى : كم دولة هيأت لها الليالى أسباب النصر والتأييد ، ثم كرَّت عليها فسلبتها كل ما منحت ولم تُبْق لها خبراً .

(٢) دارا : ملك من ملوك الفرس ، قالوا : إنه لبث فى الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الإسكندر، والفل : الكسر ، والغرب : الحد ، والعضب : السيف ، والأملاك : جمع ملك ، والأثر ضم الهمزة ، والثاء : فرند السيف ، والمعنى : أن الليالى سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيفاً قاطعا ، ثم لم تبق على قاتله فحطمت سيفه وجرعته منيته . وقد تغلب الإسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على أكثر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة !

(٣) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموها بعد ملوك الطوائف إلى عهد الفتح العربى ، وكانت مدة حكمهم أربعة قرون ونصف قرن .

وألحقت أختها طسماً، وعاد على ... عادٍ وجرهُم منها ناقِضُ المرر [١]

وما أقالت ذوى الهيئات من يمنٍ ... ولا أجارت ذوى الغايات من مُضر [٢]

ومزقت سبأ فى كل قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمُبتكرِ

وأنفذت فى كُليبٍ حُكمها ورمت ... مُهلهلاً بين سمع الأرضِ والبصرِ

ولم تُردَّ على الضليلِ صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حُجُرِ

ودوَّخت آل ذُبيان وإخوتهُم ... عبساً، وغصت بنى بدرٍ على النهر

وألحقت بعديٍّ بالعراق على ... يد ابنه أحمر العينين والشعَر

وأهلكت إبرويزاً بابنه ورمت ... بيزد جُرد إلى مروٍ فلم يحُرِ

وبلغتْ يزد جُرد الصين واختزلت ... عنه سوى الفُرس جمع الترك والخزر

ولم ترد مواضى رستمٍ وقنا ... ذى حاجبٍ عنه سعداً فى ابنة الغيرِ

---

(١) طسم، وأختها جديس: من قبائل العرب البائدة، كان موطنها باليمامة، ولها خبر مشهور فى تاريخ الجاهلية، فقد كان ملك القبيلتين رجلاً من طسم اسمه عملوق، وكان غشومًا ظالماً منقاداً لشهواته، مجترئاً على حرمات الناس، وكانت جديس تلقى من شره مالا طاقة لأحد به، فأجمعت أمرها ـ بتدبير امرأة منها اسمها عفيرة ـ على الفتك به، فكان من ذلك إبادة طسم وجديس.
و «عاد» التى ورد ذكرها فى البيت: هى التى عناها الله سبحانه بقوله: ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾.
«وأما جرهم» فقبيلة من بنى يعرب بن قحطان، هاجرت من اليمن إلى الحجاز انتجاعا للرزق، وأصهر إليهم إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، وقد كثر عديدهم فى الحجاز حتي صاروا ذوى قوة وسلطان، ثم بغوا وضلوا فأبادهم الله وأذهب ريحهم. والمرر بكسر الميم: جمع مرة، وهى القوة وشدة الخلق، وناقض المرر: هو الدهر، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته!

(٢) كانت الرياسة والملك وترف الحضارة فى اليمن، وكان المضريون من أهل الشمال أصحاب مثل وغايات وأهداف بعيدة، ولأمر ما كان محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ مضريًا، ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك!

يــوم القليب بنُــو بــدرٍ فنــوا وسعى ... قليبُ بــدرٍ بمــن فيــه إلى سقــر

ومــزقت جعفــراً بــالبيض واختلست ... من غيلـــةٍ حمزة الظــلام للجــزُر

وأشرفت بخُبيبٍ فــوق فــارعــةٍ ... وألصقت طلحــة الفيــاض بــالعفــرِ

وخضبت شيــب عثمان دمـــاً وخطت ... إلى الـــزبير ولم تستحيِ مـن ُعمــر

ولا رعت لأبــى اليقظـــان صُحبتـــه ... ولم تـــزودهُ إلا الضيــح في الغُمُــر

وأجــزرت سيف أشقــاهــا أبــا حسنٍ ... وأمكنـت من حُسينٍ راحتــى شَمِــــرِ

وليتهــا إذ فــدت عمــراً بخــارجــةٍ ... سمـرِ فدت عليـا بمن شـاء ت من البشر

وفى ابن هنـــدٍ وفى ابن المصطفى حسنٍ ... أتت بمعضلـــةِ الألبـــاب والفكـــر

فبعضنــا قــائل مــا اغتــالــه أحــدٌ ... وبعضنــا ســاكتٌ لم يــؤت من حصر

وأردت ابن زيـــادٍ بـــالحسين فلم ... يبــؤ بشسْعٍ لــه قـد طــاح أو ظفُــر

وعممت بـــالظبى فــودى أبــى أنسٍ ... ولم تــردَّ الــردى عنــه قنــازُ فــر

وأنــزلت مُصعبــاً من رأس شــاهقــةٍ ... كـــانت بها مهجـــة المختـــار فى وزر

ولم تــراقب مكــان ابن الــزبير ولا ... راعت عيــاذتــه بـــالبيت والحجــر

وأعملـت فى لطيـم الجنّ حيلتهــــا ... واستــوسقت لأبى الــذبــان ذى البخــر

ولم تــدع لأبى الــذِّبّــان قــاضبــه ... ليــس اللطيمُ لها عمـــــرو بمنتصر

وأحـرقت شلـو زيـدٍ بعـد مـا احترقت ... عليــه وجــداً قلـــوب الآى والســور

وأظفــرت بــالــوليــد بن اليــزيـد ولم ... تُبقَ الخلافـــة بين الكأس والــوتــر

حبـــابــةٌ حَبُّ رمـــانٍ أتيح لها ... وأحمر قطـــرتـــه نفحـــة القطــر

ولم تعــد قضــب السفــاح نــائيــةً ... عن رأس مــروان أو أشيــاعــه الفُجُــر

وأسبلت دمعــــة الــــروح الأمين على دم بفخٍ لآلِ المصطفى هَـــــــدر

وأشرقت جعفــــراً والفضل ينظــــره والشيخُ يحيى بـريـق الصـارم الـذكـر

وأخفــرت فى الأمين العهــد ، وانتــدبت لجعفــر بـــابنـــه والأعبُـد والغُـدر

ومـــــا وفتْ بعُهُـــــود المستعين ولا بما تأكـــــد للمعتــــزِّ من مــــرر

وأوثقت فى عُــــراهـــا كل مُعتمــدٍ وأشرقتْ بقـــــذاهـــا كـل مُقتــدِر

وروَّعـت كل مــامـــــونٍ ومــــؤتمنٍ وأسلمـت كل منصـــــــورٍ ومنتصر

وأعثـــــرت آل عبـــادٍ لعــــاً لهم بـذيل [زَبَّــاءَ] ولم تنفـر من الــذُّعـر

***

بنى المظفـــر والأيــام ـــ لا نُــزلتْ ـ مـــراحلٌ ، والــورى منهـا على سفـر

سُحقــاً ليــومكم يــومــاً ولا حملت بمثلـــه ليلـــةٌ فى غـــابـــر العُمُــر

من لـــــلأسرَّةِ أو لــــلأعنَّـــــة ، أو من لـــــلأسنـــة يُهديها إلى الثغـــر

من للظبى وعــوالى الخط قــد عُقــدت أطـــراف أسنتهــا بـــالعى والحصر

وطــوقت بـــالمنايـــا السـود بيضُهُم فاعجب لـذاك ومـا منهـا سـوى الـذكـر

مـن لليراعـــــة أو مـن للبراعـــة أو مـن للسماحـــــــة أو للنفـع والضرر

أو دفع كـــــارثـــةٍ أو ردع آزفـــةٍ أو قمع حـــادثــةٍ تعيــا على القُـدر

ويب السماح وويـب البأس لـــو سلما وحسرةُ الـدين والــدنيــا على عُمـــر

سقت ثـرى الفضل والعبـاس هـامية تُعــــزى إليهم سماحــــاً لا إلى المطـــر

ثــــلاثــة مــــا رأى السعـــدان مثلهم وأخبر ولـــو عــزا فى الحوت بـــالقمــر

ثــلاثـــةٌ مــا ارتقى النسران حيث رقُـوا وكل مـــــا طـــــار من نسرٍ ولم يطـــر

ثــلاثــةٌ كــذوات الــدهــر منــذ ناوا … عنى ، مضى الدهـر لم يـربع ولم يُحر

ومــــر من كل شـيء فيـــه أطيبـــه … حتى التمتـع بــــالآصـــال والبُكــر

أين الجلال الـــذى غضت مهـــابتـــه … قُلــوبنـــا وعُيــون الأنجمِ الـــزهـــر

أين الإبـــاء الـــذى أرســوا قــواعـده … على دعـــــائم من عــــز ومن ظفـــر

أين الـــوفـــاء الـذى أصفــوا شرائعـه … فلم يـــرد أحـــدٌ منهـــا على كـــدرِ

كـانــوا رواسى أرض الله ، منـذ مضـوا … عنهـــا استطـارت بمـن فيها ولم تقَـر

كـانـوا مصــابيحها فمـذ خبوا عثـرت … هـــذى الخليقـــة يـــاللـــه فى ســدرِ

كـانوا شجى الـدهر فـاستهوتهم خُـدع … منـــه بأحـــلام عـــاد فى خطى الحضر

ويلمـــه من طلــوب الثـأر مـدركـــه … منهم بــاســد سراة فى الـــوغى وصُبُر

مـن لى ولا من بهم إن أظلمـت نُـــوب … ولم يكن ليلُهـــا يُفضى إلى سحـــر

مــن لى ولا مــن بهم إن عُطلــت سنــن … وأخفيـت ألسن الآثــــــار والسير

مــن لى ولا مـــن بهم إن أطبقــت محنٌ … ولم يكن وردهـــا يـــدعـــو إلى صـــدرِ

على الفضــــائل إلا الصبرَ بعــــــدهم … ســـلامُ مــرتقبِ لـــلأجــرِ منتظـــرِ

يـــرجـــو عسى ولـــه فى أختهـــا أملٌ … والـــــدهــــر ذو عُقبٍ شتى وذو غُيرِ

قــرطـت آذان من فيهـــا بفـــاضحـــةٍ … على الحســان حصى اليـاقـوت والـدررِ

سيــــارةٍ فى أقـــاصى الأرض قـــاطعـــةٍ … شَقَــاشِقــاً هـدرت فى البـدوِ والحضر

مُطـــاعـــةِ الأمـرِ فى الألبـــابِ قـاضيـــةٍ … من المســـامع مـــا لم يُقض مـن وطـــر

***

وكان أبو محمد هذا[1] يكتب للمتوكل على اللـه ، ونمت حاله معه ، وهـو أحد كُتّاب المغرب ، وممن جمع منهم فضيلتى الكتابة والشعر ، على أنه مُقل من النظم ، ولم يثبت له منه إلا يسير بالنسبـة إلى غزارة آدابه ونباهـة قدره ، وسيمر من مختـار رسائله فى موضعـه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به .

حكى عن نفسه ـ رحمه الله ـ أنه كان بين يدى مؤدبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعن للمؤدب أن قال :

* الشعرُ خُطةُ خَسفِ *

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد ـ رحمه الله : فكتبت فى لوحى مجيزاً له :

* لكـل طـالب عُرفِ *

ثم خطر لى بيت ثان وهو :

للشيـخ عيبـــــــــــةُ عيـب   وللفتـى ظـــــرفُ ظـــــــرفِ

قال : فنظر إلىّ المؤدب وقـال : ياعبد المجيـد ، ما الذى تكتب ؟ فأريتـه اللوح فلما رآه لطمنى وعرَك أذنى وقال : لا تشتغل بهذا ! وكتب البيتين عنده .

ومن غزارة حفظـه ـ رحمه الله ـــ ما حدّث الـوزير الأجلُّ أبـو بكر محمد ابن الـوزير أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر ـ وكان أبو بكر هذا قد مـات عن ســن عالية ، نيف على الثمانين ـ قال :

« بينا أنـا قاعد فى دهليـز دارنا وعندى رجل نـاسخ أمرته أن يكتب لى كتـاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبهـا ، فقلت له : أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك

---

(١) المقصود به ابن عبدون .

به قـال : ما أتيت به معى ، فبينما أنـا معه فى ذلك إذ دخل الـدهليز علينا رجل بـذُّ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسـه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهـــل الباديـة ، فسلم وقعد وقال لى : يابنى ، استأذن لى على الـوزير أبى مروان ، فقلت له : هـو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابـه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نـزوة الصبا ومـا رأيت من خشونـة هيئة الـرجل ، ثم سكت عنى سـاعة ، وقـال : ما هـذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سـؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغـانى ، فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا . وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ، قلت : طلبت منه الأصل الـذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال : لم أجىء به معى ، فقال : يـابنى ، خُذ كراريسك وعارض ، قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هـذا الكتاب فى مدة صباى ، قال : فتبسمـت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يابنى أمسك علىَّ ، قال : فأمسكت عليـه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فـاء ، قرأ هكـذا نحواً من كـراستين ، ثم أخذت لـه فى وسط السفر وآخـره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فـاشتـد عجبى ، وقمت مسرعًـا حتى دخلت على أبى فأخبرتـه بـالخبر ووصفت لـه الرجـــل ، فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القـدمين لا يرفق على نفســه ، وأنا بين يديـه ، وهو يـوسعنى لومـاً ، حتى ترامى على الرجل وعانقـه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقـول يامولاى اعذرنى ، فواللـه ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ، وجعـل يسبنى والرجل يُخفض عليه ويقول : ما عـرفنى ، وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حُسن الأدب .

« ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثـا طويلاً ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأُسرجت ، وحلف عليه ليركبنّها ثم لا ترجع إليه أبدا .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ويحك ! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب ، هذا أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته ؟ »

سمعت هذه الحكاية من أبى بكر بن زهر - رحمه الله - حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف فى شهور سنة ٥٩٥ .

وأنشدنى الوزير أبو بكر المذكور فى هذا التاريخ لنفسه - بعد أن سألنى عن اسمى وعن نسبى فتسميت وانتسبت ، وتسمَّى لى هو - رحمه الله - وانتسب من غير استدعاءٍ ، تواضعاً منه وشرف نفس وتهذيب خُلق ، قدس الله روحه وسامحه :

لاح المشيبُ على رأسى فقلت له : الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا

ياساقى الكأس لا تعدل إلىَّ بها فقد هجرت الحُميَّا والحميم معا !

وأنشدني - رحمه الله - وقال احفظ عنى :

إنى نظرتُ إلى المرآة إذ جُليت فأنكرت مُقلتاى كل ما رأتا

رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى[1]

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ، وله شعر كثير أجاد فى أكثره ، وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدَّم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك .

---

(١) ورد البيتان فى نفح الطيب .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بناالقول إلى ذكر أحوال الأندلس ، فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماء هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها ، استبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر ، فلم يُذكر خليفة أموى ولا هاشمى بقطر من أقطار الأندلس ، خلا أيام يسيرة دُعى فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشبيلية وأعمالها ، حسبما اقتصته الحيلة واضطر إليه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاءالله تعالى فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا .

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختل ، ومُجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوُّفهم ، إلى أن جمع اللـه الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو ، بيُمن نقيبة أمير المسلمين وناصرالدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ذلك ابنه علىّ ، وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها ، فكانت الأندلس فى أيامهما حرما آمنا ، وأول دعاء دُعى للخلافة العباسية ـ أبقاها الله ـ على منابر الأندلس فى أيامهما ، ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عز وجل .

***

ملوك بنى عباد بإشبيلية

وإذا ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس وذكر من ملكها ، فبذلك يتصل

نسق الأخبار عما نريده، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ، لأن ملك إشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ما سُيذكر إن شاء الله تعالى ، فنقول :

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين ، أعنى : على بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن على بن حمود : أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره ، فلما زحف يحيى بن على بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمودمنها وقصد إشبيلية ـ وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين[1] بها ـ اجتمع أمر أهل إشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ، فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضًا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ، فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأى وتنقيح التدبير ، على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى[2] ، لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولاً ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سماهم ، لكى يكونوا له أعوانًا ووزراء وشركاء ، لا يقطع أمراً دونهم ، ولايُحدث حدثًا إلا بمشورتهم ـ وهؤلاء المسمَّون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، فى رجال آخرين ذهبت عنى أسماؤهم إلا أنى أعرف قبائلهم وبيوتهم ـ ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

---

(١) يعنى : ابني القاسم .
(٢) كان قاضياً لمدينة إشبيلية ، أصله من لخم ، من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وفد جده السابع ، واسمه نعيم ، إلى الأندلس ، وكان قبل ذلك مصريًّا من أهل العريش ، فأقام بقرية بقرب تومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية . ومحمد بن إسماعيل هذا أول من نبغ من ولده ، فلما ولى قضاء إشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ، فلما كانت الفتنة وانقضى أمر يحيى بن على المستعلى ، ولاه أهل إشبيلية أمرهم .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ، وعباد ، يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية ، بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن على الفاطمى كما تقدم[1].

وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحًا مصلحًا ، إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

ولاية المعتضد بالله العبادى

ثم ولى ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة، ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده ، وكان شهمًا صارمًا حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ، فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزراء واحدًا واحدا ، فمنهم من قتله صبراً ،ومنهم من نفاه من البلاد ، ومنهم من أماته خمولاً وفقرًا ، إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذى حمله على تدبير هذه الحيلة مارآه من اضطراب أهل إشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة كالمستظهر ، والمستكفى ، والمعتد ، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بنى أمية من يقيمونه ، فادعى ما ادعاه من ذلك ، وذكر أن هشامًا عنده بقصره ، وشهد له خواص من حشمه ، وأنه فى

---

(١) انظر : البيان المغرب ٦٣ .

صورة الحاجب المنفذ لأموره ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته فى سنة ٤٥٥ ، واستظهر بعهدٍ عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين لـه الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وكان قد اتخذ خُشبًا فى ساحة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الأشجار التى تكون فى القصور ، وكان يقول : فى مثل هذا البستان فليُتنزه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس ، كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ، كان قد استوى فى مخافته ومهابته القريبُ والبعيد ، لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً ، كان سبب ذلك أن ولده المذكور ـ كان اسمه إسماعيل ـ كان يبلغه عنه أخبارٌ مضمونها استطالةُ حياته وتمنى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد ، إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلةً وتسوّر سورَ القصر الذى فيه أبوه ، فى عُبدانٍ وأراذل معه ، ورام الفتك بأبيه ، فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأُخذ بعضهم فأقرّ وأخبر بالكائنة على وجهها ، وقيل : إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جُعلاً سنويًّا ، فالله أعلم ، فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ، فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية إشبيلية ، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى ماله حتى افتقر ، ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقًّا فيه دنانير مطلية بالسم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ، وسَلِمَ عليه عنّا ! فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحُقُّ ، فحين وصل مكة لقى الأعمى ودفع إليه الحُق ، وقال : هذا من عند المعتضد ، فأنكر ذلك

الأعمى ، وقال : كيف يظلمنى بإشبيليـة ويتصدق علىّ بالحجاز ؟ فلم يـزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخـذ الحق ، فكـان أول شىء فعلـه أن فتح الحق وعمـد إلى دينـار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلب سـائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ، فأعجب الرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز .

وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيليـة ، فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها فى الأسحار ، مقدِّراً أنه قد أمن غائلته إذا صار مملكة غيره[1]، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه ، البربر : صُنهاجة وبنو برزال الذين بقرمـونة وأعمالها من نواحى إشبيلية ، فلم يزل يصرِّف الحيلـة تارة ويجهز الجيوش أخـرى إلى أن استنزلهم ، ففـرّق كلمتهم وشتت منتظم أمـرهم ونفاهم عن جميع تلك البـلاد وصفت له أموره .

كان له عين بقـرمونة يكتب له بأخبار البربر ، بلغ من لطف حيلـة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الـذى جعله عينًا له بقرمـونة كتاباً فى بعض أمـره ، أن استدعى رجلاً من باديـة إشبيلية شـديد البله كثير الغفلـة ، وقال لـه اخلع ثيابك ، وألَبسـه جُبة جعل فى جيبها كتـاباً وخـاط عليه ، وقال لـه : إخرج إلى قـرمونة ، فإذا وصلت بقـربها فاجمع حُـزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحـاب الحطب ، ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ، وكان قـد قرر هذا كله مع صاحبـه الذى بقرمونة ، فخـرج البدوى كما أمره المعتضد ، فلما قـرب من قرمـونة جمع حـزمة من الحطب ، ولم يكن قبـل هذا يعانـى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل الناس يمرون عليه ويسومـون منه حـزمته ، فإذا قـال : لا أبيعها إلا بخمسة دراهـم ، ضحك مـن يسمع هذا القول منـه ومر عنـه ، فلم يزل كذلك إلى أن أجنـه الليل والناس يسـخرون منه ، فبعضهم

---

(١) كان يحكم طليطلة فى ذلك الوقت بنو ذى النون .

يقول : هـذا آبنوس ! ويقـول الآخر : لا بل هو عـودٌ هندى ! وما أشبـه هذا ، حتى مـر به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حـزمتك هذه ؟فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فـاحملها إلى البيت ، فقام يحملهـا والرجل بين يـديه حتى بلغ بيته ، فـوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهـم ، فلما أخذها وهم بالانصراف قال له : أين تـريد فى هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق ؟ فبت الليلة عنـدى ، فإذا أصبحتَ رجعت إلى منزلك ، فأجابه ، فأدخله إلى بيت وقـدم له طعامًـا ، وسأله كأنـه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقـال : أنا من باديـة إشبيلية ، قـال : ياأخى ، ما الـذى جاء بك إلى هـذا الموضع وقد علمت نكـد البربر وشؤمهم وهـوان الدماء عليهم ؟ فقـال : حملتنى على هذا الحاجة ! ولم يُظهر لـه أن المعتضد أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له : تجرَّد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروَح لجسمك ! فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صـــاحب المعتضد الجبة ففتق جيبهـا ، واستخرج الكتـاب فقرأه وكتب جوابـه ، وجعله فى جيب الجبـة وخاط عليـه كما كان ، فلما أصبح الـرجل لبس جبتـه ، ورجع إلى إشبيلية وقصـد باب دار الإمـارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقال لـه : اخلع تلك الجبة ، وكساه ثيابًـا حسنًا فرح بها البدوى ، وخـرج من عنده فرحًا يـرى أنه قد خلع عليـه ، ولم يعلم فيمَ ذهب ولا بم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة وتمم ما أراد من أمره .

ولـه فى تدبيرملكـه و إحكام أمـره حيل وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثـرها يطـول تعدادهـا ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قتل ابنه إسماعيل ـ كما تقدم ـ وكان قد لقبه المؤيد ، عهد بعده ابنه أبو القاسم محمد ابن عبـاد بن محمـد بن إسماعيل بن عبـاد ، ولقبـه بالمعتمـد على اللـه ، فحسنت سيرة أبى القاسم هذا فى حياة أبيه وبعد وفاته .

[أولية المرابطين فى مراكش]

وفى إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة ــ قبيلتان عظيمتان البربر ــ رحبة مراكش ، فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد ، وكانت نزلوها غيضةً لا عُمران بها ، وإنما سُميت بعبدٍ أسود كان يستوطنها بجنب الطريق اسمه مراكش(1) ، فاستوطنها البربر كما ذكرنا ، وقدّموا عليهم رجلاً كان اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العُدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده ومُخرجوه من ملكه ، فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينفِّر إليهم مصعِّدًا ومصوِّباً ويقول : ياليت شعرى مَنْ تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن يُنزله بك ! فكانت دعوةً وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتى المرابطين رحبة مراكش ، فى صدر سنة ٤٦٣ ، وانفصالهم عنها جملةً واحدة فى وسط سنة ٥٤٠ ؛ فكانت مدة إقامتهم فى الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة

ثم توفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختُلف فى سبب وفاته ، فقيل : إن ملك الروم سمَّه فى ثياب أرسل بها إليه ، وقيل : إنه مات حتف أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبى القاسم ابن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشَّبه بهارون الواثق بالله من

---

(1) ويروى ابن خلكان أن « مراكش » معناها « امش مسرعاً » بلغة المصامدة ، موضعها مأوى للصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع .

ملوك بنى العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه الحلل المنشَّرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ، وفى الجملة فلا أعلم خصلة يُحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ، وإذا عُدَّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدُها ، بل أكبرها .

ولى أمر إشبيلية بعد أبيه ، وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له الخلافة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه فى شهر رجب الكائن فى سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلع وأُسر : عشرين سنة ، كانت له فى إضافتها مآثر أعيا على غيره جمعها فى مائة سنة أو أكثر منها ، كانت له رحمه الله فى تخليد الثناء وإبقاء الحمد .

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرسية اسمه عبد الجليل وهبون ، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعانى وأنشد يومًا بين يدى المعتمد رحمه الله بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما :

قلَّ الوفاء فما تلقاه فى أحدٍ	ولا يمرُّ لمخلوقٍ على باله
وصار عندهم عنقاء مُغربةً	أو مِثلَ ما حدَّثوا عن ألفِ مثقاله

فاعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل وهبون أحد خدم مولانا ! فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤم البحت رجلٌ من خُدامنا والمنقطعين إلينا يقول : « أومُثل ما حدّثوا عن ألف مثقاله ، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة ؟ وأمر له بألف مثقال ، فلما دخل عليه يتشكر له قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبرُ عِيانًا ؟ قال : إى والله يا مولاى ، ودعا له بطول البقاء ، فلما همّ بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدِّث بها لا عنها ، يعنى الألف مثقال[1] .

وله رحمه الله شعر كثير[2] برّز فى أكثره وأجاد ما أراد ، وسيمر منه فى أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز ، عند ذوى التمييز ، فمما أختاره من شعره قوله :

علِّل فؤادك قد أَبلَّ عليلُ	واغنم حياتَك فالبقاءُ قليلُ
لو أن عمرك ألفُ عامٍ كاملٍ	ما كان حقًّا أن يقالَ طويلُ
أكذا يقودُ بك الأسى نحو الردَى	والعُود عودٌ والشمول شمول
لا يستبيك الهمُّ نفسك عنوةً	والكأسُ سيفٌ فى يديك صقيل
بالعقل تزدحمُ الهمومُ على الحشا	فالعقلُ عِندى أن تزولَ عُقولُ !

ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قوله فى مملوكٍ له صغير كان يتصرف بين يديه ، أهداه له صاحب طليطلة ، اسم المملوك سيف :

---

(١) ربما سنة ٢٧ .

(٢) كان ابن وهبون صديقًا لابن عمار ، فلعله هو الذى أنشد المعتمد من شعره ووصل به حبله حتى صار من جلسائه . وقد حكى المقرى أن ابن وهبون كان يوما فى مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبى فى سيف الدولة مُستَحسنًا :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة	أثاب بها مُعيى المطى ورازمه

سمَّوه سيفاً وفى عينيه سيفان هذا لقتلى مسلولٌ وهذانِ

أما كفتْ قتلةٌ بالسيف واحدةٌ حتى أتيح من الأجفان ثنتانِ

أَسرتُه وثنانى غُنجُ مُقلته أسيره ، فكلانا آسرٌ عانى

ياسيفُ أمسكْ بمعروفٍ أسير هوى لايبتغى منك تسريحاً بإحسان !

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح ، الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، قوله فى هذا المملوك وقد عذر :

تم له الحسنُ بالعذار واقترن الليلُ بالنهارِ

أَخضر فى أبيض تبدَّى ذلك آسى وذا بهارِى

فقد حوى مجلسى تمامًا إن كان من ريقِه عُقارى

وبينما هو يومًا فى قُبة له يكتب شيئاً ، أو يطالع ، وعنده بعض كرائمه ، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوى الكائنة فيها ، فقامت دونه تستره من الشمس ، فقال رحمه الله بديهاً :

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتُها عن ناظرى ، حُجبتْ عن ناظرِ الغيرِ

علماً لعمرك منها أنها قمر هل تكسفُ الشمس إلا صورةُ القمرِ !

(=) فقال ابن وهبون مرتجلاً :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تُجيد العطايا ، واللُّها تفتح اللَّها
تنبَّأ عُجباً بالقريض ، ولو درى بأنك تروى شعره لتألها !

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس فى يدها ، إذ لمع البرق فارتاعت ، فقال رحمه الله بديهاً :

ريعت من البرقِ وفى كفها ... برقٌ من القهوةِ لماعُ
عجبتُ منها وهى شمسُ الضحا ... كيف من الأنوار ترتاعُ !

وله مع هذا مقاطع حسان يرتجلها فى مجالس أُنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه ، منعنى من استيفائها قلةُ ما على خاطرى منها .

وسيمر من شعره الذى قاله فى أيام محنته مايفجر الصم ، ويزعزع الشم ، وكان لايستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا شاعراً حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء مالم يجتمع لأحد قبله .

[أبو الوليد ابن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجلُّ ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون ، ذو الأدب البارع والشعر الرائع ، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيراً ، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرىء القيس ، فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله :

بينى وبينك مالو شئت لم يضع ... سِرٌّ إذا ذاعت الأسرارُ لم يذعِ
يابائعاً حظه منى ولو بُذِلتْ ... لى الحياةُ بحظى منه لم أبعِ
يكفيك أنك إن حملت قلبى ما ... لاتستطيع قلوب الناسِ يستطع
تِه أحتمل واستطل أصبر ، وعز أهنْ ... وولِّ أقبل ، وقُل أسَمع ، ومُر أُطعِ !

وهو القائل ــ رحمه الله ـ يخاطب بنى جهور ، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد ، لأن أصله من مدينة قرطبة ، فنالته منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى إشبيلية وافداً على المعتمد ، فعلت رتبته عنده ، فكان يبلغه عن بنى جهور مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جهورٍ أحرقتُمو بجفائكم ... فؤادى ، فما بال المدائح تعبقُ

تعدُّوننى كالعنبرِ الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسُه حين يُحرقُ

ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة ، قصيدته التى قالها يتشوق ابنه المهدى « ولادة »[1] ، وهى بقرطبة وهو بإشبيلية .

[أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا]

بنتم وبنا فما ابْتلتْ جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لِفقدكمُ أيامُنا فغدت ... سُوداً وكانت بِكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيشِ طلقٌ من تآلفنا ... وموردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا

وإذا هصرنا غصون الأنسِ دانيةً ... قُطوفُها فجنينا منه ما شينا

ليُسق عهدُكمُ عهدُ السرورِ فما ... كُنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مُبلغٌ مُلبسينا بانتزاحهم ... حُزنًا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا :

إن الزمان الذى مازال يُضحكنا ... أنساً بقُربهمُ قد عاد يُبكينا !

---

(١) وردت على هامش المخطوطة .

غيظ العدى من تساقِينا الهوى فدعوا   بأنْ نغصَّ فقـال الـدهـرُ آمينـا
فـانحل مـاكـان معقـوداً بأنفِسنـا   وانبتَّ مـاكـان مـوْصـولاً بأيـدينـا
وقـد نكـونُ ومـايُخشى تفرقُنـا   فـاليوم نحنُ ومـايُـرجى تـلاقينـا
[مـاحقنـا أن تُقـروا عين ذى حسـدٍ   بنـا ، ولا أن تسروا كـاشحـاً فينـا
يـاليت شعـرى ولم نُعتب أعـاديكم   هل نـال حظـا مـن العُتبى أعـادينـا
لم نعتقـد بعـدكم إلا الـوفـاء لكم   رأيـاً ولم نتقلـدْ غيره دينـا
كنـا نـرى اليأس تُسلينا عـوارضُـه   وقـد يئسنـا فما لليأسِ يُغـرينـا]
ياسارِى البرق غـادِ القصرَ فَاسْقِ به   من كـان صِرفَ الهوى والودَّ يسقينـا
[واسأل هنـالك هل عينـى تُـذكـرنُى   إلفـاً تـذكـرهُ أمسى يُعنينـا]
ويـانسيم الصبَـا بلغ تحيتنـا   من لـو على البُعـد حيا كـان يحيينـا
[من لايرى الـدهر يقضينا مسـاعفة   فيـه وإن لم يكـن عنـا يقـاضينـا]

***

[وبيـتِ مُلكٍ كـأن اللـه أنشـأه   مِسكـا وقد أنشأ اللـه الورى طينـا]
أو صـاغـه ورقـاً محضـاً وتـوَّجـه   من نـاصع التِّبر إبـداعـاً وتحسينـا
إذا تأود آدتـهُ رفـاهيـة   تُـدمى العقـول وأدمتْـهُ البُرى لينـا
كـأنما نبتت فى صحـن وجنتـه   زُهـر الكـواكب تعـويـذاً وتـزيينـا
مـاضر أن لم نكن أكفـاء ه شرفـا   وفى المودة كـافٍ مـن تكـافينـا

***

لاتحسبوا نأيكم عنا يُغيرنا | إذ طال ماغير النأىُ المحبينا

والله ماطلبت أهواؤنا بدلاً | منكم ولاانصرفت عنكم أمانينا

[ولااستفدنا خليلاً عنك يشغلنا | ولااتخذنا بديلاً منك يُسلينا]

ياروضةً طال مااجنت لواحظَنا | ورداً جناه الصبا غضا ونسرينا

وياحياةً تملؤنا بزهرتها | مُنى ضُروباً ولذاتٍ أفانينا

[ويانعيًما حضرنا من غَضارته | فى وشيِ نُعمى سحبنا ذيلها حينا]

لسنا نُسميك إجلالاً وتكرمةً | فقدرُكِ المعتلِي عن ذاك يُغنينا

إذ انفردت فما شُوركتِ فى صفةٍ | فحسبك الوصف إيضاحاً وتبيينا

ياجنة الخُلد أُبدلنا بسلسلها | والكوثرِ العذبِ زقُوماً وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا | والسعد قد غض من أجفان واشينا

سرّان فى خاطرِ الظلماء يكتُمنا | حتى يكاد لسانُ الصبحِ يُفشينا

[لاغرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت | عنه النهى ، وتركنا الصبر ناسينا]

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سُورًا | مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا

[إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى | مواقف الحشر نلقاكم ، ويكفينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله | شرباً وإن كان يُروينا فيُظمينا

لم يخف أُفقُ جمالٍ أنت كوكبُه | سالين عنهُ ، ولم نهجُره قالينا

ولا اختياراً تجنبناكِ عن كثبٍ | لكن عدتنا على كُرهٍ عوادينا

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة | فيها الشمول وغنّانا مغنينا

لا أكؤُس الراح تُبدى من شمائلنا | سيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلهينا

دُومى على العهدِ ، مادُمنا مُحافِظةً | فالحر من دانَ إنصافاً كما دِينا

فما ابتغينا خليلاً مِنك يَحبسُنا | ولااستفدنا حبيباً عنك يُغنينا

ولو صبا نحونا من عُلوِ مطلعه | بدرُ الدجا لم يكن حاشاكِ يُصبينا

أولى وفاءً وإن لم تبذلى صلةً | فالذكرُ يُقنعنا والطيفُ يكفينا

وفى الجواب قناعٌ لو شَفعتِ به | بيضَ الأيادى التى مازالت تولينا

عليك منى سلام الله مابقيت | صبابة منك تخفيها فتخفينا]

أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعلى فى كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت ، وإنما منعنى من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ، ومن شعره رحمه الله ، مما قاله فى مدة صباه :

أخذت ثُلثَ الهوى غصباً ولى ثلُثُ ... وللمحبِّين فيما بينهم ثُلُثُ

تالله لو حلف العشاقُ أنهمو ... موتى من الوجد يوم البين ماحنثُوا

قوم إذا هُجروا من بعد ماوُصلوا ... ماتوا ، فإن عاد من يهوونه بُعثوا

ترى المحبين صرعى فى عراصهم ... كفتية الكهف مايدرُون مالبثوا

ومما قال رحمه الله يتشوق ابنه المهدى المذكور ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب فى أول قصيدته الكافورية :

« بمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطن ... ولانديمٌ ولاكاسٌ ولاسكنُ » !

قصيدة أولها :

هل تذكرون غريباً عادهُ شجن ... من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ

يُخفى لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السرّ والعلن

ياويلتاهُ ! أيبقى فى جوانحهِ ... فُؤادُه وهو بالأطلال مرتهنُ

وأرق العين والظلماء عاكفة ... ورقاء قد شفها ، أو شفنى ، حزنُ

فَبِتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها ... وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصنُ

يا هل أُجالسُ أقواماً أحبهمُ ... كنا وكانوا على عهدٍ فقد ضغنُوا

أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ... إن الكرام بحفظِ العهدِ تُمتحن

ومنها :

إن كـان عـادكم عيـدٌ فَـرُبَّ فتى | بـالشوق قـد عـاده من ذكركم حـزنُ
وأفـردتـه الليـالى من أحبتـه | فبـات ينشـدُها ممـا جنى الـزمنُ :
« بـم التعلـلُ لا أهـلٌ ولا وطـن | ولانـديم ولاكـأسٌ ولاسكـنُ »

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمـد بن عمار ، ذو النفس العصامية ، والآداب الأهتمية ، كان أحد الشعـراء المجيدين على طريقـة أبى القاسم محمد بن هـانىء الأندلسى(١) ، وربما كان أحلى منزعاً منـه فى كثير من شعره ، ولشعره ديوان يـدور بين أيدى أهل الأندلس ، ولم أُلفِ أحداً ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذتُ عنهم إلا رأيته مقـدمًا له مؤثراً لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبى الطيب ، وهيهات !

---

(١) هو أبـو الحسن محمد بن هـانىء الأزدى ، من ولد المهلـب ابن أبى صفرة ، كـان أبوه يقيم فى المهـدية بالمغرب ، ثم نزح إلى الأنـدلس فى أيام الحكم المستنصر والمنصور ابن أبى عامر ، فولـد له محمد هذا فى إشبيلية ، وحصـل له حظ وافر من الأدب ، ومهر فى الشعر ، وكانـوا يعدونه فى المغـرب كالمتنبى فى المشرق ، وكانا متعاصرين . . .

وكان ابن هانىء غـالياً فى مدائحه ، فـاتُّهِمَ بالكفر وساء فيه رأى النـاس ، حتى اضطر إلى الهجرة ، واتصل بالمعز لدين الله العبيدى ، ومات فى ظروف غامضة سنة ٣٦٢ ولم يزل شابًّا فى عنفوانه ! .

فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ماأراد : قصيدته التى كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد ـ لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه ـ وهى :

عَلى ، وإلا مـــابكـــاء الغمائم وفىَّ ، وإلا مـــانيـــاحُ الحمائمِ

وعنى أثـار الـرعـدُ صرخـة طـالبٍ لثأرٍ وهـز الـرق صفحـةَ صـارم

ومـالبستْ زُهـر النجـوم حـدادهـا لغيرِى ولاقـامت لـه فى مـآتِمِ

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

[إذا ركبـوا فـانظُـره أول طـاعن وإن نـزلـوا فـارصـده آخـر طـاعم]

أَبَى أن يـراه اللـه إلا مُقلـدًا حميلـةَ سيفٍ أو حمالـة غـارمِ

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جـاهُ الهوى ـ فـاستشعـروه ـ عـارُه ونعيمُـه ـ فـاستعـذبـوه ـ أوارهُ !

لاتطلبـوُا فى الحُب عـزًّا إنما عُبـدانُـه فى حُكمـه أحـرارُه

قـالـوا أضر بك الهوى فـأجبتُهم يـاحبـذاه وحبـذا إضرارهُ

قلبى هـو اختـار السقـام لجسمـه زيًّـا ، فخلـوه ومـايختـاره

عيَّرتمونى بـالنحـول وإنما شرف المهنَّـدِ أن تـرقَّ شفـارهُ

وشمتـمُ لفـراق مـن آلفتُـه ولـربما حجب الهلال سرارهُ

أحسبتم السلـوان هبَّ نسيمُـه أو أن ذاك النـوم عـاد غـراره

إن كـان أعيا القلبُ من حـرب الجوى ... خـذلتـه من دمعى إذن أنصـارهُ
مـن قـدٍّ قلبى إذ تثنى قـده ... وأقـام عُـذرى إذ أطل عـذارُه
أم من طـوى الصبح المنير نقـابُـه ... وأحـاط بـالليـل البهيم خمارُه
غُصنٌ ولكن النفـوس ريـاضُـه ... رشـأ ولكن القلـوب عـرارُهُ
سخـرتْ ببـدرِ التـم غـرتُـه كما ... أزرت على آفـاقِـه أزرارُه
مـازال ليل الـوصل من فتكـاتـه ... تسرِى إلىَّ بعـرفِـهِ أسحـاره
ويجود روض الحسن من وجنـاتـه ... دمعى فينـدى رنـدُه وبهارُه
حتى سقـانى الـدهـر كأس فـراقِـه ... فسكـرتُ سُكـراً لايُفيق خُماره
ووقفت فى مثـلِ المحصب مـوقفـا ... للبين مـن حب القلـوب جِمارُه
حيران أعمى الطـرف وهـو سماؤه ... وأذاب فيـه القلب وهـو قـرارُه
ولئن يُـذِبْـهُ وهـو مثـواه فكم ... قـد أحـرقت عُـود العفـارة نـارُه
إن يهنـهِ أنى أضعـتُ لِحُبـه ... قلبـى وذاعـت عنـده أسراره
فليهن قلبى أن شكـاه وشـاحُـه ... لسـواره فـاقتصَّ منـه سـوارُه !
فـوحُسنِـه لقـد انتـدبتُ لـوصفـه ... بـالبُخـلِ لـولا أن حِمصـاً دارهُ
بلـد رمتنى بـالمُنـى أغصـانُـه ... وتفجـرتْ لى بـالنـدى أنهارُه

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة غُنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا إن شاء الله مُورد منها مـالايخل بالشرط الذى التزمتـه ، ولايخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ، لأنى كنت فى حداثة سنى قد صرفتُ عنايتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد ، لما تضمنته من الآداب ، وقد فتشت خزانة حفظى فلم أُلفِ فيها إلا نبذة يسيرة ، وأنا مُوردها إن شاء الله عز وجل .

فـابن عمار هذا هـو محمد بن عمار ، يكنى أبـا بكر ، أصلـه من شلب ، من قريـة من أعمالها يقال لها شنبوس ، مولـده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليـس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حـديثه حظ ولا ذكر فيهم بها أحد ، ورَدَ مدينة شلب طفلاً فنشأ بها ، وتعلم علم الأدب على جماعة ، منهم أبو الحجـاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل إلى قرطبـة فتأدب بها ، ومهـر فى صـناعة الشعر ، فكان قصاراه التكسب بـه ، فلم يزل يجول فى الأنـدلس مسترفداً لايخص بمـدحه الملـوك دون غيرهم ، بل لايبالى ممن أخـذ ولامن استعطف من مَلكٍ أو سُوقة ، وله فى ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلـب ، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عنـد ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه ، فرآها ابن عمار من أَجَلِّ الصلات وأسنى الجوائز ، ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض بـه البخت ، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مـدينة شلب وأعمالها أول ماأفضى الأمر إليه ، فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجملةِ عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمـد على الله حين وليها أيـام أبيه المعتضد بالله ، فكـان أول شىء سأل عنه ، الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : مـاصنع فلان ، أهو حىّ ؟ قالوا : نعم ، فأرسل إليه بمخـلاته بعيـنها بعد أن مـلأها دراهـم ، وقـال لرسـوله : قل لـه : لو مـلأتها بُراً لملأناها تبرا .

ولم يزل ابـن عمار على الحال التى ذكرنـاها ، من التقلب فى بـلاد الأندلس لـلاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بـالله أبى عمرو ، فامتدحه بقصيـدته المشهورة التى أولها :

أدرِ الـزجـاجـةَ فـالنسيمُ قـد انبرى	والنجمُ قد صرف العِنـان عن السرى
والصبحُ قـد أهـدى لنـا كـافـورَه	لما اسـترد اللـيل منـا العنبـرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

عبـــادٌ المخْضر نـــائلُ كفــــه — والجو قـــد لبس الـــرداء الأغبرا
فـــداحُ زنـــدِ المجـــدِ لاينفكُ من — نـــارِ الـــوغى إلا إلى نـــار القِـرى
يختـــارُ أن يهب الخريـدة كـــاعبــا — والطـرف أجـرد والحســـام مُجوهــرا

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيتْ بسيفـك أُمـــةٌ لم تعتقـــد — إلا اليهـــود وإن تسمـــوا بـــربـــرا
أثمـــــرت رُمحك من رءوس كماتهم — لما رأيـت الغصن يُعشـقُ مُثمــــــرا
وخضبت سيفك من دمـــاءِ نحُـورِهم — لما عهِـــــدت الحسن يُلبـس أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولامتأخر بمثله ، وهو قوله :

السيف أفصـحُ من زيـــادٍ خُطبـــة — فى الحرب إن كـــانت يمينُـك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يُكتب فى ديوان الشعراء ، فكـان كذلك ، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهـو إذ ذاك شاب ، فلم تزل حالُه معه تتزايد ، ومواتُّ خدمته له تقوى وتتأكد ، إلى أن صـار ابنُ عمار ألزق بالمعتمد من شعـرات قصه ، وأدنى إليـه من حبل وريده ، كـان المعتمد لا يستغنى عنـه ساعـةً من ليل ولانهار .

ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله « شلب » من قبل أبيه ، فاستوزر ابن عمار هذا فى تلك الولاية ، وسلم إليه جميع أموره ، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما

. . . فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عـــمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماء إليـه : فلم يزل ابن عمار مغترباً فى أقاصى بـلاد الأنـدلس ، إلى أن توفى المعتضـد باللـه ، فاستدعاه المعتمـد ، وقربه أشد تقريب ، حتى كان يشـاركه فيما لايشـــارك فيه الرجل أخاه ولا أباه .

وله معـه أيام كـونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استـدعاه ليلـة إلى مجـلس أُنسه ، على ما كـانت العادة جارية به ، إلا أنه فى تلك الليلـة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمـد عليه ، لتضعن رأسك معى على وسادة واحدة ! فكان ذلك .

قال ابن عمار : فهتف بى هـاتف فى النوم يقـول : « لاتغتر أيها المسكين ، إنه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نـومى فزعا ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حاله الأولى ، فانتبهت من نومى فـزعًا وتعوّذت ، ثم عدت ، فهتف الهاتف على الحال الأولى ، فانتبهت ، ثم عدت فسمعته ثالثـة فانتبهت فتجردت من أثوابى والتففت فى بعض الحصُر ، وقصدت دهليـز القصر مستخفيًا بـه ، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خـرجت مستخفيًـا حتى آتى البحر فأركبـه وأقصـد بلاد العـدوة فأكـون فى بعض جبال البربـر حتى أمـــوت ، فانتبه المعتمد فـافتقدنى ولم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له فى نواحى القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع علىّ ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقـد الباب هل فُتح ، فوقف بإزاء الحصير الذى كنـت فيه ، فكانت منى حـركة فأحس بى ، وقـال : ماهـذا الذى يتحرك فى هـذا الحصير ؟ ثم أمر بـه فنفض فخرجت عُريـانًا ما علىّ إلا السراويل ! فلما رآنى فاضت عينـاه دموعًا وقال : ياأبـا بكر ، ما الـذى حمـلك على هـذا ؟ فلم أر بُـدًا من أن صدقتـه ، فقصصت عليـه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : ياأبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمر ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له

بطول البقـاء ، وتناسى الأمـر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيـام والليالى ، إلى أن كـان من أمره ماسيأتى الإيماء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال ! .

ولما أفضى الأمـر إلى المعتمد كما ذكرنـا ، سأله ابن عمار ولايـة شلب ، وهى كانـت بلدة ومنشأة كما تقدم ، فأجـابه المعتمد إلى ذلك وولاه إيـاها أنبـه ولاته جعل إليه جميع أمـورها ، خارجها وداخلها ، فاستمرت ولايـة ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعُف عن احتمال الصبر عنه ، فاستـدعاه وعزله عنها واستـوزره ، فكانت حاله معـه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد .

ولم يزل المعتمد يُعده لكل أمر جليل ، ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يُناط به أمـرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كـالسكة المحماة ، واشتهر أمره ببـلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذُكر عنده ابن عمار قـال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى ردَّه عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنـه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها ، فخافه النـاس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبًا منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعـه ، فتولى ابن عمار ردَه بألطف حيلـة وأيسر تدبير ، وذلك أنه أقـام سُفرة شطرنج فى غـاية الإتقـان والإبداع ، ولم يكن عند ملك مثلهـا ، جعل صورهـا من الآبنُوس والعود الرطـب والصندل ، وحلاها بالـذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقـان ، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأدفنش ، فلقيه فى أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ فى إكرامه ، وأمر وجـوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حـوائجه ، فأظهر ابن عمار تلك السفرة ، فرآهـا بعض خواص الأدفنش ، فنقل خبرها إليه ، وكـان العلج ـ أعنى الأدفنش ـ مولعًـا بالشطـرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : كيف أنـت فى الشطرنج ؟ وكان ابـن عمار فيه طبقة عاليـة ، فأخبره بمكانه منه ، فقال لـه : بلغنى أن عندك سفرة فى غايـة الإتقان ! قال ابن عمار : نعم ، فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليهـا ، فإن غلبتنى فهى لك وإن غلبتك فلى حُكمى ! فقـال لـه الأدفنش : هلمها لننظـر إليها ، فأمـر ابن عمار من جاء بها ، فلما وُضعت بين يـدى العلج

صلب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش : لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ، ولعله شيء لا يمكنني ! فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش ، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك بردِّه عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة ، فقال له : قد قبلت ما رسمته ! فقال له ابن عمار : فاجعل بيني وبينك شهوداً أسماهم له ، فأمر الأدفنش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار - كما ذكرنا - طبقة بالأندلس ، لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطعن ، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أن لي حكمي ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من هنا إلى بلادك ! فاسود وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه عليّ في أمثال لهذا القول ، وهم بالنكث والتمادي لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يُحمل بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى في وقتك ! فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بما أراد ، فرجع وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرسية وأعمالها ، وهي التي تعرف بتُدمير[1] ، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو المتغلب عليها والمدبر

(١) تدمير : كورة في شرق الأندلس قاعدتها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربي أمير قوطي من قرابة لذريق اسمه ثيودمير (THIODMIR) وكان له مع العرب إبان الفتح قصة من أطرف قصص =

لأمرها ، فجـهز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل لـه ابن عمار بأخذها وإخـراج ابن طاهر عنها ، فولاه مـاتولى من ذلك ، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخـذها وأخرج ابن طاهر عنها[1] ، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسيـة ببنى عبد العزيز ببلنسية[2] ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسيـة دار ملك بنى طاهر كما ذكرنـا ، حدثته نفسه وسـول له سوء رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى

(=) المقاومة ، وباسم هـذا الأمير سمى العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تـدمير تشبيهاً لها بتدمر من بلاد الشام .

أما مرسية فمدينة مستحدثة بعد الفتح العربى ، بناها العرب فى زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمراناً وأصبحت من حواضر الأندلس فى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنـة ٣٠٠ إلى ٣٦٦) . ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحـدة الأنـدلس ، استقل بمرسيـة فتى من موالى المنصور ابن أبى عامر اسمه خيران الصقلبى ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلبى العامرى أيضاً ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركـة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غـرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه إلى حيث لا يعلم أحد ! وقام فى الأمر من بعده فى مرسية جماعة من أبنـاء البيوتـات بها ، منهم الشيخ أبو بكـر أحمد بن إسحاق ، وأبـو بكر أحمد بن طـاهر ، وغيرهما ، ثم صارت إمرتها لأحمد بن طاهر ، ثم من بعده لـولده أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وفى عهده بدا للمعتمـد بن عباد صاحب إشبيلية أن يستـولى عليها ويضمها إلى ملكه ، وكـان شاعره ابن عمار على رأس الحملة ، ويقود جنـده الأمير عبد الله بن رشيق ، فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع أميرها ابن طاهر ، ثم بدا له أن يستـولى عليها لنفسه ، وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشـــتالة ، ولعله كان ينتظـر منه معونة على ذلك ، ولكن . . ولكن الأمور سارت على غير ما أراد .

(١) يذكر بعض المؤرخين أن ابن عمار اعتقله فى قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ، ولكن الفتح بن خاقان يذكر فى القلائد أنه شهـد وفاته سنة ٥٠٧ فى بلنسية وقد جاوز التسعين ، ويذكـر إلى ذلك ما يفيد أنه كان فى وقت ما معتقلاً فى مونت قوط .

(٢) بلنسية : حـاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بـالبحر والجبل ، وكانت قـاعدة الحكم فى شرق الأندلس أيام بنى أميـة ، فلما كانت الفتنة استقل بها صقلبيان من موالى المنصـور ابن أبى عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقـاسما سلطنتها ، مات أولهما ، وثار الأهـالى بالآخر فطردوه ، وبـايعوا صقلبيا آخر من العامريين اسمه لبيب ، ثم آل أمر بلنسية إلى عبـد العزيز بن عبد الرحمن ، من أحفاد المنصور ابن أبى عامر ، فطالت مـدته بها ، (انظر ص ٧٢) ثم خلفه المظفر بن عبد العـزيز ، وهو الذى لجأ إليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية .

أن تم له بعضه ودانت له مرسيـة وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية ، إلى أن قام عليه رجل من أهل مـرسية يقال لـه ابن رشيق ، كـان أبوه من عُـرفاء الجنـد بها ، وكان ابن عمار قـد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجـاء يركض حتى أتى المدينـة وقد غلقت أبوابها دونـه ، فحاصرهـا بمن معه أيامًا ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخـولها ، فبقى حائراً لا يدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ ، فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقسطة[1] ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافـوا غائلته ، وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملـوكها تشنؤه ، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى شقورة[2] ، كان المتغلـب عليه رجلٌ يقـال له ابن مبـارك ، فأكرم وفـادته وأحسن نزله ، ثم بدا له بعد أيام . . فقبض عليه وقيده وجعله فى سجنه ، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال لـه : لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عنـدك وتعرضنى عليهـم ، فمامنهم إلا من يرغب فى ، فمن كـان أشدهـم رغبة جعل لك مـالاً ووجهت بى إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عـرضه على أحدٍ من ملوك الأنـدلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد . . .

وفى ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت فى الســوق يُنـادى علىٰ	رأسـى بـأنــــواعٍ مـن المال
واللــه مــا جـارَ على مـالــهِ	من ضمنـى بـــالثمنِ الغـــالى !

---

(١) كان حاكمها فى ذلك الوقت المؤتمن .

(٢) شقورة : حصن كالمدينـة ، عامر بأهله ، شمالى مرسيـة ، وهو رأس جبل عظيم متصل منيع الجهة ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما النهر الكبير الذى يمر بقرطبـة ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر ببلنسية ، قال ياقوت : وكان بها دار إمارة همشك .

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استرعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه ، فاستدعى مُوسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

بُـؤسى شقُورة عندى ... أربى على كل بُوسَى
فقدتُ « هارون » فيها ... فظلت أطلبُ « مُوَسى » !

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك ، بعد أن بعث إليه بهال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدلى تبن ، وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بُعْدٍ لايستطيع الوصول إليه ، فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول !

فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة القعساء والمُلك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلاً خائفًا فقيرًا لا يملك إلا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أمتعه .

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته ، قال : لما قرُبنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار - وكان معتمًّا - أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته .

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت ، يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرقٌ لاينبس ، إلى أن انقضى كلام

المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أُنكر شيئًا مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات فضلاً عمن ينطق ، ولكنى عثرتُ فأقل ، وزللت فاصفح ! فقال المعتمد : هيهات ، إنها عثرة لا تقال ! وأمر به فأحدر فى النهر إلى إشبيلية ، فدُخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة ، وجُعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ـ وهو باق إلى وقتنا هذا ـ فطال سجنه هناك .

كتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رُقى لم تنجع ، ودعوات لم تُسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك فى أخذى برأيك ، لاتُطع ... عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

فإن رجائى أن عندك غير ما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفتُ ودًّا وخدمة ... يكران فى ليل الخطايا فيصبح

وهبنى وقد أعقبتُ أعمال مُفسدٍ ... أما تفسدُ الأعمال ثُمت تصلح

أقلنى بما بينى وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جُرمٍ سلكتُها ... بهبة رحمى منك تمحو وتُمصح

ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل إناء بالذى فيه يرشح

سيأتيك في أمري حديث وقد أتى ... بزور بنى عبد العزيز موشح

وما ذاك إلا ما علمت فإننى ... إذا ثُبت لا أنفك آسو وأجرح

كأنى بهم لا در لله درُّهم ... وأشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلانٌ بفعله ... فقلت وقد يعفو فلانٌ ويصفح !

ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى ... ولكن حلماً للمؤيد يرجُح

وماذا عسى الواشون أن يتزيَّدوا ... سوى أن ذنبى واضح متصحح

نعم لى ذنبٌ غير أن لحلمه ... صفاةٌ يزل الذنب عنها فيسفح

عليه سلامٌ كيف دار به الهوى ... إلىّ فيدنو أو علىّ فينزح

ويهنيه ـ إن مُتُّ السلوُّ فإننى ... أموت ولى شوقٌ إليه مُبرح

وبين ضلوعى من هواه تميمةٌ ... ستنفع لو أن الحمامَ يجلِّح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يُزرى على هذا البيت « وبين ضلوعى . . . » ويقول : ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد ـ رحمه الله ـ أن قال : أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء ، إنما نظر إلى بيت الهُذلى من طرف خفى ، وهو :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع !

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد ، إلى أن قتله صبراً فى شهور سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعضُ الرقة ، فوجه إليه ليلاً وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأتى به يوسف فى قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترفق للمعتمد عِطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد ، فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطف المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته ، فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضًا لا تصريحًا ، وأمر برده إلى محبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بها دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة ، فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص ، فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ، فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صُنْت هذا الكتاب عن ذكرها ، فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له :

هل أخبرت أحداً بما كان بينى وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول : قل له : الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى(١) ؟ فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد : هلمَّ المسودة ! فلم يجد جوابا ، فخرج المعتمد حَنِقاً وبيده الطبرزينُ حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ، حتى انكبَّ على قدمى المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شىء ، فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى برد .

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ماانتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقى على خاطرى .

رجع الحديث عن بنى عباد

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعده ، والدهر على مايريده يؤازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس مالم ينتظم لملك قبله ، أعنى من المتغلبين ، ودخل فى طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية ، وهى التى تعرف بتدمير ، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

---

(١) يلاحظ أن السجناء فى ذلك الوقت كان يؤذن لهم فى الكتابة وتهيأ لهم أسبابها ، فهل يحث مثل هذا اليوم فى بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان فى القلائد ، أن صاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلاً عنده ، كان يأذن له فى الكتابة إلى أصحابه ويأذن لهم فى زيارته ومسامرته ، وأثبت لنا من هذا الباب قصيدة ممتعة كتب بها ابن عمار إلى صديقه أبى الفضل ابن حسداى الشاعر ، يستزيره فى معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ماهو فيه !

وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١ (١) ، ثم رجع إلى إشبيلية واستخلف عليها(٢) ولده عباداً ولقبه بالمأمون ، وهو أكبر ولد له فى حياة أبيه المعتضد ، وسماه عبادا ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول : ياعباد ، ياليت شعرى من المقتولُ بقرطبة ، أنا أو أنت ؟ فكان المقتول بها عبادًا هذا فى حياة أبيه المعتمد وفى السنة التى زال عنهم الملك فيها .

أول أمر المرابطين بالأندلس

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ، مستنصراً به على الروم(٣) ، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء ، وأنزله أكرم نُزُل ،

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبنى جهور ، فطمع المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة فى استخلاصها لنفسه ، فسير إليها جيشه ، ولم يكن ذلك بعيداً من تدبير ابن عباد ، فلما رأى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب إلى المعتمد بن عباد أن يعينه ، فوافى جيشه قرطبة ، ونزل بربضها الشرقى . ولم يتم للمأمون ما أراد ، فنزح عن قرطبة ، وخلا الجو بذلك لابن عباد ، فأحدق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى إخوته ، وأخرجوه عن قرطبة ، ودخلت حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم فى ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لإشبيلية ، وتولى أمرها الظافر ابن المعتمد ، ولكن إمارتها لم تخلص له طويلاً ، فقد كان أهلها مستمسكين بدعوة الخلفاء ، يأملون أن تعود مدينتهم حاضرة الخليفة من بنى مروان ، فلم تلبث أن ثارت على الظافر ، وكان ابن عكاشة على رأس الثائرين ، فبرز له الظافر ليلاً ، منفرداً عن جنده ، فلم يزل يدافع الثائرين ويدافعونه ، حتى سقط صريعاً ، وظل جسده ملقيًّا على الأرض حيث سقط حتى مر بجثته قبيل الصبح أحد الأئمة المغلسين ، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به ، وأذاع نبأ مصرعه . . .
وبلغ النبأ المعتمد فى إشبيلية فأوجعه ، ولكن فجيعته فى ولده لم تلهه عن التدبير لملكه ، فلم يزل يسعى حتى استأصل دعاة الفتنة ، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة ، وجعل ولايتها إلى ولده المأمون خلفاً للظافر فلم يزل والياً عليها حتى قتله المرابطون يوم دخولهم قرطبة ! .

(٢) يعنى على قرطبة .

(٣) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأدفنش سنة ٤٧٨ على طليطلة من يد القادر ابن ذى النون ، قوى سلطانه وعظم أمله فى الاستيلاء على إشبيلية وقرطبة وغيرهما من قواعد الأندلس فأجمع ملوك الطوائف ـ وكبيرهم ابن عباد ـ أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك الغرب ، فدعوه لنصرتهم ، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه فى الاستئثار بملك الأندلس دونهم ، وقد كان ماتوقعوا وتوقع ابن عباد معهم ، وكانت نكبة المعتمد على يدى نصيرة الذى استجار به ، يوسف بن تاشفين .
وكما فعل ابن عباد ببنى جهور حين استعانوه لدفع المأمون ابن ذى النون عن قرطبة فنكبها واستخلصها لنفسه ، فعل يوسف بن تاشفين ببنى عباد .

وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورجُل ليستعين بهم فى حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه ، وقال له : أنا أوّل منتدِب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه فى طلبه ، ولم يَدْرِ أن تدميره فى تدبيره ، وسَلَّ سيفاً يحسبه له ولم يدرِ أنه عليه ، فكان .

قال أبو فراس :

إذا كان غير الله للمرءِ عُدةً ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حُذيفةٍ ... وكان يراها عُدةً للشدائد !

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ، وذلك فى شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفاره من القُوّاد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس فى عدد كثير من الرَّجل ، فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سَبتة ، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد فى وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ، فكان هذا أول ما أوقع فى نفس يوسف التشوفَ إلى مملكة جزيرة الأندلس .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقى الأندلس ، وسأله المعتمد دخول إشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أيامًا حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده ، فأبى عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه .

وكان الأدفنش ـ لعنه الله ـ محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر .

أصحابه[1] ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته ، وقطع طمع الأدفنش ـ لعنه الله ـ عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدِّر أنها فى ملكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة ، وكان لقاء المسلمين عدوهم ـ كما ذكرنا ـ فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠[2] ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحًا لهم وبهم ، فسُر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعًا فيها ، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التَّلاف ، من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة ، فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود فى الصدور .

ثم إنه أحب أن يجول فى الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفى خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله ، ويقول مصرِّحًا : إنما نحن فى ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده .

[بين المعتصم ابن صمادح والمعتمد ابن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظى عنده واشتد تقريب أمير

---

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الوقعة فى تحديد عدد الناجين مع الأدفنش من عسكره ، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، قادة وجنوداً ، إلا قلة لا يكاد يخطئها الإحصاء ، وأصيب الأدفنش نفسه فى إحدى ركبتيه إصابة لزمه أثرها ما بقى من حياته ! .

(٢) الثابت تاريخيا أن وقعة الزلاقة كانت وقعت سنة ٤٧٩ هـ .

المسلمين لـه : أبـو يحيى محمـد بن معن بـن صمادح المعتصم صـاحب ألمريـة(١) ، وكـان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسـة عليه ، لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناوئه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يعيبه فى مجالسه وينال منـه ، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مـروءته ونـزاهة نفسه وطهـارة سريرتـه وشدة ملوكيته ، وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير ، توجه إلى شرقى الأندلس يتطوف على مملكته ويطـالع أحوال عماله ورعيتـه ، فلما دانى أول بلاد المعتصم ، خرج إليـه فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلا ، وعزم عليـه ليدخلن بلاده ، فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المتعصم وآخر حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطلحا فى الظاهر ، واحتفل المعتصم فى إكرامـه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ماظنه مُكمـداً للمعتمد مثيراً لغمه ، وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقـه الكريم عنه وعصمه بفضلـه منه ، ثم افترقا بعد أن أقـام المعتمد عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ، وبإثر ذلك عبر إلى مراكش ، ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطف فى خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشـد تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رجُلا هذه الجزيرة ! يعني المعتصم والمعتمد ، وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إيـاه ، ثنـاء المعتمـد عليـه عنـد أمير المسلمين ، ووصفـه إيـاه عنـده بكل فضل ، ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به .

ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين ، بدا لـه أن يسعى فى تغيير قلبه على المعتمد وإفساد مـابينهما ـ حسن لـه ذلك سوء رأيه ودنس سريـرته وضعف بصره بعـواقب الأمور ،

---

(١) ألمرية : مدينة على ساحل البحر الرومى ، كانت قاعدة الأسطول الإسلامى ، وكان بها خيران العامرى من ملوك الطـوائف ، ثم زهير من بعده ، فلما هلك زهير آلت إلى عبد العـزيز ابن أبى عامـر صاحب بلنسية ، وغلبه عليها غدراً صهره ووزيـره معن بن صمادح والد المعتصم المذكور ، فاستتبَّ له الأمر بها وأورثها خلفه المعتصم . . .

وليقضى الله أمراً كـان مفعولا ، وليبلغ القدر ميقاته ، وإذا أراد اللـه تمام أمر هيأ له أسبابًا ـ فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ، ولم يدر أنـه ساقط فى البئر الذى حَفَـرْ ، وقتيل بالسلاح الذى شَهَرْ ، فكان من جملة مـا ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يقرر عنده عُجب المعتمد بنفسه ، وفرط كِبره ، وأنه لا يرى أحداً كفؤاً له ، وزعم أنه قال له فى بعض الأيام ـ وقد قال له المعتصم : طـالت إقامـة هـذا الرجل بـالجزيرة ، يعنـى أمير المسلمين ـ : « لـو عوجت لـه إصبعى مـاأقام بها ليلـة واحدة هـو ولا أصحـابه : وكأنك تخاف غـائلته ، وأى شىء هـذا المسكين وأصحابه ؟ وإنما هـم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم إلى هذه البـلاد نُطعمهم حسبة وائتجارا فإذا شبعوا أخرجنـاهم عنها إلى بلادهم ! » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ، وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد .

وقد كـان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحـابه أجـلاً وحد لـه ولهم مدة يقيمـونها فى الجزيـرة لايـزيـدون عليهـا ، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمـد وتسكينًـا لخاطـره ، فلما انقضت تلك المدة أو قاربت ، عَبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغِرَ صدرُه وتغيرت نفسه .

ومـــا النفس إلا نطفـــة فى قــرارة　　　إذا لم تكـدر كـان صفـواً غـديـرهـا

هذا مع ما ذكرنا من طمعه فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها ، وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غُير عليه !

نكبة بنى عباد

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيمُ المقعد ، فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابـه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئًا ، فلما رأيت تلك البلاد ، صغُـرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلـة فى تحصيلها ؟ فـاتفق رأيـه ورأى أصحابـه على أن

يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجال من صُلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ومُجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحبُ الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فإذا كان أمرٌ من قيام بدعوتهم أو إظهارٍ لمملكتهم وجدوا فى كل بلد لهم أعوانًا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس ـ كما ذكرنا ـ قد أُشرِبت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وَأَمَّرَ عليهم رجلاً من قرابته يسمى بُلُجين وأسرَّ إليه ما أراده ، فجاز بُلُجلينُ المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرنى بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من يُنزله ببعض الحصون التى اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العُدوة ، دون مقدمةٍ ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذى قدمنا ذكرهم ، الكائنون فى الحصون ، إلى قرطبة ، فحاصروها وفيها عُباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد ، وقُتل عبادٌ هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جَلداً وصبرًا ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ ، فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت فى غُلَوائها الفتنة .

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة ، فأُعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة ، وكُشف له عن مرادها ، وأُثبت عنده سوء اعتقادها ، وأُغرِى بتمزيق أديمها وسفك دمها ، وحُض على هتك حريمها وكشف حُرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ،

ورأيـه الأصيل ، ومذهبـه الجميل ، وما حبـاه اللـه به من حســـن اليقين ، وصحـة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنسروا بُغـاثا غير مستنسر ، فبرز هـو من قصره ، سيفه بيـده ، وغلالـه ترفُّ على جسـده ، لا درقة له ولا درع عليـه ، فلقى على باب من أبواب المدينـة يسمى باب الفرج ، فـارساً من الـداخلين مشهور النجدة شـاكى السلاح ، فـرماه الفـارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله عنه ، ودفعـه بفضله منـه ، وصـب هـو سيفه على عـاتق الفارس فشقـه إلى أضلاعـه فخر صريعًـا ، وانهزمت تلك الجمـوع ، ونزل المتسنمـون لـلأسوار عنهـا ، وظن أهل إشبيليـة أن الخناق قد تنفس .

فلما كـان عصر ذلك اليوم ، عـاودهم القوم ، فظُهـر على البلد من واديـه ، ويئس من سُكنى ناديـه ، وبلغ فيه الأمل حاسـده وشانيه ، وشبت النار فى شـوانيه ، فانقطع عنـدها الأمل والقول ، وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول ، وكـان الذى ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحـاب يوسـف أمير المسلمين يُعرف بحـدير بـن واسنُو ، ومن الـوادى رجلٌ يعرف بـالقائد أبى حمامـة مولى بنى سجـوت ، والتوَت الحال أيـامًا يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سِيرُ بن أبى بكر بن تاشفين ـ وهو ابن أخى أمير المسلمين ـــ بعساكر متظاهرة ، وحشودٍ من الرعيـة وافرة ، والنـاس فى خلال هـذه الأيام قـد خامـرهم الجزع ، وخالط قلـوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحـة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتـولجون مجارى الأقذار ، ويترامون من شرفات الأسوار ، حرصًا على الحياة ، والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون ، إلى أن كان يـوم الأحد لإحدى وعشرين ليلـة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهـذا يوم الكـائنة العظمى ، والطـامـة الكبرى ، فيـه حُمَّ الأمر الـواقع ، واتسع الخُرق على الـراقع ، ودُخل البلـد من واديـه ، وأصيب حـاضره وبـاديـه ، بعـد أن جد الفـريقـان فى القتـال ، واجتهدت الفئتـان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمـد رحمه الله وبأسه ، وتـراميه على الموت

بنفسه ، مـالا مزيد عليه ، ولا تنـاهِ لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمـد بعد ما نزل بـالعدوة أسيراً حسيرًا :

لما تماسكت الـــــدمــــوع وتنهنـــــه القلب الصــــديعْ
قـــالــوا الخضـــوع سيـاســـة فليبـــــدُ منك لهم خُضـــــوع
وألـــــذُّ من طعـم الخضــــو ع على فمـــى الســـمُّ النقيـــع
إن تستلـب عنى الـــــدُّنـــا مُلكى وتُسلمنـى الجمــــوع
فـــــالقلـبُ بين ضلــــوعــــه لم تُسلـم القلـب الضلـــوع
لم أُستلـب شرف الطبــــــا ع أيُسلـب الشرف الـــــرفيع
قـــد رُمـتُ يـــوم نـــزالهم ألا تُحصنـى الــــــدروع
وبـــرزتُ ليـس ســوى القميــ ـص عـن الحشـا شيء دفـــوع
وبـــذلتُ نفســـى كى تسيـــ ـــل إذا يســيلُ بها النجيـــع
أجلى تـأخــــــــر لم يكــن بهواى ذُلى والخُشــــــــوع
مــــا سرت قط إلى القتــــا ل وكــــان مـن أملى الـــرجـــوع
شيـمُ الألى أنــــا منهمـــــو والأصـلُ تتبعُـــــه الفــــروع !

فشُنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد مـن أهلها سبداً ولا لبداً ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحـاً ، وأُخذ هو قبضاً باليـد وجُبر على مخاطبة ابنيه : المعتد بـالله ، والراضى باللـه ، وكانا بمعقلين من معـاقل الأندلس المشهـورة ، لو شاء أن يمتنعـا بهما لم يصل أحدٌ إليهما ، أحد الحصنين يسمى رنُدة ، والآخر مارتُلة ، فكتب [إليهما][1] رحمه الله ، وكتبت

(١) إضافة من المطبوع .

السيدة الكبرى أمهما ، مستعطفين مسترحمين ، مُعلمين أن دم الكل منهم مُسترهن بثبوتهما ، فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ، فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قُتل غيلة وأخفى جسده .

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بُلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ، فأقام بها أيامًا ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قُبح الكُدية و إفراط الإلحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدّها عند وصوله إليه .

ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ـ سقطت من حفظى ـ ووجه بها إليه ، فلم يجاوبه عن القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه . كان هذا الرجل ـ أعنى الحصرى الأعمى ـ أسرع الناس فى الشعر خاطرًا ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قُل لمن قد جمع العلم ... وما أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر ... فتنظَّرنا جوابه
قد أثبناك فهلاَّ ... جلب الشعر ثوابه ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلحفِى أهلِ الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى ، تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله :

شُعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الإغراب أبعد مذهبِ
سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحقُّ فاعجبْ واعجبِ
لولا الحياء وعزةٌ لخمية ... طى الحشا ساواهمُ فى المطلبِ
قد كان إن سُئل الندى يُجزل وإن ... نادى الصريخُ ببابهِ اركب يركبِ

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

قُبح الدهرُ فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيسًا نزعا
قد هوى ظلمًا بمن عادته ... أن ينادى كل من يهوى لَعَا !
من إذا الغيثُ همى منهمرا ... أخجلته كفُّه فانقطعا
من غمامُ الجودِ من راحتِه ... عصفت ريحٌ به فانتشعا
من إذا قيل الخناصُم وإن ... نطق العافُون همساً سمعا
قل لمن يطمع فى نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوةً : ... جبر اللهُ العُفاة الضيَّعا

وأقام المعتمد بطنجة ـ رحمه الله ـ أيامًا على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة[1] ، فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفى المعتمد ، رحمه الله ، ودفن بها فقبره معروف هناك[2] وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع إلى الغرب من فارس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلاً .
(٢) أغمات : مدينة وراء مراكش ، بينهما مسافة يوم ، ولم يزل قبر المعتمد معروفًا بها حتى القرن الحادى عشرالهجرى ، وقد زاره المقرى صاحب نفح الطيب سنة ١٠١٠ من الهجرة ، قال : فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب ، يعنى لسان الدين ، وقد كان زاره قبل ذلك بقرنين وثلث قرن ، =

وقيل سنة ٨٨ فالله أعلم . وسنُّه يوم توفى إحدى وخمسون سنة(١) .

فمن أحسن مامر بى مما رثى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة(٢) وأولها :

لكل شىء من الأشيــاء ميقــات ... وللمُنى من منــايـاهُن غــايـاتُ

والدهر فى صبغة الحرباء منغمسٌ ... ألــوانُ حـالاتـه فيها استحـالاتُ

ونحن من لُعب الشطـرنج فى يـده ... وربما قُمـرت بـالبيـدقِ الشـاةُ

فـانفض يـدك من الـدنيا وسـاكنهـا ... فالأرضُ قـد أقفرت والنـاس قد مـاتوا

(=) ووصفه فقال : وهو بمقبرة أغمات ، فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سدرة ، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما .

قال ابن الطيب فأنشدت فى الحال :

قــد زرت قبرك عن طـوع بـأغمات ... رأيـت ذلـك مـن أولى المهمات

لم لا أزورك يـا أنـدى الملـوك يـداً ... ويـا سراجَ الليـالى المدلهمات

وأنت من لـو تخطَّى الـدهـرُ مصرعَـه ... إلى حيـاتى لجادت فيـه أبيـاتى

إلخ . . . . .

(١) كذا يروى المراكشى ، وأهل التاريخ مختلفون فى تحديد سنه يوم وفاته ، بين الحادية والخمسين والخامسة والخمسين . وقد ذكر المؤلف (ص ١٠٢) أن المعتمد تولى العرش وعمره ٣٧ سنة ، وأنه بقى على العرش عشرين سنة ، وكانت وفاته بعد خلعه بأربع سنوات ، فعلى هذا يبلغ عمره عند وفاته إحدى وستين سنة !

(٢) هو أبو بكر الدانى محمد بن عيسى بن محمد اللخمى ، من مشاهير شعراء الأندلس فى المائة الخامسة ، وكان منقطعًا إلى بنى عبَّاد ، وفيهم أجود مدائحه ومراثيه ، ولهم أبدع ما نظم من شعر فى مختلف الفنون ، وقد ألف كتابين فى أخبار بنى عباد ، أحدهما « السلوك فى وعظ الملوك » وقد ضمنه عدة مقطوعات وقصائد فى البكاء على أيامهم وما انتثر من نظامهم ، والآخر « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا . . . وله غير هذين كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » . توفى بميورقة سنة ٥٠٧ .

وقال عنه ابن الآبار فى التكملة : « وابن اللبانة هذا هو الذى قال أحسن قصائده فى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ماحفظه الناس حفظ النثر لنفاسته .

وقُل لعـــالمهـــا الأرضى قــــد كتمت سريـــــرة العـــالم العُلـــوىِّ أغماتُ

طـــوت مظلتهـــا ، لا بـل مـــذلتهـــا من لم تـــزل فـــوقه للعـــز رايـــاتُ

من كـان بين الندى والباس ، أنصُلـه هنـــديـــةٌ وعطـــايـــاه هُنيـــداتُ

أنكـــرت إلا التـــواءً للقيـــود بـــه وكيف تُنكـــر فى الـــروضـــات حيـاتُ

وقلتُ هــن ذؤابـــــاتٌ فلم عُكســت من رأســه نحــو رجليــه الـــذؤابـات

رأَوه ليثـاً فخـــافـوا منـــه عـاديـــة عـذرتهم فلِغُــدوى الليث عـادات[1]

وله قصيدة يرثيهم بها ، وهى كثيرة الجيد أولها :

تبكى السماءُ بـــدمعٍ رائحٍ غـــادى على البهـــاليلِ مـن أبنـــاءِ عَبَّـــاد

على الجبـالِ التى هُـدتْ قـــواعـدُهـا وكـــانت الأرضُ منهـم ذات أوتـــاد

والـرابيـاتُ عليهـــا اليـانعـاتُ ذوت أنـــوارُهـا فغــدت فى خفضِ أوهـــاد

عـــريسـةٌ دخلتهـــا النـــائبـــاتُ على أســـــأودِ لهمُ فيهـــا وآســــــاد

وكعبـــةٌ كـــانت الآمـالُ تعمـــرهـــا فـــاليـــوم لا عـــاكفٌ فيهـــا ولا بـــاد

تلك الـــرمـــاحُ رِمـاحُ الخط ثقَّفهـــا خطبُ الـــزمـان ثِقـافـاً غير مُعتـاد

والبيض بيضُ الظبـا فلت مضـاربها أيـــدى الـــردى وثنتهـــا دون إغماد

لما دنـــا الـــوقتُ لم تخلــف لــه عِـــدة وكـل شىءٍ لميقــــــاتٍ وميعـــــاد

كم من درارى سعـــد قد هـــوت ووهت هُنــــاك من دُررٍ للمجـــد أفـــراد

---

(١) وردت هذه الأبيات فى كتاب : قلائد العقبان .

نُـورٌ ونـورٌ فهـذا بعـد نعمتـه ذوى وذاك خبـا من بعـد إيقـاد

يـاضيف أقفـر بيتُ المكـرمـاتِ فخُـذ فى ضم رحلِك واجمع فضلـة الـزاد

ويـــامـــؤمل واديهم ليسكُنـــه خفَّ القطينُ وجَفَّ الـزرع بـالـوادى

ضلتْ سبيلُ الندى بابنِ السبيل فسر لغيرِ قصـدٍ فما يهديك من هـادى

وفيها يقول :

نسيتُ إلا غـداة النهـرِ كـونهم فى المنشـآتِ كأمـواتٍ بألحاد

والنـاسُ قـد مـلأوا العبرين واعتبروا من لـؤلـؤٍ طـافيـاتٍ فـوق أزبـاد

حُـط القنـــاع فلـم تُسْتر مُخدرة ومُـزِّقـت أوجُـهٌ تمزيـقَ أبـراد

تفـرقـوا جِيرةً من بعـد مـانشئوا أهـــلاً بـأهـلٍ وأولاداً بـأولادِ

حـان الـوداعُ فضجت كـل صـارخـةٍ وصـارخٍ مـن مُفـداةٍ ومن فـادى

سـارت سفـائنُهـم والنـوحُ يتبعُهـا كـأنها إبـلٌ يحدو بها الحادى

كم سـال فى الماء من دمـعٍ وكم حملت تلك القطـائعُ مـن قِطعـاتِ أكبـاد

من لى بِكـم يـابنى مـاءِ السماءِ إذا ماءُ السماء أبـى سُقيا حشـا الصادى

وهى طويلة جدا(١) ، هذا ما اخترت له منها .

---

(١) قيل عنه : إن نسبه يرجع للنعمان بن المنذر ابن ماء السماء .

أبو بكر الدانى

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى[1] ، من أهل مدينة دانية ، وهى على ساحل البحر الرومى ، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه علىٌّ الموفق على ما تقدم .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن عبد العزيز منهما لم يرضَ الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبًا ، وإنما كان من جملة التجار ، وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيره مكسبًا وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ، وشعره نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المهيع ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها ، وجودة المعانى ولطافتها ، كان منقطعًا إلى المعتمد ، معدودًا فى جملة شعرائه ، لم يفد عليه إلا آخر مدته ، فلهذا قل شعره الذى يمدحه به .

وكان ـ رحمه الله ـ مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه ، قليل المعرفة بعلله ، لم يجِد الخوض فى علومه ، وإنما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ، يدل على ذلك قوله فى قصيدة له سيرد ما أختاره منها فى موضعه :

من كان يُنفق من سواد كتابِه ... فأنا الذى من نور قلبى أُنفق

ولما خُلع المعتمد على الله وأُخرج من إشبيلية ، لم يزل أبوبكر هذا يتقلب فى البلاد ، إلى أن لحق بجزيرة ميورقة[2] ، وبها مُبشر العامرى المتلقب بالناصر ، فحظى عنده وعلت حاله

---

(١) انظر : نفح الطيب ١٤٧ .

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هى أكبر جزائر الأندلس فى بحر الروم ، على ساحلها الشرقى ، مصاقبة لقطلونيا وبلنسية ، ويسميها الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .

وكان مقدم ابن اللبانة إلى ميورقة فى آخر شعبان سنة ٤٨٩ ـ بعد بضعة أشهر ، أو بضعة عشر شهرًا من موت المعتمد ابن عباد بأغمات ـ وكان عليها مبشر بن سليمان العامرى ، من موالى المنصور ابن أبى عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التى مطلعها :

مَلِكٌ يَروُعك فى حلى ريعانِه ... راقت بـرونقِهِ صفاتُ زمانه !

معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء ، فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر ، وذلك أنه جعلها ، من أولها إلى آخرها ، صدرُ البيت غزل وعجزهُ مدح ، وهذا لم أسمع به لأحد ، وأول القصيدة :

وضحت وقد فضحت ضياء النيِّر … فكأنما التحفت بِبِشرِ مُبشر

وتبسمت عن جوهرٍ فحسبتُه … ماقلدتهُ محامدى من جوهرِ

وتكلمت فكأن طيب حديثها … مُتعتُ منه بطيب مسك أذفرِ

هزت بنغمةٍ لفظها نفسى كما … هُزَّت بذكراه أعالى المِنبر

أذنبتُ واستغفرتُها فجرت على … عاداتِه فى المذنِبِ المستغفِر

جادت علىَّ بوصلها فكأنه … جدوى يديه على المقلِّ المُقتر

ولثمتُ فاها فاعتقدت بأننى … من كفه سُوغت لثم الخِنصَرِ

سمحت بتعنيقى فقلتُ صنيعةٌ … سمحت غُلاه بها فلم تتعذَّرِ

نهدٌ كقسوةِ قلبِه فى معركٍ … وحشاً كلين طباعه فى محضرِ

ومعاطفٌ تحت الذوائبِ خلتُها … تحت الخوافقِ ماله مِن سمهرى

حسُنت أمامى من خمارٍ مثل ما … حسُن الكمى أمامه فى مِغفرِ

وتوشَّحتْ فكأنه فى جوشنٍ … قد قام عنبرهُ مقام العِثْيِرِ

غمزت ببعض قسيه من حاجبٍ … ورنت ببعض سهامه من محجرِ

أومت بمصقول اللحاظ فخلته … يُومى بمصقول الصفيحة مُشهرِ

وضعت حشاياها فويق أرائكٍ … وضع السروج على الجياد الضُمَّرِ

من رامةٍ أو رومةٍ ، لا عِلَم لى … ألنت عن النعمان أم عن قيصرِ

بنتُ الملـــوك فقـل لكسرى فـــارس تُعـــــــــزى وإلا قُـل لِتُبَّـع حمير

عـاديتُ فيهـا غُـر قــومي فـاغتـدوا لاأرضُهــم أرضـــى ولا هـــم معشرِى

وكــذلك الــدنيـا عهِـدْنـا أهلهــا يتعـــافــرون على الثـريــد الأعفـــر

طـــافت على بحمـــــرةٍ من خمرة فــرأيت مـــريخاً بـــراحــةِ مُشترى

فكـأن أُنملَهـــــا سيــــوف مُبشرٍ وقـــد اكتست علـق النجيع الأحمر

ملـكٌ أزِرَّةُ بُـــــــرده ضُمـت على باس الـــوصى وعــزمـةِ الإسكنـدر

هذا ما اخترت له منه .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هـــلاَّ ثنـــاك علىَّ قلبٌ مُشفـق فترى فـــراشـــاً فى فـــراشٍ يُحرقُ

قـد صرتُ كـالـرمقِ الـذى لا يُـرتجى ورجعتُ كـــالنفسِ الـــذى لا يُلحقُ

وغـــــرقتُ فى دمعـى عليك وغمنـى طـــــرق فهل سببٌ بـــــه أتعلق

هل خـــدعـــةٌ بتحيـــةٍ مخفيـــة فى جنب مـــوعــدك الـذى لا يصـــدقُ

أنت المنيـــةُ والمُنى ، فيك استـــوى ظل الغمامـــةِ والهجيرُ المُحـــرق

لك قَـــدٌّ ذابلـــةِ الـــوشيج ولـــونُها لكـن سنـــــانُـك أكحـلٌ لا أزرق

ويقــــال إنـك أيكـــــةٌ حتـى إذا غنيـت قيل هـــــو الحمامُ الأورق

يـــا من رشقـتُ إلى السلـو فـردنى سبقت جُفـــونُك كـل سهم يُـــرشقُ

لـو فى يـــدى سحـرٌ وعنـــدى أخـذةٌ لجعلـت قلبـك بعــض حينٍ يعشـقُ

لتـــذُوق مـا قــد ذقتُ من ألم الجوى وتــــرقَّ لى ممـــا تـــراه وتُشفِق

جســـدى من الأعـــداء فيك لأنـــه   لا يستبين لطـــرف طيفٍ يـــرمقُ
لم يدرِ طيفُك مـوضعى من مضجعى   فعـــذرتُـــه فى أنـــه لا يطـــرقُ
جفت عليك منـــابتى ومنـــابعى   فــالدمع ينشغُ والصبـابـةُ تـورقُ
وكـأن أعــــــــلام الأمير مُبشرٍ   نشرت على قلبـى فـأصبـح يخفـقُ

وفيها يقول ، يصف لعب الأسطول فى يوم المهرجان :

بُشرى بيـــوم المهـــرجـانِ فـإنـــه   يـــومٌ عليـــه من احتفـــائك رونقُ
طـــارت بنـاتُ الماءِ فيــه وريشُهـــا   ريشُ الغـــراب وغيرُ ذلـك شـــوذَق
وعلى الخليج كتيبـــــةٌ جــــرارةٌ   مثل الخليـجِ كـــــلاهما يتـــــدفق
وبنُـــــو الحروب على الجواريِّ التى   تجرِى كما تجرى الجيــــاد السُّبقُ
مــلأ الكماةُ ظهــورهـــا وبطــونها   فأتت كما يـأتى السحـــاب المُغـــدقُ
خــاضت غـديــر الماء سـابحـةً بـه   فكـــأنما هـــى فى سرابٍ أينـــق
عجبـــاً لها ! مـــاخلـتُ قبل عيـانِها   أن يحمل الأســـد الضـــوارى زورقُ
هـــــزت مجاديفـــــاً إليك كـأنها   أهـــدابُ عينٍ للـــــرقيـب تُحدِّق
وكأنها أقـــــلامُ كـــــاتبِ دولـــــةٍ   فى عــرض قــرطــاسٍ تخُط وتمشق

وله فيها إحسان كثير ، وله من قصيدة يتغزل :

فــؤادى مُعنًّى بـــالحســـان مُعنت   وكل مـــوقى فى التصـــابى مُـــوقتُ
ولى نفسٌ يخفى ويخفُت رقـــــةً   ولكن جسمـى منـــه أخفـى وأخفتُ

وبى ميتُ الأعضــــاء حـى دلالـــه   غـــرامى بـــه حـى وصبرى ميتُ

جعلت فـؤادى جفن صـارم جفنــه   فيـاحــرَّ مـا يصلى بــه حين يُصلتُ

أذل لــــه فى هجــرهِ وهـــو ينتمى   وأسكُنُ بـالشكـوى لـه وهـو يسكتُ

ومـا انبتَّ حبلٌ منــه إذ كـان فى يـدى   لـــريحانِ ريعـــان الشبيبـــة منبت

ومن جيد ما لَهُ من قصيدة يمدح بها مبشرًا ناصر الدولة أولها :

راق الـــــربيعُ ورق طبع هـــوائه   فــانظــر نضــارة أرضـــه وسمائه

واجعل قـرين الــورد فيـه سـلافـةً   يحكى مُشعشعُهـا مُصعــد مــائه

لـــولا ذبـول الـــورد قلت بأنـــه   خـــد الحبيب عليـــه صبغُ حيـــائه

هيهــات أين الـورد من خد الــذى   لا يستحيل عليك عهـــدُ وفـــائه

الـــورد ليس صفـــاتُـه كصفـــاتِــه   والطيرُ ليس غنـــاؤهـــا كغنـــائه

يتنفس الإصبـــاح والـــريحان من   حــركـــات معطفـــه وحسن روائه

ويجول فى الأرواح روح مـــــاسرت   ريـــــاهُ من تلقـــائه بلقـــــائه

صرف الهوى جسمى شبيـه خيـالِـه   من فــرط خفتـــه وفـرط خفـائه

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بها خالاً ، وهما :

بـــدا على خـــده خـــالٌ يُــزينــه   فـــزادنى شغفـــاً فيـــه إلى شغفِ

كأن حبـــة قلبـى عنـــد رؤيتـــه   طـارت فقـال لها : فى الخد منـه قفى !

ولابن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعنى من استقصائه خوف الإطالة ، وأيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعًا لهذا الباب ، وإنما يأتى منه فيه ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث .

رجع الحديث إلى أخبار المعتمد

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .

وبلغنى أن رجلاً رأى فى منامه قبل الكائنة العظمى على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعًا صوته :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسهُم	فى ذُرى مجدهم حين بسق
سكت الدهرُ زماناً عنهُم	ثم أبكاهم دماً حين نطق !

فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات ، أن آثر حظياته وأكرم بناته أُلجئت إلى أن تستدعى غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها ، وتصلح به ما ظهر من اختلالها ، فأدخل عليها فيما أُدخل غزلٌ لبنت عريف شُرطة أبيها ، كان بين يديه يزعُ الناس يوم بروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ، واتفق أن السيدة الكبرى أم بنيه [1] ، وكان الوزير أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر بمراكش ، قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه [2] ، فكتب إليه المعتمد

---

(١) هي السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(٢) هو جد أبى بكرا بن زهر السابق ذكره ، وذكر أبيه ، وقد كان أبو العلاء هذا — كما يقول ابن دحية فى كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب — وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفى بقرطبة سنة ٥٢٥ .

راغباً فى علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه ، فكتب إليه الوزير مؤديًا حقه ومجيبًا له عن رسالته ومُسعفًا له فى طلبه ، واتفق أن دعا له فى أثناء الرسالة بطول البقاء ، فقال المعتمد فى ذلك :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى ... أسيرٌ أنْ يطول به البقاء

أليس الموتِ أروح من حياةٍ ... يطول على الشقىِّ بها الشقاء

فمن يكُ من هواه لقاء حب ... فإن هواى من حتفى اللقاء

أأرغب أن أعيش أرى بناتى ... عوارى قد أضر بها الحفاء

خوادم بنت من قد كان أعلى ... مراتبه إذا أبدو النداء

وطرد الناس بين يدىْ ممرى ... وكفهمو إذا غص الفناء

وركضٌ عن يمينٍ أو شمال ... لنظم الجيش إن رُفع اللواء

يُعينه إمامٌ أو رواء ... إذا اختلَّ الأمام أو الوراء

ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير خالص نفع الدعاء

جُزيت أبا العلاء جزاء بر ... نوى برا وصاحبك العلاء

سيُسلى النفس عما فات علمى ... بأن الكل يُدركه الفناء

وورد عليه أغمات أبو بكر ابن اللبانة المتقدم الذكر ، ملتزماً عهد الوفاء قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى ، فسُر المعتمد بوروده ، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر ، استنفد المعتمد وُسعه ووجه إليه بعشرين مثقالا وثوبين وكتب إليه معها :

إليك النزر من كفِّ الأسير ... فإن تقبل تكن عين الشكور

تقبل ما يذوب له حياءً ... وإن عذرته حالات الفقير !

ولا تعجب لخطبٍ غض منه ... أليس الخسف مُلتزم البدور ؟
ورج لجبره عُقبى نداه ... فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت عُلاه من حضيض ... وكم حطت ظُباه من أمير
وكم من منبرٍ حنت إليه ... أعالى مُرتقاه ومن سرير
زمان تزاحفت عن جانبيه ... جياد الخيل بالموت المُبير
فقد نظرت إليه عيونُ نحسٍ ... مضت منه بمعدوم النظير
نحوسٌ كن فى عُقبى سُعودٍ ... كذاك تدور أقدار القدير
وكم أحظى رضاه من حظىٍّ ... وكم شهرت عُلاه من شهير
زمان تنافست فى الحظ منه ... مُلوك قد تجُور على الدهور !
بحيث يطير بالأبطالِ ذُعرٌ ... ويلفى ثم أرجح من ثبير

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه ، وصرفه بجملته إليه ، وكتب مجيباً له عن شعره :

سقطت من الوفاءِ على خبير ... فذرنى والذى لك فى ضميرى
تركتُ هواكَ وهو شقيق دينى ... لئن شُقَّت بُرودى عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا ... لئن أصبحت أجحف بالأسير
أسيرُ ولا أصيرُ إلى اغتنامٍ ... معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشكرُ كان وإن تناهى ... على نُعمى فما فضل الشكور ؟

جـــذيمـــةُ أنت والأيـــامُ خـــانت ... ومـــا أنـــا مـن يقصر عن قصير (١)

أنـــــا أدرَى بفضِلـك منـك إنـي ... لبسـت الظـل منـــــه فى الحرور

غنـــيٌّ النفـــسِ أنـــت وإن ألحَّت ... على كفيـك حـــــــالاتُ الفقيرِ

تُصرف فى النـــدى حيـل المعـــالى ... فتسمُـح مـن قليـلٍ بـــــالكثير

أحـــدث منـك عن نبعٍ غـــريبٍ ... تفتـح عـن جنـى زهـــــرٍ نضير

وأعجـب منـك أنـك فى ظـــــلامٍ ... وتـــرفع للعُفـــاة منـــار نُـــور

رويـــدك ســـوف تـــوسعنى سرورًا ... إذا عـــاد ارتقـــاؤك للسريـــر

وســـوف تُحلنى رتب المعـــالى ... غـــداة تحل فى تلـك القصـــور

تـــزيـــد على ابـن مـــروان عطـــاء ... بها وأنيف ثـم على جـــريـــر (٢)

تـــأهب أن تعـــود إلى طلـــوعٍ ... فليس الخسـف مُلتـــزم البُـــدورِ

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رد بـــــرى بغيـــاً علىَ وبِـــرًّا ... وجفـا فـــاستحق لـومـــاً وشكـرا !

---

(١) وجذيمة : هو جـذيمة بن الأبرش ملك العراق ، وهو لخمى موصـول النسب بالمعتمد ، وقصير : هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به المثل فيقال : « لأمر ما جدع قصير أنفه ! » .

وجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمثال ، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة هذا ثأراً لأبيها ، فجدع قصير أنفه وذهب إليهـا فى دار ملكها يوهمها أن قومه جـدعوا أنفه لأن إليها ولاء ه ، فصدقته الزباء ومنحتـه ثقتها ، فاحتال عليها حتى أمكن قومه منها فقتلـوها ثأراً لجذيمة ، فكان عمله هذا مثـلا من أمثلة الوفاء لمليكـه المنكوب ، وإلى هذه الصورة من صـور الوفاء يشير ابن اللبانـة فى هذا البيت ، وابن اللبانة ينتسب إلى لخم كذلك !

(٢) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريراً الشاعر .

حاط نزرِى إذ خاف تأكيد ضُرى | فاستحق الجفاء إذ حاط نزرا
فإذا ما طويت فى البعض حمدًا | عاد لومى فى البعض سرا وجهرا
يا أبا بكرِ الغريبَ وفاءً | لا عَدِمْناك فى المغارب ذُخراً
أىَّ نفعٍ يجدى احتياطُ شفيق | مُت ضرا فكيف أرهبُ ضُراً ؟

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله :

أيها الماجد السميدع عُذرًا | صرفى البر إنما كان برا
حاش لله أن أجيح كريمًا | يتشكى فقرًا وكم سد فقرا
لا أزيد الجفاء فيه شُقوقاً | غدر الدهر بى لئن رمتُ غدرا
ليت لى قوةً أو آوى لركن | فترى للوفاء منى سرا
أنت علمتنى السيادة حتى | ناهضت همتى الكواكب قدراً
ربحت صفقة أزيل برودًا | عن أديمى بها وألبس فخراً
وكفانى كلامُك الرطب نيلاً | كيف أُلفى دُرًّا وأطلب تبراً !
لم تمت إنما المكارمُ ماتت | لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره :

قَبر الغريب سقاكَ الرائح الغادى | حقًّا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت | بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا | بالموت أحمر بالضرغامة العادى

بالدهر فى نقمٍ بالبحر فى نِعَمٍ ... بالبدر فى ظُلَمٍ بالصدر فى النادى

نعم هو الحق حابانى به قدرٌ ... من السماء فوافانى لميعاد

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمُه ... أن الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارْفُقْ بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعَّاد

يبكى أخاه الذى غيبت وابله ... تحت الصفيح بدمعٍ رائح غادى

حتى يجودك دمع الطل منهمرًا ... من أعين الزهر لم تبخل بإسعادِ

ولا تزل صلوات الله دائمةً ... على دفينك لا تُحصى بتعداد !

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رشحه للملك من بعده ، وجعله ولى عهده ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله ، فعاقته الفتنة عن مراده ، وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده ، فما برح بفخر الدولة هذا تغير الأيام بعد الفتنة إلى أن أسلم نفسه فى السوق ، وتعلم من الصنائع صنعة الصواغ ، فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعرُ أبيه ، فقال فى ذلك :

أذكى القلوب أسى أبكى العيون دماً ... خطبٌ وجدناك فيه يُشبه العدما

أفراد عقدِ المنى منا قد انتثرت ... وعقد عُروتنا الوثقى قد انفصما

شكاتُنا فيك يا فخر الهدى عظُمت ... والرزء يعظم فيمن قدرُه عظُما

طُوقت من نائبات الدهر مخنقةً ... ضاقت عليك ، وكم طوقتنا نعما !

وعاد كونك فى دُكان قارعة ... من بعد ما كنت فى قصرٍ حكى إرما

صرفت فى آلة الصواغ أنمُلَة ... لم تدرِ إلا الندى والسيف والقلما

يدٌ عهدتُك للتقبيل تبسُطها ... فتستقل الثريا أن تكون فما

يا صائغاً كانت العليا تُصاغ له حلياً وكان عليه الحلى مُنتظما

للنفخ في الصور هولٌ ما حكاه سوى هولٍ رأيناك فيه تنفُخ الفحما

وددت إذ نظرت عيني إليك به لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى

ما حطك الدهر لما حُطَّ من شرفٍ ولا تحيف من أخلاقك الكرما

لُج في العلا كوكبًا إن لم تَلُح قمراً وقُم بها ربوةً إن لم تقم علما

واصبر فربَّمَا أحمدت عاقبةً من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما

والله لو أنصفتك الشهب لا نكسفت ولو وفى لك دمع المزن لانسجما

يحكى حديثك حتى الدر حين غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما

وروضة الحُسن من أزهارها عريت حُزناً عليك لأن أشبهتها شيما

بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى ريحانك الغض يذوى بعد ما نعما

لم يرحم الدهر فضلاً أنت حاملُه من ليس يرحم ذاك الفضل لا رُحما

شقيقك الصبح إن أضحى بشارقةٍ وأنت في ظلمةٍ فالصبحُ قد ظلما

***

فصـــل

رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس

وإنما أوردنـا هذه النبـذة اليسيرة من أخبـار المعتمد على اللـه ، مع مـا تعلق بها ، وإن كانت مُخرجة عن الغرض ، لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك ، وأيضًـا فليتصل نسق الأخبـار عن المملكـة ، أعنى مملكـة الأنـدلس إلى المرابطين أصحـاب يوسف بن تاشفين ، ولـوجه ثالث : وهو أن مـا آلت إليه حال المعتمد هـذا من الخمول بعد النباهـة ، والضعة بعد الـرفعة ، والقبض بعد البسـط ، من جملة العبر التى أرتناهـا الأيام ، والمواعظ التى تصغِّر الدنيا فى عيون أولى الأفهام .

ثم إن يوسف بن تاشفين استوثق له أمـر الأندلس بعد القبض على المعتمد ، إذ كان هو كبش كتيبتهـا ، وعين أعيانها ، وواسطـة نظمهـا ، فلم يـزل أصحاب يـوسف بن تـاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ، فأظهروا فى أول إمرتهم من النكايـة فى العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحمايـة الثغور ، ما صـدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقـر العيون ، فزاد حب أهل الأنـدلس لهم ، واشتد خوف ملـوك الروم منهم ، ويوسف بـن تاشفين فى ذلك كله يمـدهم كل ساعـة بالجيـوش بعد الجيـوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقـول فى كل مجلس من مجالســه : « إنما كـان غـرضنـا فى مِلك هـذه الجزيـرة أن نستنقذها من أيـدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلـة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحـة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تُسمعه ، ولهو يقطع به أيـامه ، ولئن عشت لأعيـدن جميع البلاد التى ملكها الـروم فى طول هـذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأمـلأنهَّا عليهم ـ يعنى الـروم ـ خيـلاً ورجـالاً لا عهد لهم بـالدعـة ، ولا علم عندهم برخاء العيـش ، إنما هَمُّ أحدهم فرس يروضه ويستفرِهـه ، أو سـلاحٌ يســتجيده ،

أو صريخ يلبى دعوته . . . . » فى أمثال لهذا القول ، فبلغ ذلك ملوك النصارى ، فيزداد فرقهم ، ويقوى ـ مما بأيدى المسلمين ، بل مما بأيديهم ـ بأسُهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شىء منها ، عُدَّ من يومئذ فى جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنة ، وتسمَّى هو وأصحابه بالمرابطين ، وصار هو وابنه معدودين فى أكابر الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هى حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ، ومعدودون منها ، فهى مطلع شموس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، أعدل الأقاليم هواء ، وأصفاها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نبتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالاً .

أرضٌ يطير فؤادى من قرارته ... شوقاً لها ولمن فيها من الناس

قومٌ جنيت جنى وردٍ بذكرهم ... فهل بلُقياهم أجنى جنى آسِ ؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولُه ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم .

أعيان الكُتَّاب فى دولة المرابطين

واجتمع له ولابنه من أعيان الكُتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار ، فممن كتب لأمير المسلمين يوسف : كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق فى البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب ، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى

أحدثهـا متأخرو الكتاب ، اللهم إلا مـا جاء فى رسـائله من ذلك عفواً من غير استـدعاء ، رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ماوصفته به ، ليس على خاطرى منها شىء .

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب لـه أو لابنه ، بعـد أبى بكر هـذا ـ الـوزير الأجل أبـو محمـــد عبد المجيـد بن عبـدون ، قد تقدم من نعته ما أغنـانا عن تكراره هنا ، وكان يكتب قبل من كتب له منهما ، للأمير سير ابن أبى بكـر بن تاشفين ، وهو الذى دخل على المعتمـد على الله إشبيلية ، فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاءٍ منه له .

فمن رسائلـه عنه إلى أمير المسـلمين ، رسـالة يخبر فيها بفتح مـدينة شنترين[1] أعادها الله ، وكان سيرُ هذا هـو الذى تولى فتحها ، فكتب عنه أبو محمد كتـابًا « أدام الله أمر أمير المسلمين ، ونـاصر الدين ، أبى الحسن على بن يـوسف بن تاشفين ، خـافقةً بنصرة الـدين أعلامه ، نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامـه ، من داخل مدينة شنترين ،وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ، ويُمن نقيبتك على المسلمين » .

« والحمد للـه رب العالمين ، حمداً يستغـرق الألفاظ الشـارحة معنـاه ، ويسبق الألحاظ الطامحة أدنـاه ، لايرد وجهـه نكوص ، ولا يحد كنهـه تخصيص ، ولا يحزره بقبضٍ ولا ببسطٍ مثـالٌ ولا تخمين ، ولا تحصره بخط ولا بعقـد شمال ولا يمين ، ولا يسعـه أمـد يحويـه ، ولا يقطعه أبد يستوفيه ، ولا يجمعه عدد يحصيه ، إذا سبقت هواديه ، ولحقت تواليه » .

« وعلى محمدٍ عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه ، نظام الأمة ، وإمام الأئمة ، سر آدم من بنيـه ، وفخر العـالم ومن فيه ـــ صلاةٌ تـامة نقضيهـا ، وتحية عامـة نؤديها ، تـرفض ارفضـاض الزهـر من كمامه ، وتنفض انفضـاض المسك من ختامه ، فلقد صـدع بتوحيده ،

---

[1] تقع هذه المدينة فى الشمال الشرقى من مدينة أشبونة .

« أنا مع عمادى الأعظم ـ أدام الله علوه ـ كعزيبٍ طواه الجهد ، وآواه من تهامة وهد ، وماله بريحها العقيم ولا بحرها المقعد المقيم عهد ، فرفضت به من سرابها المغرق وشرابها المحرق فى حمام ، فأشرف من ذلك الجحيم وضرمه ، لولا تنفيس الرحيم عنه بكرمه ، فوأَلَ إلى ربوة من رُباها ، وسأل جبال فاران عن مهب صباها ، ليلتقط من أنفاسها بواسطة نجد ، برداً يهديه إلى حرِّ الوجد ، فحيته ببليل من نسيمها العليل ، فأحيته بعد التعليل » .

« وأنا ما قصدت فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنما سلكتُ سبيل الاقتداء ، واتبعت دليل الاهتداء ، وأردت أن أستنير بأضوائك ، وأستثير من سمائك ، نجومًا تهدينى فى غسق الظلام ، أو رجومًا تعدينى على مُسترق سمع الكلام ، فإن سمح عمادى بالجواب ورجعه ، غالبت ـ بما حصل منه لدى ووصل إلىّ ـ الحمام فى سجعه ، والأنصار فى حسانها ، والإعصار فى نيسانها ، وطيئاً فى وليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدها وشبيبها ، وخرقت ـ بما أعار من مراح وأثار من ارتياح ـ جيب مخارق طربًا ، ولم أدع لأبى العتاهية فى المغرب وخفيفه المطرب أربًا ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد ، وأضربت صفحًا عن أناشيد لبيد ، وطالبت بُلغاء العصر ، بالمثل المضروب فى جمل مصر ، وقلت هذه القارة فراموها وأَنصِفوا ، وهذه الغاية فروموها أو نصفوا ، وإن كانت تؤمه البواهر ما أُنْحِلت فى درجى ، ونجومه الزواهر ما حلت فى برجى ، وإن كفى من جنى ثماره لصفر ، وإن طرفى من سنا أقمارها لقفر ، وإنى بضنه علىّ بدُرَّةٍ من بحره ، أو نفثة من سحره ، لبين ظنين ، لم أحصل من تحقيقهما على أثرٍ ولا عين : أحدهما قلت : إنه أجرى اسمى على خلده ، فلم يجدنى فى أنداده ولا بلده ، فقال : وما أنا وفلان ، وهل هو إلا من الغرب ، وإن كان بزعمه فى الصميم من العرب ، وهل الغرب فى الأقطار ، إلا كاللحق بين الأسطار ، والآخر ربما يقول ، ما لا تقبله العقول : إنى لأنظر من فلان بأحد من نظر الزرقاء ، وإلى أجلَّ من خطر العنقاء ، وينشد قول أبى العلاء ابن سليمان ، شاعر معرة النعمان :

** أرى العنقاء تكبر أن تُصادا **

« وأنا أقسم بالربيع الممطر وائتلاف أوانه ، والبقيع المزهر واختلاف ألوانه ، والشباب ودولته ، والمضراب وصولته ، والمثانى إذا نسقت ، والقنانى وما وسقت ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقى رايتها بشمال ولا يمين ـ أن اسمى فى البلغاء والفُهَما ، كاسم العنقاء فى الأسما : اسم ما وقع على مسمى ، ولفظ ما دل على معنى فأين أقع مما تريد ، وكتابى بين يدى حمدى أو عتابى بريد ، ينفض تهائم ظنونى ، أو ينفض تمائم جنونى ، وله الرأى العالى فى الجواب ، على خطأ كنت من ظنٍّ أو صواب ، إن شاء الله عز وجل » .

« ومن سلامى ، على عمادى الأعظم وإمامى ، أحفله وأحفده ، وأجزله وأوفده ، والسلام الأتم الأعم عليه ورحمة الله وبركاته » .

فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلها فى بابها ، أبدع فيها غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلُّف ، تسمى هذه الرسالة « الحولية » منعنى من إيرادها فى هذا المرسوم ما فيها من الطول .

ولأبى محمد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال ، وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال .

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف ــ كما ذكرنا ـ فى إيثار الغزو ، وقمع ملك الروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ، إلى أن توفى فى شهور سنة ٤٩٣[1] .

ولاية أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه « المرابطين » ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ، وكان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن

---

(١) أجمع المؤرخون على أن موته سنة ٥٠٠ هـ .

وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه ، أبو عبد الله محمد ابن أبى الخصال ، وحُق له ذلك ، إذ هو آخر الكُتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله ـ مع ذلك ـ فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب ، واليد الطولى .

فمما أختار لـه ، رحمه الله ، فصولاً من رسالة كتب بها مُراجعًا لبعض إخوانه ، عن رسالةٍ وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحبُ الرسالة هو أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

« وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحق ـ وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل عليه ـ كتابه البليغ ، واستدراجه المريغ ، فلولا أن يصلد زند اقتداحه ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتنقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ـ للزمت معه مركز قدرى ، وصُلتُ سريرة صدرى ، لكنه بنفثات سحره يُسمع الصم ، ويستنزل العُصم ، ويقتاد الصعب فيُصحَب ويستدر الصخور فتُحلَب .

« ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفكَر ، وخفق القلب بين الأمن والحذر ، فطاردت من الفِقَر أوابد قفر ، وشوارد عفر ، وتغبر فى وجه سائقها ، ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقِها ، فعلمت أنها الإهابة والمهابة ، والإصابة والاسترابة ، حتى أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ، إلا زِبرْجاً يعقب جوادًا ، وبهرجاً لا يحتمل انتقادًا ، وأنى لمثلى والقريحة مرجاة ، والبضاعة مزجاة ـ ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ، ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قدح ، ولا تحصل لى فى سوقه ربح ، ولكنه جو خال ، ومضمار جُهال ، وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته للرزق ، وأنا ـ أعزك بالله ـ أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النتف الأخيرة ، وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القدح فى اختيارك ، والإخلال بمختارك ، وعلى ذلك فوالله ما من عادتى أن أثبت ما أكتب فى رسم ينقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطب يُتحفز له ويُحتفل ، وإنما هو عفو فكر ، ويسير ذكر » .

« وعذراً ــ أعزك اللـه ـ فإنى خططته مـا خطط والنوم مُغـازل ، والقُر منـازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليـه صولة الحجاج ، فطـورًا تسدده سنانًا ، وتارة تحركـه لسانًا ، وآونة تطـويه حُبابـة ، وأخرى تنشره ذؤابـة ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفـه برة ذهـب ، أو حمة عقرب ، وتُقوسه حاجب فتاة ، ذات غمزات ، وتُسلطه على سليطة ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً ، وتسل روحه من ذبالهِ ، وتعيـده إلى حاله ، وربما نعبته أذن جواد ومسخته حـدق جراد ، ومشقتـه حروفاً بـرق ، بكف ودق ، ولثمت بسناه قنـديله ، وألقت على أعطافـه منديلـه ، فلا حظ منـه للعين ، ولا هدايـة فى الطرس لليـدين ، والليل زنجى الأديم ، تبرى النجوم ، قد جللنـا ساجه ، وأغرقتنا أمواجـه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقـاء لاكتحلت ، أو خضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صـافح خيشومـه ذنبـه ، وأنكر البيت وطُنبـه ، والتوى التـواء الحُبـاب ، واستدار استـدارةَ الحباب ، وجلـده الجليد ، وصعـد أنفاسـه الصعيد ، فحِماه مُبـاح ، ولا هريـر ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مُغرِب ، أو نجم مَغْرِب . استوى الفصل ، ولك فى الإغضاء الفضل والسلام » .

ولأبى عبد اللـه هذا ديوان رسـائل يدور بأيدى أدبـاء أهل الأندلس ، قد جعلـوه مثالاً يحتذونه ، ونصبوه إمـامًا يقتفونه ، منعنى من إيراد ما أختـار له من ذلك ، خوف الخروج إلى التطويل الممل ، والإكثار المخل .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخـوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن أخـر أمـير المســلمين أبا مروان عن الكتـابة ، لموجدةٍ كانت منه عليـه ، سببها أنه أمره وأخاه أبا عبـد الله أن يكتبا عنه إلى جنـد بلنســية ، حين تخاذلـوا وتواكلوا حتى هـزمهم ابن رذمير ـ لعنـه الله ـ هـزيمةً قبيحة ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، فكتب أبوعبد الله رسالته المشهورة فى ذلك ، وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبـة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيـرادها ما فيها من الطول ، وكتب أبـو مروان رسالة فى ذلك الغـرض ، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ، فمن فصولها قوله :

وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم ، فقوى طمعه .

وكر راجعًا إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى الفقيه ، وجرت له بها وقائع فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية عن البلاد ، فركب البحر ، فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهل السفينة فى البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعَظُم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية[1] فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ، واجتمع عليه الناس ، ومالت إليه القلوب ، فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ، فنزل بضيعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ، وبها لقيه عبد المؤمن بن على ، وهو إذ ذاك متوجهٌ إلى المشرق فى طلب العلم ، فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التى كانت عنده ، وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره فى علم خط الرمل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجُفورٍ من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه[2] .

---

(١) بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب . كان أول من اختطها الناصر ابن علناس بن حماد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مرغناى أربعة أيام .

(٢) روى ابن خلكان أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب ، هجاء اسمه ت ى ن م ل ل ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه ، يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فما كان ابن تومرت يمر بموضع إلا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته ــ وكانت حلية عبد المؤمن معه ـ فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده ، على الصفة التى معه ، فقال له وقد تجاوزه : مااسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه وقال له : الله أكبر ! أنت بغيتى . ونظر فى حليته فوافقت ما عنده . . . (=)

وبلغنى من طرق صحاح أنه لما نزل ملالة ـ الضيعة التى تقدم ذكرها ـ سُمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع فى اسمه ميم ولامان ، فكان ـ كما ذكرنا ـ إذا كررها يقول : ليست هى !

وأقام بهذه الضيعة أشهرًا ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باق إلى اليوم ، لا أدرى أبُنى على عهده أو بعده .

. . . فاستدعى عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب[١] ، وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل فى طلب العلم إلى المشرق ، فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتُعيننى على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده .

وأقام ابن تومرت بملالة أشهرًا ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقى[٢] ، وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ، وخرج متوجهاً إلى المغرب .

(=) و الجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ، فزعم الروافض أن الإمام جعفراً الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون إليه وكل ما هو كائن أو سيكون إلى يوم القيامة . . .

وحديث الجفور طويل فى بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من أهل الجماعة .

(١) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بنى سليم ، فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم » .

(٢) نظنه يعنى أبا عبد الله الونشريسى ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبد الله التومرتى كما يسميه ابن كثير ، ويذكره ابن خلكان باسم عبد الله الونشريسى بلا كنية ، أولئك جميعًا ـ فيما نرى ـ شخص واحد ، اسمه عبد الواحد ، وكنيته أبو عبد الله ، وينتسب إلى « ونشريس » بليدة بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، إلى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقى ، والونشريسى ، والتومرتى ، من أجل ذلك جميعًا .

مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور ، لأنه وجد جوًا خاليًا ، وألفى قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع ، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا إلى والى البلاد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام ، فأمره والى البلد بالخروج ، فخرج متوجهاً إلى مراكش .

ابن تومرت فى حضرة ابن تاشفين

وكُتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فلما دخلها أحضر بين يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة[1] ، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ، حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك فى جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفقُ فى ذلك الزمان ، وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سماه « قُراضة الذهب ، فى ذكر لئام العرب » ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، فجاء الكتاب لا نظير له فى فنه ، رأيته فى خزانة بنى عبد المؤمن .

ولمالك بن وهيبٍ هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، رأيت بخطه كتاب « الثمرة » لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب « المجسطى » فى علم الهيئة ، وعليه حواشٍ بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبى .

ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت ، استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته ، فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجل مُفسد لا تؤمَن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ! فتوقف أمير المسلمين فى قتله ، وأبى ذلك عليه دينه ، وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يُعد فى قوّام الليل وصُوّام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعَفًا ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من

---

(١) ذكر ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان رواية مختلفة .

لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ووزراً على ماتقدم . . .

. . . فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت ، فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء !

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس ، فنزل بموضع منها يعرف بتينمل .

بدء دعوة الموحدين

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبره ، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة مُلك ، وألف لهم عقيدة بلسانهم ، وكان أفصح أهل زمانه فى ذلك اللسان ، فلما فهموا معانى تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأشربت قلوبهم محبته ، وأجسامهم طاعته ، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا غير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ، وأقاموا على ذلك مدة ، وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل ، وجعل يذكر المهدى ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه من المصنفات ، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ، وقال أنا محمد بن عبد الله . . . ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقرَّ عندهم أنه المهدى ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله .

ثم صنف لهم تصانيف فى العلم ، منها كتاب سماه « أعَزُّ ما يُطْلَبُ » ، وعقائد فى

أصول الدين ، وكان على مذهب أبى الحسن الأشعرى[1] فى أكثر المسائل ، إلا فى إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن شيئاً من التشيع ، غير أنه لم يُظْهر منه إلى العامة شيئًا .

طبقات الموحدين

وصنف أصحابه طبقات ، فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمون بالجماعة ، وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ، وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ، وكان يسميهم المؤمنين ، ويقول لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام : «لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » . « وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى ابن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة ، هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها ، وكان يقول : لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة . . .

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدة الطاعة .

وقد نظم هذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت فى تخليد هذا الأمر ، رجلٌ من أهل الجزائر ، مدينة من أعمال بجاية ، وفد على أمير المؤمنين أبى يعقوب[2] وهو بتينمل ، فقام على قبر ابن تومرت بمحضرٍ من الموحدين وأنشد قصيدة أولها :

سلامٌ على قبر الإمام المجدد ... سلالة خير العالمين محمدِ

ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسددِ

---

(١) انظر : الفهرست لابن النديم .

(٢) وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ومحيى علــوم الـدين بعـد مماتها ... ومظهــر أسرار الكتــاب المســدد

أتتنـا بـه البشرى بأن يمـلأ الـدنـا ... بقسطٍ وعــدلٍ فى الأنــام مخلــدِ

ويفتتح الأمصــار شرقـاً ومغـربًـا ... ويملك عــربـا من مغيرٍ ومنجــد

فمن وصفــه : أقنـى وأجلى وأنــه ... عــلامــاتُــه خمس تبين لمهتـدى :

زمــانٌ ، واسمٌ ، والمكــانُ ونسبـة ... وفعلٌ لـــه فى عصمـــةٍ وتأيـــدِ

ويلبثُ سبعــاً أو فتسعـا يعيشهـا ... كــذا جــاء فى نصٍّ من النقلِ مُسنــدِ

فقـد عـاش تسعــاً مثل قـول نبينـا ... فــذلكمُ المهــدى بــاللــه يهتــدى

وتتبعـــه للنصر طــائفــة الهدى ... فأكـرم بهم إخـوان ذى الصـدق أحمد

هى الثُّلَّــة المذكـور فى الـذكـر أمـرهـا ... وطــائفـةُ المهــدى بـالحق تهتــدى

ويقـدمُهـا المنصـور والنـاصرُ الـذى ... لـه النصرُ حـزب إذ يـروح ويغتـدى

هــو المنتقى من قيـس عيـلان مفخـرًا ... ومن مُــرةٍ أهـل الجلال الموطــد

خليفــة مهــدى الإلــه وسيفُــه ... ومن قـد غدا بـالعلم والحلم مُرتـدى

بهم يقمع اللــه الجبــابـرة الأولى ... يصـدون عن حُكم مـن الحق مُـرشـد

ويقطع أيــام الجبـــابــرة التى ... أبــادت من الإســلام كل مشيـــدِ

فيغــزون أعـراب الجزيـرة عنـوةً ... ويعــرون منهـا فـارسـاً وكأنْ قــدِ

ويفتتحــون الـــروم فتح غنيمــةٍ ... ويقتسمــون المال بـالترس عن يــدِ

ويغـدون للـدجال يغـزونـه ضُحَى ... ويُـذيقــونـه حـد الحسـام المهنـدِ

ويقتلـــه فى بـــابِ لُـــد وتنجلى ... شكــوك أمـالت قلـب من لم يـوحِّــد

وينــــزل عيسـى فيهم وأميرهـم ... إمــام فيـدعــوهم لمحـراب مسجـد

يصلى بهم ذاك الأمير صــــــلاتهم	بتقــديم عيسى المصطفى عن تعمــدِ
فيمسح بــالكفين منـــه وجــوههم	ويخبرهــم حقــا بعــــزٍّ مجدد
ومــا إن يــزال الأمــر فيــه وفيهم	إلى آخــر الدهــر الطـويل المسرمـدِ
فـأبلـغ أمير المؤمنين تحيــــــــةً	على النأى منـى والــودادِ المؤكـــد
عليــه ســلام الله مــا ذر شــارق	ومـا صـدّر الـورَّاد عـن وِردِ مـورد

وقد قيل : إن منشىء هـذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهـد ولم ينشدها بنفسـه ، منعته عن ذلك الكبر وبعـد الشقة ، وإنما أرسل بها فأنشـدت على قبر الإمام ، وكـان عمله إيـاها وعبد المؤمن حى ، فاللـه أعلم ، وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منهـا ، ولم أُوردها فى هذا الموضع لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد ، إلى أن بلغوا فى ذلك إلى حـد لو أُمر أحـدهم بقتل أبيه أو أخيـه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غـــير إبطاء ، وأعانهم على ذلك وهوَّنه عليهم ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل إقليمهم .

حكى أبو عبيد البكـرى الأندلسى ثم القرطبى فى كتابه الموسـوم بـ « المسالك والممالك » عن رجال ، قال : أهديت إلى الإسكندر فـرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ، ولم يكن فيها عيبٌ إلا أنهـــا لم يسمع لها صهيل قط ، فلما حل الإسكنـدر فى تطوافـه بجبال درن ، وهى بلاد المصـامدة ، وشربت تلك الفـرس من مياههـا ، صهلت صهلةً اصطكت منها الجبال ، فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك ، فكتب إليه : إنها بلاد شر وقسوة ، فعجل الخروج منها !

فهذه حال بـلاد القوم ، وأما خفة سفك الدمـاء عليهم فقد شهدت أنا منـه أيام كونى بسوس ما قضيت منه العجب .

***

الحرب بين المرابطين والموحدين

ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم مالهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم .

وأمر على الجيش عبد المؤمن بن على ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش[1] ، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سراة لمتونة ، أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ رد ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين على بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة ، فلم يردع ذلك عبد المؤمن ، بل زاده طمعاً فى المرابطين وحقق عنده ضعفهم ، فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقُتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن فى نفرٍ من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم ، قال : لم يُفقد أحد !

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يُهون عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر عندهم أن قتلاهم شهداء ؛ لأنهم ذابوُّن عن دين الله ، مُظهرون للسنة ، فزادهم ذلك بصيرة فى

---

(١) قامت هذه المعركة أواخر سنة ٥٢٤ هـ ، وقد قمت قبلها بأكثر من معركة .

أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحى مراكش ، ويقطعون عنها مواد المعايش وموصول المرافق ، ويقتلون ويسبون ، ولا يبقون على أحد ممن قدروا عليه ، وكثر الداخلون فى طاعتهم والمنحاشون إليهم ، وابن تومرت فى ذلك كله يكثر التزهد والتقلل ، ويظهر التشبه بالصالحين ، والتشدد فى إقامة الحدود ، جاريًا فى ذلك على السنة الأولى .

أخبرنى من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل ، متشبهًا فى ذلك بالصحابة .

ولقد أخبرنى بعض من شهده وقد أُتِىَ برجل سكران ، فأمر بحده ، فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها . . . ! فأعرض عنه ، ثم عاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان فى الثالثة قال له : أرأيت لو قال لنا : شربنا فى دار يوسف بن سليمان ، ما نحن صانعون ؟ فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كشف على الأمر ، فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه ، فكان هذا من جملة مازادهم به فتنة وتعظيما ، إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يُخبر .

ولم يزل كذلك وأحواله صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفى ابن تومرت المذكور فى شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه .

ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن على ، وبايعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه الجماعة ، وكان الذين سعوا فى تقديمه وهيَّأوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة : عمر ابن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، وعمر ابن ومزال - الذى كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر ، يعرفونه بعمر إينتى - وعبد الله بن سليمان من أهل

تينمل ، من قبيلة يقال لها مسكالة ، ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقى الموحدين .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة ، استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة ، وأهل خمسين ، وهم ـ كما ذكرنا ـ من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا المصامدة ، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئًا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم ، والعزيمة فى أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه فى الخمر ، وتصميمه على الحق ، فى أشباه لهذه الفصول ، ثم قال : « . . . فانقرضت هذه العصابة ـ نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها ـ وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهنًا ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم . . . » فى أشباه لهذا القول ، إلى هلم جرا :

« ثم إن الله ـ سبحانه وله الحمد ـ مَنّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيض لكم من ألفاكم ضُلالا لاتهتدون ، وعُمياً لا تبصرون ، لاتعرفون معروفاً ، ولا تُنكرون منكرًا ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وتُرهات أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك مما كسبته أيديهم ، وأضمرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله ـ سبحانه ـ خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكى به سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر

أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصَّغار واحتقرتكم العامة فتختفطكم الخاصة ، وعليكم فى جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا ـ مع هذا ـ أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناهُ فى ذلك كله ثبتاً فى دينه ، متبصراً فى أمره ، وإنى لأرجو ألا يُخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمره ، ففى الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركة وخير كثير، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده » .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحدا ، فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله ، ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

***

فصـــل

حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن على بن علوى الكومى(١) .

حُرة كومية أيضًـا ، من قوم يقال لهم بنو مُجبر ، مولده بضيعـة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا ، وقيل : إنه يقول إذا ذكـر كومية : لست منهم ، إنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معـد بن عدنـان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشـأ فيهم ، وهم الأخوال . وهكـذا أدركت من أدركت مـن أولاده وأولاد أولاده ينتسبـون لقيس عيـلان بن مضر ، وبهذا استجـاز الخطباء أن يقـولوا إذا ذكـروه بعـــد ابن تومـــرت : « قســيمُه رضى الله عنـه فى النسب الكريم » .

وكان مولده فى آخر سنة ٤٨٧ فى أيام يوسف بن تاسفين ، وكانت وفاته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ، ومدة ولايته من حين استوثق له الأمر بموت على بن يوسف أمير المسلمين ـ فى ســـنة ٣٧ على التحقيق ـ إحدى وعشرين سنة ، إلى أن توفى فى التاريخ المذكور .

وكان أبيض ذا جسم عممٍ تعلوه حمرة ، شـديد سواد الشعر ، معتـدل القامة ، وضىء الوجه ، جهورى الصوت ، فصيح الألفاظ ، جزل المنطق ، وكان محبباً إلى النفوس ، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة ، وبلغنى أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه :

تكـــاملت فيك أخـــلاق خُصصت بها	فكلنـــــــا بـك مسرور ومُغتبـط
فـالسنُّ ضـاحكـــة ، والكفُّ مـانحـة	والصـدر منشرح ، والـوجـه مُنبسط

---

(١) نســـبة إلى قبيلة تسمى كـومة وأحيـانًا يطلق عليها كـومية تقع على سـاحل البحر بـالقرب من مـدينة تلمسان .

أولاده

كان له مـن الولد ستة عشر ذكرًا ، وهـم : محمد وهو أكبر ولده وولى عهـده وهو الذى خُلع ، وعلى ، وعمـر، ويـوسف ، وعثمان ، وسليمان ، ويحيى ، وإسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزراؤه

وزر له فى أول الأمـر أبو حفص عمر أزنـاج ، إلى أن استقر الأمـر واستقل عبد المؤمن ، فأجلى أبا حفص هذا عـن الوزارة وربأ بقـدره عنها ، إذ كـان عندهم فـوق ذلك ، واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما لـه إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبـد المؤمن من أهلها رجلا من نبهاء الكتـاب يقال له : أبـو القاسم القـالمى ـ وسيأتى ذكره فى كتـابه ـ واستمرت وزارة أبى جعفر إلى أن قتلـه عبد المؤمن فى شهور سنة ٥٣ واستصفـى أمواله ، ثم وزر له عبـد السلام الكومى ، وكان يدعى المُقرَّب ، لشدة تقريـب عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن مَن قتله خنقـا فى شهور سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفى عبد المؤمن .

كتـابـه

أبو جعفـر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء ، كـان قبل اتصاله بعبد المؤمن وفى الـدولة اللمتونيـة ، يكتب لعلى بن يوسف فى آخر أيـامه ، وكتب عن تـاشفين بن على بن يوسف ، فلما انقرض أمـرهم هرب وغيرَّ هيئتـه وتشبه بالجنـد ، وكان محسنـًا للرمى ، وكـان فى الجند الذين خـرجوا إلى سوس لقتـال ثائر قام هناك ، كـان الأمير على هذا الجند أبـو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة ، فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضت تلك الجموع ، طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بمراكش ،

فدُل على أبى جعفر هذا ونُبه على مكانه ، فاستدعاه ، وكتب عنه إلى الموحدين رسالة فى شرح الحال ، أجاد فى أكثرها ما شاء ، منعنى من رسمها فى هذا الموضوع ما فيها من الطول ، فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعى أبا جعفرٍ هذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ، لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله ، فلم يزل وزيره ـ كما ذكرنا ـ إلى أن قتله فى التاريخ الذى ذُكر ، وكان سببَ قتله ـ فيما بلغنى ـ أنه كانت عنده بنت أبى بكر ابن يوسف بن تاشفين ، التى تعرف ببنت الصحراوية ، وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم ، يُعرف أيضًا بيحيى ابن الصحراوية[1] ، فحظى يحيى هذا عند الموحدين ، وقوَّدوه على من وَحَّدَ من لمتونة ، ولم يزل وجيهًا عندهم مُكرمًا لديهم ـ وكان خليقًا بذلك ـ إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوالٌ كان يقولها أحنقته عليه ، فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك فى مجالسه ، وربما هَمَّ بالقبض على يحيى هذا ، فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين ، من نصح أميره ، وتحذير صهره ، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوناه غداً فليعتل ويُظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميرقة فليفعل ! فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر أن ألماً به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأسر إلى بعضهم ـ ممن كان يثق به ـ ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذى أَسَرَّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب الأكبر فى قتل أبى جعفر المذكور ، وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه ، فكان من سجنه إلى أن مات !

ثم كتب له بعد أبى جعفر هذا : أبو القاسم عبد الرحمن القالمى ، من أهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان .

قضـــــاته

أبو محمد عبد الله بن جبل ، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ، ثم عب
عبد الرحمن المعروف بـالمالقى ، لم يزل قاضيا له إلى أن توفى عبـد المؤمن ، وصدراً من
أبى يعقوب .

رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم ، محبـا لهم ، محسنًا إليهم ، يستدعيهم من
الكون عنده والجوار بحضرتـه ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنـويه بهم
لهم ، وقسم الطلبة طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، هذا بعد أن تسمى
بالموحدين ، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم فى علم الاعتقاد الذى لم ؛
من أهل ذلك الزمان فى تلك الجهة يخوض فى شىء منه .

وكان عبد المؤمن فى نفسه سَرِيَّ الهمـة ، نزيه النفس ، شديد الملوكيـة ، كأنه ذ
كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالى الأمور .

أخبرنى الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بـن محمد ابن أبى جعفر الوزير ،
عن جده الـوزير أبى جعفر ، قال : دخلت على عبـد المؤمن وهو فى بســتان لـه ة
ثماره ، وتفتحت أزهـاره ، وتجاوبت على أغصانها أطيـاره ، وتكـامل من كل جهة -
وهو قـاعد فى قبـة مشرفة على البستـان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يمنـة
متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستـان ، فقال لى : يا أبا جعفـر ، أراك كثير النظ
البستان ! قلت : يُطيل الله بقـاء أمير المؤمنين ، والله إن هذا لمنظـر حســن ! فقـ
أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت : نعم ، فسكت عنى ، فلما كان بعد يومين أو
أمر بعرض العسكر آخـذى أسلحتهم ، وجلس فى مكان مُطل ، وجعلت العسكر
قبيلة بعد قبيلة وكتيبة بعد كتيبة ، لا تمر كتيبـة إلا والتى بعدها أحسن منها ، جودة

وفراهـة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت إليَّ وقال : يـا أبا جعفر ، هذا هـو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك !

ولم يزل عبد المؤمن ـ بعد وفاة ابن تومرت ـ يطوى الممالك مملكة مملكة ، ويُدوخ البلاد ، إلى أن ذلت له البلاد ، وأطاعته العباد .

نهاية المرابطين وآخر من ولى الأمر منهم

وكان آخر ما استولى عليه من البـلاد التى يملكها المرابطون ، مدينة مراكش ، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين ، وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه فى شهور سنة ٥٣٧ ، وكان قد عهد فى حيـاته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشىء من الأمور .

وخرج تاشفين بعد وفـاة أبيه قاصداً تلمسان ، فلم يتفق له من أهلها مـا يريد ، فقصد مدينة وهران ـ وهى على ثلاث مراحـل من تلمسان ـ فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء ، عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال : إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه ، فالله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل ـ كما ذكرنا ـ بمدينة وهران ، ثلاثة أعـوام إلا شهرين ، وكـان قتله سنـة ٥٤٠ ، وكان طـول هذه الـولاية لا يستقـر به قـرار ولا تستقيم له حال ، تنبُو بـه البلاد ، وتتنكر له الرعية ، فلم تزل هذه حـاله إلى أن كان من أمره ما ذكر .

وبعد دخول عبـد المؤمن ـ رحمه الله ـ مـراكش ، طلب قبر أمير المسلمين ، وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث ، فأخفـاه الله وستره بعد وفاته كما ستره فى أيام حيـاته ، وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعـوة بالمغـرب لبنى العباس بمـوت أمير المسلمين وابنه ، فلم يـذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خـلا أعوام يسيره بإفريقية ، كان قد ملكهـا يحيى ابن غانية الثائر من جزيرة ميرقة على ما سيأتى بيانه .

وكانت مدة المرابطين ـ من حين نزولهم رحبـة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه ـ نحوًا من ست وسبعين سنة .

انتصار عبد المؤمن على منطقتى بجاية وقلعة بنى حماد

ولما دان لعبد المؤمـن جميع أقطار المغـرب الأقصى مما كـان يملكه المرابطـون ـ علـى ما قدمنا ـ وأطـاعهُ أهلها ، جمع جموعًا عظيمة وخرج من مراكش يقصـد مملكة يحيى بن العزيز ابن المنصور ابن المنتصر الصنهاجى وكان يملك بجـاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة ، فقصده عبـد المؤمن ـ كما ذكرنا ـ فى شهور سنة ٥٤٠ ، فحـاصر عبـد المؤمن بجاية وضيق عليها أشـد التضييق ، فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم ، هرب فى البحر حتى أتى مدينة بونة ، وهى أول حد بلاد إفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينية المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ بالجيوش ، فاستُنزل وأتى به عبـد المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمِّن يحيى فى نفسه وأهله .

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، وملك قلعة بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم وحِرزهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعثَ أمرهم .

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجـداه المنصور والمنتصر ، وجدهم الأكبر حماد ـ من شيعة بنى عُبيدٍ وأتباعهم والقـائمين بدعوتهم ، ومن بلادهـم ـ أعنـى صنهـاجة ـ قامت دعوة بنى عبيد ، وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها ، فلم يزل مُلك بنى حماد هؤلاء مستمرا ،

ودولتهم قائمة ، وأمرهم نافذًا ، لا ينازعهم أحدٌ شيئاً مما فى أيديهم ، إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته : أبو محمد عبد المؤمن بن على ، فى التاريخ الذى تقدم ! .

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها ، رتب مع الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ، واستعمل عليها ابنه عبد الله ، وكر راجعًا إلى مراكش ومعه وفى جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته ، فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والأموال الوافرة ، وخص يحيى من ذلك بأجزله ، وأسناه وأحفله ، ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهًا ضخمًا ، وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها .

بلغنى من طُرق عدة أن يحيى بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يومًا ، فذكروا تعذر الصرف ، فقال يحيى : أما أنا فعلىَّ من هذا كُلفة شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشكون إلىّ ما يلقون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف ـ وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب ، فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بياعاتُهم ـ فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس ، أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صُروف كلها ، وقال لرسوله : قل له لا يتعذر عليك مطلوب مادمت بحضرتنا ـ إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش ، مرتبًا للأمور المختصة بالمملكة ، من بناء دور ، واتخاذ قصور ، وإعداد سلاح ، واستنزال مستعصٍ ، وتأمين سُبل ، وإحسان إلى رعية ، وما هذا سبيله .

***

فصـل

أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جـزيرة الأندلس ، فإنه لما كـان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالا مفـرطًا ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهـم إلى الدعـة ، وإيثارهـم الراحـة ، وطـاعتهم النسـاء ، فهانـوا على أهل الجزيـرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير مـن الثغور المجاورة لبلادهم ، وكان ـ أيضًا ـ من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيام ابن تومرت بسوس ، واشتغال على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيـان تلك الجزيرة مـاذكرنـاه من ضعف أحوال المرابطين ، أخـرجوا من كـان عندهم من الولاة ، واستبد كل منهم بضبط بلـده ، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بنى أميـة ، فأما بلاد أفراغة فاستـولى عليها ملك أرغن ، لعنه الله ، وملك مع ذلك سرقسطة ـ أعادها الله للمسلمين ـ وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

واتفق أمر أهل بلنسيـة ومرسية وجميع شرق الأنـدلس على تقديم رجل من أعيـان الجند اسمه عبـد الرحمن بـن عياض ، وكان عبـد الرحمن هـذا من صلحاء أمـة محمد وخيـارهم ، بلغنى عن غير واحد من أصحـابه أنـه كان مجاب الدعـوة ، ومن عجائب أمره أنـه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعـة ، فإذا ركـب وأخذ سلـاحه لا يقوم لـه أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ، كان النصارى يعدونـه ـ وحده ـ بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قـالوا : هذا ابن عياض ! هذه مـائة فارس ! فحمى الله تلك الجهـات ودفع عنها العـدو ببركة هذا الـرجل الصالح ، وانتشر له من الهيبـة فى صدور النصارى مـا ردهم عن البلاد ، وأقام ابن عيـاض هذا بشرقى الأنـدلس يحفظ تلك البـلاد ويـذود عنها إلى أن تـوفى ، رحمه الله ، ونضر وجهـه وشكر لـه سعيه ، لا أتحقق تاريخ وفاته .

وقـام بأمر تلك الجهـات بعـده رجـل اسمـه محمد بن سعـد ، المعـروف عندهم بـابن مـردنيش ، كان محمـد هذا خـادمًا لابن عيـاض ، يحمل له السـلاح ويتصرف بين يديـه فى حوائجه ، فلما حضرتـه الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيـان البلاد فقالوا له : إلى من تُسنـد أمورنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا به عليه ، فقال : إنه لايصلح ، لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصـلاة ، فإن كان ولابد فقـدموا عليكم هذا ـ وأشـار إلى محمد بن سعد ـ فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !

فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات فى شهور سنة ٥٦٨ .

وأما أهل ألمرية فأخـرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين ، واختلفوا فيمن يقـدمونه على أنفسهم ، فندب إليها القائد أبا عبـد الله ابن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينـة دانية ، فأبى عليهم وقال : إنما أنـا رجل منكم ، ووظيفتى البحر وبـه عُرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى ! فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبـد الله بن محمد ، يعرف بابن الـرميمى ، فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصـارى من البر والبحر ، فقتلوا أهلها وسبوا نسـاءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم فى خبر يطول ذكره .

وملك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة وما والى تلك الثغـور ، رجل اسمه عبد الله ، لا أعرف اسم أبيـه ، وهو معروف عنـــدهم بابن همشـــك ، وربما ملك عبد الله هذا قـرطبة أيامًا يسيرة .

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وإشبيلية .

فهذه جملة أحوال الأندلس فى آخر دعوة المرابطين ، وفى ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصـون والقلاع والمدن الصغـار أضربت عن ذكرهـا خوفـاً من الإطالـة ، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مخرج إلى الطول .

وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورءوس ضلالات ، فاستفزوا عقول الجهال ، واستمالوا

قلوب العامة ، من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسى ، كان فى أول أمره يدعى الولاية ، وكان صاحب حيلٍ ورب شعبذة ، وكان ـ مع هذا ـ يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ، ثم ادعى الهداية ، بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ، ثم لم يستقم لـه شىء مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ، وكان قيامه بحصن مارتلة ـ وقد تقدم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العبادية ـ فأسلمه ـ كما ذكرنا ــ أصحابه ، واختلفوا عليه ، ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد ، فعبروا به إلى العدوة ، فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله ، فقال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكان من جوابه أن قال : أليس الفجر فجرين : كاذبًا وصادقًا ؟ فأنا كنت الفجر الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ، ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ، ولابن قسى هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والتهاون بأمر الولاية ، منعنى من ذكرها صرف العناية إلى ماهو أهم منها .

عبور الموحدين إلى الأندلس

ولما انتشرت دعوة المصامدة ــ كما ذكرنا ـ بالمغرب الأقصى ، تشوّف إليهم أعيان مغرب الأندلس ، فجعلوا يفدون فى كل يوم عليهم ، ويتنافسوا فى الهجرة إليهم ، فدخل فى ملكهم كثير من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة الخضراء ، ورندة ، ثم إشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ، وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخ أبو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة ، واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعًا عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة سبتة ، فعبر البحر ، ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبل الفتح ، فأقام به أشهراً ، وابتنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينة هى باقية إلى اليوم ، ووفد عليه فى هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة ، كأهل مالقة ، وأغرناطة ، وقرطبة ،

وإشبيلية ، وما والى هذه البلاد وانضم إليها ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفى مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس مالم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم .

محمد بن حبوس الفاسى الشاعر

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ، فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس ، وكانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الأندلسى ، فى قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير ، إلا أن محمد بن هانىء كان أجود منه طبعًا وأحلى مهيعاً ، فأنشد فى ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ماأراد . [أولها] :

بلغ الزمان بهديكم ما أقلا	وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه إن كان شيئا قابلا	وجد الهداية صورةً فتشكلا

لم يبق على خاطرى منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة ، وكان حظيا عنده[1] ، نال فى أيامه ثروة ، وكذلك فى أيام ابنه أبى يعقوب ، وكان فى دولة لمتونة[2] مقدماً فى الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات ، فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفيًا ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

---

(١) المقصود به عبد المؤمن .
(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

قرأ عليَّ ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شَلْب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئًا ، فسألت عمن يقصده إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح ، فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءةً ودواة ، فأعطانيها ، فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بى ورد علىَّ أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبًا ! قلت : نعم ، فقال لى : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلىَّ الطعام ، وجعل يحدثنى ، فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقًا حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ! ثم دفع إلىَّ صرة فيها أربعون مثقالاً ، وقال : هذه من عندى ! فتعجبت من كلامه وأشكل علىَّ جدًّا ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى : سأحدثك : إنى أوقفت أرضًا من جملة مالى للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حُر مالى ! يعنى الأربعين دينار ا، فدخلتُ عليه جائعًا فقيرًا ، وخرجت عنه شبعان غنيًّا .

الأصم المروانى الشاعر ، ابن الطليق

وأنشده فى ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المروانى ، كان شريفًا من جهة أمه :

ما للعَدا جُنَّة أوقى من الهرب ... ...

فقال عبد المؤمن رافعًا صوته : إلى أين ؟ فقال الشاعر :

... ... أين المفــــر وخيلُ اللـــــه فى الطلب

وأين يـــذهب من فى رأس شــاهقــةٍ وقــد رمتـــه سماء اللـــه بـــالشُّهُب

حَـدث عن الـروم فى أقطــارِ أنـدلس والبحـر قد مـلأ العبرين بـالعـرب

فلما أتم القصيدة قـال عبد المؤمن : بمثل هـذا تُمدح الخلفاء ! فسمى نفسه خليفةً كما ترى . . .

وجدُّ هـذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليـق النعامة ، وإنما سُمى بذلك لأنـه كان محبوسًا فى مُطبق أبى عامـر محمد ابن أبى عامر الملقب بالمنصور القائم بـدعوة هشام المؤيد ، وأقام فى ذلك المحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ماآلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبى عامر ، فأخذها فى جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعامة كـانت هناك ، فجعل يُلقى إليها الرقاع ، فتبتلع شيئًا وتُلقى شيئـاً ، فألقى إليها رقعة هذا الشريـف فى جملة الـرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتهـا فى حجره ، فرمى بها إليها ثـانية ، فـدارت القصر كله ثـم جاءت وألقتها فى حجـره ، فرمـى بها إليها ثـالثة . . . وفعلت ذلك مرارا ، فتعجـــب من ذلـــك ، وقرأ الرقعـة ، وأمر بإطلاقـه ، فسُمى بذلك طليق النعامة !

وأنشد فى ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشبيلية يعرف بابن سيد ، ويلقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصر مـدى زُحل وانظــر إلى الجبل الـراسى على جبل

أنى استقـــر بـــه ، أنى استقـل بــه أنى أرى شخصـــه العـالى فلم يـــزلِ

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقَّلتنا يارجل ! فـأمر به فجلس ! وهذه القصيدة من خيار ما مدح به ، لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة .

الرصافى الرفاء الشاعر

وأنشده فى ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى ، كان مستوطناً مدينة مالقة :

لو جئت نار الهدى من جانبِ الطُّور ... قبست ما شئت من علم ومن نورِ

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلاً لسارٍ ولم تُشبب لمقرُور

فيضية القدح من نور النبوة أو ... نورِ الهدايةِ تجلو ظُلمة الزور

مازال يقضُمها التقوى بموقدها ... صوامُ هاجرة قوام ديجُور

حتى أضاءت من الإيمان عن قبسٍ ... قد كان تحت رماد الكفر مكفورِ

نورٌ طوى اللهُ زند الكون منه على ... سقطٍ إلى زمن المهدى مذخورِ

وآيةٌ كآيات الشمس بين يدى ... غزوٍ على الملك القيسى منذور

يادار دار أمير المؤمنين بسفح الطْـ ... ـطَود طودِ الهُدى ، بُوركتِ فى الدوُر

ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قُدس وتطهير

ما كان بانيك بالوانى الكرامةِ عن ... قصرٍ على مجمع البحرين مقصورِ

مواطىءٌ من نبى طالما وُصلت ... فيها الخُطا بين تسبيحٍ وتكبير

حيث استقلت به نعلاه بُوركتا ... فطيبت كل موطوء ومعبور

حيث قامت قناةُ الدين ترفُل فى ... لواءِ نصر على البرين منشور

في كف منشمــــــر البُردين ذى ورعٍ على التُّقى وصفــاء النفس مفطــور

لقــاك في حــالِ غيبٍ مـن سريـرتــه بعــالم القـدس مشهــودٍ ومحضــور

تسنَّم الفُلـك فى سخط المرار وقـــد تـؤدين يــاخير أفـلاك العـلا سيرى

فسرن يحملن أمـــر اللـــه مـن ملك بـاللــه مستنصرٍ فى اللــه منصــور

يـومى لــه بسُجـود كل محركـةٍ منهـا ، ويـوليـه حمداً كـل تصريـر

لما تسـابقن فى بحـر الـزقـاق بـه تــركن شطيـــهِ فى شك وتحيير

أهــزَّ من مـوجِـه أثنـاء مسرور ؟ أم خـاض من لُجه أحشـاء مذعـور ؟

كأنـــه ســـالكٌ منـــه على وجل فى الأرض من مُهج الأسيـاف مقطـور

من السيـوف التى ذابـت لسطـوتِـه وقــد رَمى نــار هيجـاهــا بتسعير

ذو المنشـــآت الجوارى فى أجـــرَّتها شكل الغـــدائر فى ســـدلٍ وتضفير

أعـدى الميـاه وأنفــاس الـريـاح لها مــا فى سجـــايــاه من لينٍ وتعطير

من كل عـــذراء حُبلى فى تـــرائبهـــا ردعـــان من عنبر وردٍ وكـــافـــور

تجالها بين أيـــدٍ مـن مجاذفهـــا يغـرقن فى مثل مـاء الـوردِ من جُـورِ

وربما خــاضت التيــار طــائرةً بمثل أجنحـــة الفُتخِ الكـــواسير

كأنما عبرت تختـــالُ عــائمـــةً فى زاخـرٍ من يـدى ويُمنـاه معصـور

حتـى رمـت جبل الفتحين مـن كثـبٍ بســاطـعٍ من سنـاه غير مبهــور

للـــه مـــا جَبلُ الفتحين مـن جبلٍ معظَّمِ القــدرِ فى الأجيــال مـذكــور

من شـامخ الأنـف فى سحنـائه طلس لـــه من الغيـم جيبٌ غيرُ مـــزرور

معبراً بـــــــذراه عـن ذُرى ملـك مستمطـــر الكف والأكنـاف ممطـــور

تمسى النجــوم على إكليل مَفْـرِقِــه — فى الجو حــائمــةً مثـل الـدنــانير

وربما مسحتـــــه من ذوائبهـــــا — بكل فضلٍ على فــوديـــهِ مجرور

وأدردٍ من ثنــــايــــاهُ بما أَخَـــذَتْ — منــه مقــاحم أعــواد الــدهــاريــرِ

مُحنكٍ حلب الأيــــام أشطُــرهــــا — وســاقهــا ســوق حــادى العير للعير

مُقيــد الحطـوِ جــوالِ الخواطــرِ فى — عجيب أمـريــه مــن مــاضٍ ومنظــور

قـد واصل الصمت والإطـراق مُفتكـرًا — بــادى السكينــةِ مُغبر الأســاريــر

كأنـــــه مُكمـــــدٌ ممـــا تعبَّـــــده — خــوف الــوعيــدين من دك وتسييرِ

أَخلقٌ بــه وجبــال الأرض راجفـةٌ — أن يطمئـن غــــــداً من كـل محذور

كفـاه فضـــلاً أن انتـابت مـواطئـه — نعـــلا مليكٍ كـريمِ السعى مشكــور

مُستنشيــاً بهما ريح الشفــاعــةِ من — ثــرى إمــامٍ بأقصى الغــرب مقبُـور

مــا انفك آمل أمــرٍ منــه بين يــدى — يــوم القيــامــة محتــومٍ ومقــدور

حتى تصــدى من الــدنيــا على رمقٍ — يستنجز الـوعد قبل النفـخ فى الصُّور

مُستقبل الجانب الغــربى مـرتقبًــا — كأنــــه بـــــاهت فى جــــو أسمير

لبــارقٍ من حُســـامٍ سلــهُ قــدرٌ — بــالغـرب من أفُقِ البيضِ المشــاهير

إذا تألــق قيسيًّـــــا أهــــاب بـــــه — إلى شفى من مُضــاعِ الــدين مـوتـورِ

ملك أتى عظماً فــوق الــزمــان فما — يمــــر فيـــه بشـىءٍ غير محقـــور

مــا عَنَّ فى الــدين والــدنيــا لـه أرب — إلا تأتـى لـــــه من غيرِ تعـــــذيـــرِ

ولا رمى من أمــــانيــه إلى غــــرضٍ — إلا هـــدى سهمــهُ نجح المقـــاديـــر

حتـى كأن لــــــه فى كل آونـــــةٍ — سُلطــان رقٍّ على الــدنيــا وتسخير

مميــز الجيش ، مُلتفــا مــواكبـه من كل مثلــول عــرش الملك مقهــور

من الأولى خضعُـوا قسراً لــه وعنـوْا لأمــــره بين منهيٍّ ومــأمـــــور

من بعـد ما عـانـدوا أمـراً فما تركـوا إذ أمكن العفــو ميســوراً لمعســور

بقيــة الحرب ، فــاتــوهــا ومــابهم فى الضرب والطعـــن سيماءٌ لتقصير

لا ينكـــر القــــوم ممــــا فى أكفهِم بيض مفــاليـل أو سُمــر مكــاسير

إذا صــدعت بأمــر اللـــه مجتهــدًا ضربت ــ وحـدك ــ أعنـاق الجماهير

لا يـــذهبـن لتقليلٍ أخـــــو سببٍ من الأمــــور ، ولا يـــــركن لتكثير

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً والأرض قـد غـرِقت من فــورِ تنُّـور

وإنما هــــو سيف اللــــه قلـــده أقــوى الهُداة يـــداً فى دفع محذور

فإن يكـن بيــد المهـــدى قــائمـــه فمــوضع الحد منـــه حـد مشهــور

والشمس إن ذكرت مُوسى فما نسيت فتـــاهُ يـــوشـع قماع الجبـــابير

وكان الرصافى يوم أنشد هذه القصيـدة لم تكمل له عشرون سنة ، وهو من مجيدى شعراء عصره ، لاسيما فى المقاطيع ، كـالخمسة الأبيات فما دونها ، وقد رويت شعـره عن جماعةٍ ممن لقيه ، وقد رأيتُ أن أورد منه هـاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه بـه فمن ذلك قوله يصف نهر إشبيلية الأعظم ، وهو نهر لا نظير له فى الدنيا :

ومُهــــدَّل الشطينِ تحسبُ أنــــه مُتســـــايـلٌ مـن دُرةٍ لصفــــائه

فـــاءت عليــــه مع الهجيرة سرحــة صــدئت لفيئتهـــا صفيحــةُ مــائه

فتراه أزرق فى غُـــلالــــةِ سُمـــرةٍ كــــالــــدارع استلقى بظل لــــوائه

وله ، وقد اجتمع مع إخوان له فى بعض العشايا فى بستان رجلٍ يقال له موسى بن رزق :

ما مثلُ موضعك ابن رزقٍ موضع ... روضٌ يرِق وجدولٌ يتدفع
فكأنما هو من محاجر غادةٍ ... فالحسُن ينبتُ فى ثراه وينبُعُ
وعيشةٍ لبست رداء شحُوبها ... والجو بالغيم الدقيق مُقنعُ
بلغت بنا أمد السرورِ تألُّفا ... والليلُ نحو فراقنا يتطلعُ
فابلُل بها رمق الغبُوقِ فقد أتى ... من دُون قُرصِ الشمسِ ما يتوقعُ
سقطت فلم يملك نديمك ردها ... فوددت ياموسى لو انك يُوشعُ

وله يصف عشية أيضاً فى موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

محل ابن رزقٍ جر فيه ذُيوله ... من المُزنِ ساقٍ يُحسن الجر والسقيا
ذكرتُ عشيًّا فيك لا ذُمَّ عهدُه ... وإن نحن لا نهتع ببهجته لُقيا
ولم يتعلق بى منك عند افتراقنا ... سوى عبقٍ من مسك قينتك اللميا
وكنت أرانى فى الكرى وكأننى ... أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحُسنُه ... على ساعةٍ من أُنسنا صحتِ الرؤيا

وله يصف دولابا :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً ... يختلسُ الأنفُس اختلاسا
لما غدا للرياض جارًا ... قال له المحلُّ لا مِسَاسا
يبتسم الروض حين يبكى ... بأدمُعٍ ما رأين باسا
من كل جفن يَسُلُّ سيفاً ... صار له غمده رئاسا

وله ، وقد رأى صبيًّا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه ، يحكى بذلك الدموع :

عـذيـرى من جـذلان يُبـدى كـآبـة ... وأضلعُـه ممـا يُحاولـه صفـرُ

أميلـد ميـاس إذا قـاده الصبـا ... إلى مُلح الإدلال أيـدهُ السحـرُ

يبُل مـآقى زهـرتيـه بـريقـه ... ويحكى البُكـا عمداً كما ابتسم الـزهرُ

ويـوهـمُ أن الـدمع بَلَّ جُفـونـه ... وهل عُصرت يومًا مـن النرجس الخمرُ ؟

وقال يصف نائمًا قد تحبب العرق على خده :

ومُهفهفٍ كـالغصن إلا أنـه ... سلب التثنى النـوم عـن أثنـائه

أضحى ينـام وقـد تحبب خـدُّه ... عـرقـاً فقلت : الـوردُ رُش بمائه

وللرصـافى هذا افتنان فى الآداب ، وكان ـ رحمه الله ـ عفيف الطعمة نـزيه النفس ، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته فى كثير منه .

وصل الحديث عن عبد المؤمن بن على

وأقام عبـد المؤمن بجبل فتح ، مرتبـاً للأمور ، ممهـداً للمملكة ، وأعيانُ البـلاد يفدون عليه فى كل يوم ، إلى أن تم له ماأراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس .

فولى مدينـة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهـو الذى ولى الأمور بعده على مـا سـيأتى بيـانه ، وتـرك معه بها من أشيـاخ الموحدين وذوى الـرأى والتحصيل منهم من يرجع إليـه فى أموره ، ويعول عليه فيما ينويه .

وولَّى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر إينتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ، وكـان محبًّا فى الآداب ، مؤثرًا لأهلهـا ، يهتز للشعر ويُثيب عليه ، واجتمع لـه من وجـــوه الشعراء وأعيـان الكتاب عصـابة ماعلمتهـا اجتمعت لملك منهم بعده .

ثم كر عبـد المؤمن راجعًا إلى مراكش ، بعـد ماملأ ماملكـه من أقطار جزيـرة الأندلس خيلاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .

منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأنـدلس ، استنفر أهل المغرب عامة ، فكان فيمن استنفره العرب الـذين كانوا ببلاد يحيى بـن العزيز[1] ، وهم قبـائل من هـلال بن عامـر ، خرجوا إلى البلاد حين خلَّى بنو عبيد بينهم وبين الطـريق إلى المغرب ، فعاثوا فى القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ، ودوخـوا مملكة بنى زيرى بن مناد[2] ، وهذا بعد موت المعز ابن باديس ، فانتقـل تميم إلى المهدية[3] ، وسار هـؤلاء العرب حتى نـزلوا على المنصـور ابن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد ، من تمرهـا وبُرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقى أيامـه ، وأيام ابنه الملقب بالعزيز ، وأيام يحيـى ، إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبـد المؤمن ، رحمه اللـه ، فأزال ذلك من أيـديهم ، وصيرهم جنداً لـه ، وأقطع رؤسـاءهم بعض تلك البلاد .

فكتب إليهم رسالـة يستنفرهم إلى الغـزو بجزيرة الأنـدلس ، وأمر أن تُكتب فى آخـرها أبيات قالها ـ رحمه الله ـ فى ذلك المعنى وهى :

---

(١) المقصود بهم مملكة حماد بإفريقية .

(٢) انظر : أخبار حماد .

(٣) وهو تميم ابن المعز بن بادمين الذى هرب إلى القيروان بسبب ثورات العرب .

أقيموا إلى العلياء هُوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشُدوا على الأعداء شدة صائل

فما الغِزُّ إلا ظهر أجرد سابحٍ ... يفوتُ الصبا في شدهِ المتواصل

وأبيض مأثورٍ كأن فرنده ... على الماء منسوج وليس بسائلِ

بني العم من عُليا هلالٍ بن عامرٍ ... وما جمعت من باسلٍ وابن باسلِ

تعالوا فقد شُدت إلى الغزوِ نِيَّة ... عواقبها منصورة بالأوائل

هي الغزوةُ الغراء والموعدُ الذي ... تنجز من بعدِ المدى المتطاوِل

بها تُفتح الدنيا ، بها تُبلغُ المُنى ... بها يُنصف التحقيقُ من كل باطل

أهبنا بكم للخير والله حسبنا ... وحسبكمو والله أعدل عادل

فما همنا إلا صلاحُ جميعكم ... وتسريحُكم في ظل أخضرَ هاطل

وتسويغكم نُعمى ترفُّ ظلالُها ... عليكُم بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجل

فلا تتوانوا فالبدار غنيمةٌ ... وللمدلج الساري صفاء المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم ، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتَّبهم فيها ، فجعل بعضهم من نواحي قرطبة ، وبعضهم من نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها ، فهم بها باقون إلى وقتنا هذا ــ وهو سنة ٦٢١ ــ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير ، وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك ، فبالجزيرة اليوم من العرب من زُغبة ورياح وجُشم بن بكر وغيرهم نحوٌ من خمسة آلاف فارس سوى الرَّجَّالة .

***

وكان عبور عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح فى سنة ٥٣٨ ، ثم كر ـ كما ذكرنا ـ راجعاً إلى مراكش ، فأخبرنى غير واحد ممن أرضى نقله ، أنه لما نـزل مدينة سلاً ـ وهى مـدينة على البحـر الأعظم المحيط ، ينصب إليهـا نهر عظيم يصب فى البحر المذكـور ـ عبَر النهر ، وُضربت له خيمة على الشاطىء ، وجعلت العسـاكر تعبر قبيلة بعد قبيلة ، فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم ، خر ساجداً ، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمع لحيته ، والتفت إلى من عنده وقال : « أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شىء لهم إلا رغيف واحد ، فرامـوا عُبور هذا النهر ، فأتـوا صاحب القارب وبـذلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتـهم فقال : لا آخذه إلا على اثنين خاصـة ، فقال لهم أحدهم ـ وكان شابًّا جلـداً ـ : خذا ثيابى معكما وأعبر أنا سباحـةً ! فأخذا ثيابه معهما ، وصعـدا فى القارب ، فجعل الشاب يسبح ، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح ، فضربـه صاحبه بالمجداف الذى معه حتى يؤلمه ، فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد ! » .

فما شك السامعون للحكـاية أنه العابر سباحة ، وأن الاثنين المذكـورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقى .

ثم سار حتى أتى مراكش ، فنزلها ، وأخذ فى البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخل بشىء مما تحتـاج إليه المملكة من السيـاسة وتـدبير الأمور وبسط العدل والتحبب إلى الـرعية وإخافة من تجب إخافته .

وأخبرنى السيد حقيقة والماجد خلقًا وخليقة ، أبـو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنـين أبى يعقوب ابن الإمـام أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن بن على : أنه رأى على ظهـر كتاب الحماسـة بخط الخليفة عبـد المؤمن هذين البيتين ، وقـال لى ـ رحمه الله : لا أدرى أهما لـه أو لغيره :

وحكم السيـف لا تعبأ بعـــاقبـــةٍ	**وخلهـــــا سيرة تبقى على الحِقَـبِ**
فما تنـــال بغير السيف منـــزلـــة	**ولا تـــرد صُـــدور الخيل بـــالكتبِ**

وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بجاية وولَّى عليها ابنه عبد الله ـ حسبما تقدم ـ عهد إليـه أن يشنَّ الغارات على نـواحى إفريقيـة ، أن يضيق على تونس ويمنع عنهـا المرافق التى تصل إليها على طريقه ، ففعل ذلك .

[غزو الموحدين لإفريقية]

ثم إن عبد الله تجهَّز فى جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس ، وهى حاضرة إفريقية بعد القيروان ، وكرسى مملكتها ، ومقر تدبيرها ، وإياها يستوطن والى إفريقية ، لم يزل هذا معروفًا من أمرها إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان الذى يملكها فى ذلك الوقت لوجـار بن لوجار المعـروف بابن الدوقـة الرومى صاحب صقليـة ، لعنه الله ! وكـان العامل عليها رجلاً من المسلمين اسمـه عبد الله ، يعرف بـابن خراسان[1] ، ولم يزل عامـلا عليها حتى أخرجه الموحدون فى التاريخ الذى سيذكر ، فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلـد من الجند على الخروج لقتال المصـامدة ، ففعلوا ذلك ، وخـرجوا بخيلٍ ضخمة ، فالتقـوا هم وأصحابُ عبد الله[2] فـانهزم أصـحاب عبـد الله ، وقُتل منهـم خلق كثير ، ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

فتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين

فلما كان آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن فى الحركة إلى إفريقية ، فجمع جموعًا عظيمة من المصامـدة وغيرهم من جُند المغرب ، وسـار حتى نزل على مدينـة تونس ، فافتتحهـا عنوة ،

---

(١) يطلق عليه ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ : أحمد بن خراسان .
(٢) وهو عبد الله بن عبد المؤمن .

وفصل عنها إلى مهـدية بنى عبيد ، وفيها الـروم أصحاب ابن الدوقـة ، وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم ابن المعـز بن باديس ابن المنصـور بن بلجين بن زيرى بن منـاد الصنهاجى ، ملوك القيروان ، فنـزل عبد المؤمن عليها فحاصرهـا أشد الحصار ، وهى من معـاقل المغرب المنيعة ؛ لأن بنيـانها غايـة فى الإحكام والوثـاقة ، بلغنى أن عرض حـائط سورهـا ممشى ستة أفراس فى صف واحـد ، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد ، والبحـر فى قبضة من فى البلد : يُدخل الشينى كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة ، لا يقدر أحد ممن فى البر على منعه ، فبهـذا قدر الروم على الصبر على الحصـار ، لأن النجدة كانـت تأتيهم من صقلية فى كل وقت ، وأقام عبـد المؤمن وأصحابه عليها سبعـة أشهر إلا أيامًا ، وأصابتهـم عليها شدةٌ شـديدة من غـلاء السعـر ، بلغنى من غير واحـد أنهم اشتروا الباقـلاء فى العسكـر ، سبع باقلات بدرهم مُؤمنى ، وهو نصف درهم النصاب ، ثم افتتحها عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ بعد أن أمَّن النصـارى الـذين بها على أنفسهم ، على أن يخرجـوا له عـن البلد ويلحقـوا بصقليـة بلـدهم حيث مملكة صـــاحبهم : ففعلـوا ذلك ، ودخل عبـد المؤمن وأصحابـه المهديـة فملكوها .

وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم أيضًا .

امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق

ثم افتتح طرابلـس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريـد ، وهى توزر ، وقفصـة ، ونفطة ، والحامة ، وما والى هـذه البلاد ، فافتتحت كلها ، وأخرج الإفـرنج منها وألحقهم ببلادهـم ، كما تقدم ، فمحـا الله به الكفر من إفـريقية وقطع عنها طمع العـدو ، فانتبه بها الـدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله .

وتم لعبـد المؤمن ـ رحمه الله ـ مُلك إفـريقية كلهـا منتظماً إلى مملكة المغـرب ، فملك فى

حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثر جزيرة الأندلس ، وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ أن اختلت دولة بنى أمية فى وقته .

ألوان من شكر النعمة

ثم كر عبد المؤمن راجعاً من إفريقية ، بعدما استولى على بلادها ودان له أهلها ، فأخبرنى بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة ، أن عبد المؤمن مر فى طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية ، فدخل البلد متنزهًا فيه ، فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطُنت ، فوقف ووقفت معه وجوه دولته ، فسأل عن بياع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته ، فقال : هل خلف عقبًا ؟ قالوا : نعم ، فأمر بشراء جميع الدكاكين التى بتلك السويقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بمال كثير ، ثم التفت إلى بعض خواصه وقال له : أتيت إلى هذا البياع ولى وللإمام ـ يعنى ابن تومرت ـ ولجماعةٍ من أصحابنا من الطلبة أيامٌ لم نطعم فيها ، وما معى إلا سكين الدواة ، فأخذتُ منه خبزاً وإداما ، ثم وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إنى توسمت فيك الخير ، فمتى أعوزك شىء فهُلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقه علىَّ أكثر من هذا .

ونظر فى هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقًا بجاية إلى يحيى بن العزيز[1] يمشى بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار ، فدمعت عيناه ، واستدعاه ، فقال له : أتذكر يومًا خرجت إلى بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعنى وإياك هذا الباب ، فوطئت دابتك عقبى ، فلما نظرت إليك أمرت أحد عبيدك فوكزنى وكزةً كدت أقع منها لِفِيَّ ! فاستحيا يحيى وتغير لونه وأطرق ، وجعل يقول : الله الله يامولاى ! وظن أنه الشر ، فلما رأى ذلك منه قال له : إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار ، ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها ! وأمر له بما زال به روعه .

---

(١) كان صاحب عرش منطقة بجاية قبل عبد المؤمن .

ومر فى طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوح ، فجاءت منه دوحة عظيمة فى وسطها رحبة نقية ، فأمر أن يضرب خباؤه هنالك ، وهو غير منزلٍ معروف ، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول ، قال لبعض خواصه : أتدرون لم آثرت النزول بهذا المكان ؟ قالوا : لا ؛ قال : ذلك لأنى بت بهذا الموضع فى بعض الليالى جائعًا مقرورًا ، وكانت ليلةً ممطورة ، فما زال هذا الدوح وقائى حتى أصبحت ، فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقِ ما بين المنزلتين والفصلِ ما بين المبيتين !ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل . وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولدِ ولدِ عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن .

وبدا له فى هذا الوجه أن يمر على القرية التى تسمى تاجرا ـ وبها كان مولده كما تقدم ـ لزيارة قبر أمه وصلةِ من هناك من ذوى رحِمِه ، فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية مابين بنود وألوية ، وهُزت أكثر من مائتى طبل ـ وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الضخامة ، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويُحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب إلى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها . . .

ونازع عبد المؤمن الأمر قومٌ من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومَغار ـ معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ ـ وانتهوا فى ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلاً فيقتلوه ، وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم ، وأن عبد المؤمن إذا فُقد ولم يُعلم من قتله صار الأمر إليهم ، لأنهم أحق به ، إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به ، فأَعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تومرت ، من خيارهم ، اسمه إسماعيل بن يحيى الهزرجى ، فأتى عبد المؤمن فقال له : يا أمير المؤمنين ، لى إليك حاجة ! قال : وما هى يا أبا إبراهيم ؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية ! قال : أن تخرج عن هذا الخباء وتدعنى أبيتُ فيه ! ولم يُعلمه بمراد القوم ، فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء

لأنه أعجبه ، فخـرج عنه وتركه لـه ، فبات فيه إسماعيل المذكور ، فـدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى بـرد ، فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن ، فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش ورامـوا القيام بها ، فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبـوا منهم المفاتيح ، فأبوا عليهم ، فضربوا عنق أحدهم وفر باقيهم ، وكادوا يغلبون على تلك القصور ، ثم إن الناس اجتمعوا عليهم ، من الجند وخاصة العبيد ، فقاتلوهم قتالاً شديدًا من لدن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم إن العبيـد غلبوهم على أمـرهم ، ولم يزل الناس يتكـاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد ، فقُيدوا وجُعلـوا فى السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ إلى مراكش ، فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة ، بلغه أنهم قادحون فى مُلكه متربصون به .

ولما أصبح أبو إبـراهيم إسماعيل المتقدم الذكـر فى الخباء مقتولاً على الحال التى ذكـرنا ، أعظم ذلك عبد المؤمن ووجـد عليه وجداً مفـرطا أخرجه عن حـد التمسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحـدٍ ذكر اسمه يحيى ، نال يحيى هذا فى أيام أبى [يوسف] يعقـوب جاهًا متسعًـا ورتبة عاليـة ، وكذلك فى أيام أبى عبـدالله [محمد] ، كانـت أكثر أمورهـم ترجع إليـه ، لم يزل كـذلك إلى أن مات فى شهـور سنة ٦٠٢ وتـرك بنتا واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يـوسف بن عبد المؤمن ، اسمها فاطمة ، لا عقب له منها ، طال عمرها ، وتركتها بالحياة حين فصلت عن مراكش فى شهور سنة ٦١١ .

ولإسماعيل هذا مع ابن تومـرت خبر يقربُ مما قدمنا فى النضح والتحـذير ، وتلطف فيه إسماعيل غـايـة التلطف ، وذلك أن ابـن تـومـرت حين خـرج من مـراكش على الحال التى تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها ، سار حتـى نزل الضيعة التى فيها أبو إبراهيم ، فـدخل المسجد ، فـاجتمع أهل الضيعة على بـاب المسجـد ينظرون إلى ابن تـومرت ويقـول بعضهم لبعض همسًـا : هذا الـذى نفـاه أمير المسلمين عن بلاده لإفسـاده عقول النـاس ،

ونحو هذا القول ، وهموا بقتله تقرُّبًا بذلك إلى أمير المسلمين ، فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم ، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية : ﴿ **إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ (١) ففهم ابن تومرت ما أراد ، وخرج عن تلك الضيعة ، وعرف لأبى إبراهيم نصحه ، ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينمل ، فهو معدود فى أهل الجماعة .

ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً ، هابه المصامدة وسائر أهل دولته ، وعظم أمره فى صدورهم .

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفى أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ، وكُتب عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، فاجتمعت له جموع عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهرا للغزو والاحتساب ، ويتمم أيضًا مع ذلك ما بقى عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر(٢) ، فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلاَ ، فأقام بها ينتظر تكامل العساكر ، فاعتل علته التى مات منها ـ رحمه الله .

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته ، كما تقدم ، فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة ٥٨ .

وكان قد عهد فى حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبايعه الناس ، وكتب ببيعته إلى البلاد ، فأبى تمام هذا الأمر لمحمدٍ هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ويقال إنه مع هذا كان به ضربٌ من الجُذام ، فالله أعلم .

---

(١) سورة القصص : الآية : ٢٠ : مكية .

(٢) هو ملك منطقة شرق الأندلس محمدبن سعد بن مردنيش .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافا كثيراً ، فكانت ولايته إلى أن خلع خمسة وأربعين يومًا ، واتفقوا على خلعه فى شعبان من هذه السنة ، وكان الذى سعى فى خلعه ـ مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك ـ أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ، وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغَناء منهم ، فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختارًا ، وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلم له الأمر ، حمله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحُب المصلحة للمسلمين ، لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ، فبايع الناس أبا يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ، فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرهم ، وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، وشدة تلطفه ، وجودة رأيه ، فاستوثق لأبى يعقوب أمره ، وتمت بيعته فى التاريخ المذكور ،

وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت ـ كما ذكرنا ـ أخوه لأبيه وأمه ، أبو حفص المتقدم الذكر .

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه وأم أخيه أبى حفص ، امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير ، كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينمل وأعيانهم ، [من ضيعة يقال لها : أنسا] ، وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها ، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل ، برأى ابن تومرت ، وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة ، إبراهيم ، وعليا ، ومحمدا ، وبنات .

صفة أبى يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أَفْوَهَ ، أَعيَنَ ، إلى الطول ما هو ، فى صـوته جهارة، رقيق حواشى اللسـان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كـان بإشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجـالا من أهل علم اللغـة والنحو والقـرآن ، منهـم الأستـاذ اللغـوى المتقن أبو إسحـاق إبراهيم بن عبـد الملك المعروف عندهم بابن ملكـون ، فأخذ عنهم جميـع ذلـــك وبـــرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيتـه من ولده ، كأبى زكـريـا ، وأبى عبد اللـه ، وأبى إبراهيم إسحـاق ، وغيرهـم ممن لقيته وشـافهته منهم ، أنه كـان أحسن الناس ألفـاظًا بالقـرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسـائل النحو، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملـوكية، بعيد الهمة سخيًّا جـوادًا ، استغنى الناس فى أيـامه وكثـرت فى أيديهم الأمـوال : هذا مع إيثـار للعـلم شديد ، تعطشٍ إليه مفرط ، صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ـ الشك منى ، إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخـارى ـ حفظه فى حياة أبيه بعـد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكـان له مشاركة فى علم الأدب ، واتسـاعٌ فى حفظ اللغة ، وتبحرٌ فى علم النحو حسبها تقـدم ، ثم طمح به شرفُ نفسه وعلو همتـه إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجـزائها ، وبـدأ مع ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتـاب المعروف بـالمالكى أكثره ، مما يتعلق بـالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هـو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمـر بجمع كتبهـا ، فاجتمـــع له منهـــا قريبٌ ممـا اجتمـع للحكم المستنصر بالله الأموى .

أخبرنى أبـو محمد عبد الملك الشـذونى[1] ، أحـد المتحقـقين بعلم الطب وأحكـام النجوم ، قـال : كنت فى شبيبتى أستعير كتب هذه الصنـاعة ــ يعنى صنعة الأحكـام ـ من رجل كان عندنا بمدينـة إشـبيلية ، اسمـه يوسـف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمـرانى (بتخفيف الراء) ، كـانت عنده منهـا جملة كبيرة وقعت إلى أبيه فى أيـام الفتنة بـالأندلس ، فكـان يعيرنى إياهـا فى غرائر : أحمل غـرارة وأجىء بغـرارة ، من كثرتها عنـده ، فأخبرنى فى بعض الأيام أنه عدِم تلك الكتب بجملتها ، فسألته عن السبب الموجب لذلك ، فأسر إلى : إن خبرهـا انتهى إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إلى دارى وأنا فى الـديـوان لا علم عندى بـذلك ، وكان الذى أرسل كافـور الخِصّى من جماعـة من العبيد الخاصـة ، وأمره ألا يروع أحدًا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقهـا ، فأخبرت بذلك وأنا فى الديـوان ، فظننته يريد استصفاء أمـوالى ، فركبتُ وما معى عقلى ، حتى أتيـت منزلى ، فإذا الخصـى كافور الحاجب واقـف على الباب والكتب تخرج إليـه ، فلما رآنى وتبين ذُعرى قـال لى : لا بأس عليك ! وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم علىّ ، وأنـه ذكـرنى بخير ! ولم يـزل يبسطنى حتى زال مـا فى نفسى ، ثم قـال لى : سل أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شىء من متاعهـم ؟ فسـألهم ، فقالوا : لم يَـرعنا أحدٌ ولم ينقصنـا شىء ، جاء أبـو المسك حتى استأذن علينـا ثلاث مـرات ، فأخلينـا له الطـريق ، ودخل هو بنفسـه إلى خزانة الكتب فأمـر بإخراجهـا . فلما سمعت هذا القـول منهم زال ما كان فى نفسى من روع .

وولّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأنـدلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصـة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب .

---

(١) نسبة إلى منطقة شذونة وهى تابع لاشبيلية .

[أبو بكر ابن طفيل]

وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة المسلمين ، كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة ، قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ، منهم أبوبكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ، ورأيت لأبى بكر(١) هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ، فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة « حى بن يقظان » غرضُه فيها بيانُ مبدأ النوع الإنسانى على مذهبه ، وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ، ومن تصانيفه الإلهيات رسالةٌ فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله ، وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهى ونبذ ما سواه ، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية ، وبلغنى أنه كان يأخذ الجامكية مع عِدة أصناف من الخدمة ، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف ، وكان يقول : لو نفق عليهم علمُ الموسيقا لأنفقتهُ عندهم ! وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له ، بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أيامًا ليلاً ونهارًا لا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ، أنشدنى ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

ألمت وقد نام المُشيح وهوَّ ما ... وأسرت إلى وادى العقيق من الحمى

وجرت على تُربِ المحصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهبًا مقسما

تناولُهُ أيدى التجار لطيمةً ... ويحملُه الدارى أيان تمَّما

ولما رأت أن لا ظلام يجنها ... وأن سُراها فيه لن يُتكتما

نضت عذباتِ الَّريط عن حُر وجهها ... فأبدت مُحيا يُدهش المتوسما

---

(١) وهو الفيلسوف المسلم ابن طفيل .

فكـــان تجليهـــا حجـــاب جمالها　　كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما

ولما التقينــا بعــد طــول تهاجــر　　وقــد كــاد حبل الــوُد أن يتصرمــا

جلت عن ثنـايـــاهـا وأومض بـارق　　فلم أدر مـن شق الـــدجنَّـــة منهما

وســاعــدنـى جفنُ الغمام على البُكـا　　فلم أدر دمعـــاً أيُّنــا كـــان أسجما

فقـــالت وقـــد رق الحديث وأبصرت　　قـــرائن أحــــوالٍ أذعـن المُكتما :

نشـدتك لا يذهب بك الشـوقُ مذهبـا　　يُهون صعبًـــا أو يُـــرخـص مأثما

فأمسكـتُ لامستغنيــا عن نـــوالها　　ولكن رأيـت الصبر أوفى وأكـــرمـــا

ومن شعره فى الزهد ـ رحمه الله ـ ما قرأه علىّ ابنه من خطه فى التاريخ المذكور :

يـاباكيـا فُـرقة الأحبـاب عن شحطٍ　　هـــلا بكيت فـــراق الـــروح للبـــدن

نـــــورٌ تـــــردد فى طينٍ إلى أجـلٍ　　فـــانحـــاز عُلــوًا وخلى الطين للكفن

يــاشد مــا افترقـا من بعــد ما اعتلقـا　　أظُنهـــا هُـــدنـــةً كـــانت على دخنٍ

إن لم يكن فى رضى اللـــه اجتماعُهما　　فيـــالها صفقــــةً تمت على غبنٍ

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكُتاب له رحمه الله :

مـــا كل من شـم نـــال رائحـــةً　　للنـــاس فى ذا تبـــايُن عجبُ

قـــومٌ لهم فكـــرةٌ تجول بهم　　بين المعـــــانـى ، أولئك النُجبُ

وفــرقـــةٌ فى القشـــور قـــد وقفــوا　　وليس يـــدرون لُب مــــا طلبـــوا

لا غـــايـــةٌ تنجلى لنــــاظـــرهم　　منـــــــه ولا ينقضـى لهم أربُ

لا يتعــــدى امـــروٌ جِبِلَّتـــهُ　　قـــد قُسمت فى الطبيعـــة الـــرُّتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبهه عليهم ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نبَّهه على أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبُه قدره عندهم .

أبو الوليد بن رشد

أخبرنى تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بُندود بن يحيى القرطبى قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يُثنى علىّ ويذكر بيتى وسلفى ، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغُها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأيهم فى السماء ـ يعنى الفلاسفة ـ أقديمةٌ هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدرى ما قرر معه ابنُ طفيل ، ففهم أمير المؤمنين منى الروع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطاطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيتُ منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطُنىُ حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك ، فلما انصرفتُ أمر لى بمال وخلعة ،سنية ومركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استدعانى أبو بكر بن طُفيل يوما فقال لى : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطاطاليس ، أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرُب مأخذُها على الناس ، فإن كان فيك فضل قوةٍ لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ماتعلمه من كُبرةِ سنى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى

إلى ما هو أهم عندى منه ، قال أبو الوليد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص مالخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس » .

وقد رأيت أنا لأبى الوليد هذا تلخيص كُتب الحكيم فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة ، ترجمهُ بـ « كتاب الجوامع » لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء .

رجع الحديث عن الأمير أبى يعقوب

وفى الجملة ، لم يكن فى بنى عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا .

وزراؤه

وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ، ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه .

ثم وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، إلى أن قبض عليه واستصفى أمواله فى شهور سنة ٥٧٧ .

ووزر له بعده ابنه أبو يوسف ولىُّ عهده إلى أن مات سنة ٥٨٠ . فكانت ولايته من حين بويع له إلى أن استشهد ـ رحمة الله عليه ـ ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهرا .

كتّابه

أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه ، وأبو القاسم المعروف بالقالمى ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة ، من أهل مدينة بجاية ، كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات ، فكتب مكانه .

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة ، وكتاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الأشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه

كافور مولاه الخصِىّ ، كان يدعى كافور بغُرة .

أولاده

كان له من الولد ثمانية عشر ذكرًا ، وهم : عمر ، ويعقوب ـ وهو ولى عهده ـ وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى ـ كان يحيى هذا رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم ، لم أرَ فى الملوك ولا فى السوقة مثله رحمة الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة ، إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلىّ : أخى ، وصديقى فى بعض الأوقات ، ووليىّ فى بعضها ، اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة ، خلع علىّ فيها فضله ، وحلانى بما لم أكن استحقه ـ وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل ، وبنات .

قضـاته

أبو محمد المالقى المتقدم الذكر ، ثم عزله وولى بعده عيسى بن عمران التازى ، من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال لها تسول من البربر يرجعون إلى زناتة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم ، وكان خطيباً مصقعاً وبليغاً لَسِناً وشاعراً مُفلِقاً مشاركا فى كثير من العلوم ، ونال فى أيام أبى يعقوب حُظوةً ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتى بكل عجيبة ، وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مُفرط . أخبرنى ابنه أبو عمران ـ قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ـ قال : سمعت أبى يقول وقد لامه بعض من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا أقدار ، رفعهم من الحضيض جاهه ، ونبههم بعد الخمول اعتناؤه : « ليس العجب ممن يأتى إليه رجل نبيه القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحيى الميت ويُنبه الخامل ويرفع الوضيع ، فأما النبيه القدرِ فنباهته تكفيه » .

وبلغ من إفراطه فى التعصب أن قال يوما : « ليس بحمايةٍ أن تحمى صاحبك وهو مُحق ، فإن الحق أظهر وأقوى من أن يُحمى ، إنما الحماية أن تحميه وهومُبطل ! » فى أشباه لهذه الأخبار .

وكان له أولاد ما منهم إلا ولى القضاء ؛ وهم ، علىٌّ ، وكان علىٌّ هذا رجلا صالحًا ، ولى فى حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تلمسان ، وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل فى دينه ، وممن لا تأخذه هوادة فى الحق ؛ ومن أولاده طلحة ، ولى قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضيًا بمدينة فاس ، بلغتنى وفاته وأنا بمكة فى سنة ٦٢٠ ، وأبو عمران موسى ، قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ، وسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولى بعد أبى موسى هذا رجل اسمه حجاج ابن إبراهيم التجيبى ، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش ، وكان حجاج هذا رجلا صالحا يُعد فى الزهاد المتبتلين ، وكان له تبحر فى الفقه ومعرفة بأصوله وبصر بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم فى الحق ، أفرط فى ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ، ونالوا منه عند أبى يعقوب فما زاده ذلك إلا حبًّا وتقريبًا إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى حياة أبى يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته أنه دخل يوما على أمير المؤمنين أبى يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مَثَل بين يديه زاد فى البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألا أعفيتنى ؟ قال : عزمت عليك لتخبرنى أولاً بسبب بكائك ! قال : بينْا أنا قاعد فى مجلس الحكم إذ أُتِيتُ بشيخ سكران كنت قد حددته مرارا ، فكان من كلامى أن قلت له : ياشيخ ، كيف تحشر ؟ ففتح يديه وقال : هكذا . . [1] فوالله ما ملكتُ دمعتى حين عرفت ماعنى بقوله ، إنما عرض لى بقول النبى ﷺ : « إن القاضى يحشر مُطوَّقةً يداه إلى عنقه ، فإما أن يحله عدله أو يهوى به جوره ! » هذا معنى الحديث ؛ فأسألك

---

(١) بياض فى الأصل .

بالله، ألا أعفيتنى ؟ فوعده بذلك ، فقال : عسى أن يكون فى مقامى هذا ! فقال له : لا أفعل حتى أجد عوضا منك ! فخرج من عنده ، فما لبث إلا أياما يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !

ثم ولى بعده القضاء أبو جعفر أحمد بن مضاء ، من أهل مدينة قرطبة ؛ فلم يزل أبو جعفر هذا قاضيًا إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وصدراً من خلافة أبى يوسف المنصور رحمه الله .

***

فصـــل

دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين

ولما استوسق لأبى يعقـوب هذا الأمر ، لم يـزل مقيماً بمراكش إلى أن كـانت سنة ٥٦٧ ، فبدا لـه أن يعبر إلى جزيـرة الأندلس ، مُظهـراً قصد غـزو الروم ، ومبطنـا إتمام تملُّك الجزيرة والتغلب علي ما فى يـد محمد بن سعـد المعروف بابن مـردنيش منها ؛ وكـان يملك منها ابن سعد المذكور من أول أعمال مـرسية إلى آخر ما يملكـه اليوم المسلمون من شرقيها ـــ وقد تقدم تلخيص التعـريف بمملكته إياهـا ومن أين اتصلت إليـه ـ فجمع أمير المؤمنين أبـو يعقوب جموعًا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجنـد ، وسار حتى نزل مدينة سبتة ، فبُنى له بها منزل هو باق هناك إلى اليـوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخر عنه من العســاكر ؛ ثم عبر البحر وقصد مـدينة أشبيلية ، فنزلها ، وجهـز العساكر إلى محمد بن سعد .

وكان أخو أبى يعقـوب ، عثمان بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرنـاطة ، فكتب إليه يقصد بالعساكر إلى مدينة مرسيـة ، دارِ مملكة محمد بن سعد ، فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يدعى الجلاب ، وخرج إليه محمد بن سعد فى جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعينًا بهم فى حروبه ، وقد اتخذهم أجناداً له وأنصارا ، وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه ، وتنكرِ أكثر الرعية له ، فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعـة بأنواع من القتـل ، بلغنى أن منهم من بنى عليه فى حـائط وتـركه حتى مـات جوعًـا وعطشًا ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستـدعى النصارى كما ذكـرنا ، فجعلهم أجناداً لـه ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكـونه ، وأخرج كثيراً من أهل مـرسية وأسكن النصارى دُورهم . . .

فزحف ـ كما ذكـرنا ـ بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ، فالتقى هـو والموحدون بالموضع

المعروف بـالجلاب ، على أربعة أميـال من مرسيـة ، فانهزم أصحـاب محمد بن سعـد انهزامًا قبيحاً ، وقُتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعـد مدينة مرسية مستعدا للحصار ، فضايقه الموحـدون ، ومازالوا محاصرين له إلى أن مات وهـو فى الحصار حتف أنفه ، وسُترت وفاته إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد ، الملقب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيـه محمد ؛ فـاجتمع رأيه ورأى أكـابر ولد محمـد بن سعد ــ بعد أن أتهمُـوا وأنجدوا وأخذوا فى كل وجه مـن وجوه الحيل ـ على أن يُلقوا أيديهم فى يـد أمير المؤمنين أبى يعقوب ، ويُسلموا إليـه البلاد ، ففعلـوا ذلك ، وقيل : إن أبـا عبد الله محمـد بن سعـد حين حضرته الوفاة ، جمع بنيه ــ وكان له من الولـد على علمى ثمانية ذكور ، وهـم : هلال ـ يكنى أبا القمر ، وهـو أكبر ولده وإليـه أوصى ــ وغانم ، والـزبير ، وعـزيز ، ونصير ، وبـدر ، وأرقم ، وعسكر ، وأصاغـر لا علم لى بأسمائهم ؛ وبناتٌ تزوج إحداهـن أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وتزوج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ـ فكان فيما أوصاهم به أن قـال : « يـابنى ، إنى أرى أمر هـؤلاء القـوم قد انتشر ، وأتبـاعهم قـد كثروا ودخـلت البـلاد فى طاعتهم ، وإنى أظن أنه لاطاقة لكم بمقاومتهم ، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينـزل بكم مانزل بغيركم ، وقد سمعتم مافعلوا بـالبلاد التى دخلوها عنوة ! » ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أى الأمرين كان .

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب مـن أشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش ـ لعنـه الله ـ فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وَبْذَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوه أجناده فى تلك المدينة ، فأقـام محاصراً له أشهراً ، إلى أن اشتد عليهم الحصـار وأرادوا تسليم البلد . أخبرنى جماعـة يكثـر عددهـم ممن أدركت من شيـوخ أهل الأمر ، أن أهـل هذه المدينـة لما بـرح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهـم ، على أن يخرجوا له عن المدينة ، فأبى ذلك عليهم ، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يئسوا ممـا عنده سُمع لهم فى بعض الليالى لغـطٌ عظيم وجلبة أصوات ؛ وذلك أنهم أخـرجوا أناجيلهم ، واجتمع قسيسـوهم ورهبانهم يدعون ويـؤمِّن باقيهم ، فجاء مطـر عظيم كأفواه

القرب ، ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين ؛ فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعًا إلى أشبيلية ، بعد أن هادن الأدفنش ـ لعنه الله ـ مدة سبع سنين .

ولم يزل أمير المؤمنين مقيما بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع ، إلى أن رجع إلى مراكش فى آخر سنة ٥٦٩ وقد ملك الجزيرة بأسرها ، ودانت له بجملتها ، ولم يخرج عن طاعته شىء منها .

الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب

وفى سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلافٍ وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدرن فتم له ما أراد من إخماد الفتنة وجَمْع الكلمة وإطفاء النائرة وحسم الخلاف .

وفى صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغُمارة مفارقة الجماعة ونزع اليد من الطاعة ، وكان رأسهم فى ذلك الذى إليه يرجعون ، وعميدهم الذى عليه يعولون ، رجل اسمه سَبُع ابن حيان ، ووافقه على ذلك أخ له يسمى مرزدغ ، فدعوا إلى الفتنة ، واجتمع عليهما خلق كثير ، والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عددٌ ولا يحدها حَزْر لكثرتها ؛ مسافة بلادها طولا وعرضًا نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب نفسه ، فأسلمتهما جموعهما ، وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما ، وأُخذا قبضَ اليد ؛ فقُتلا صبراً وصلبًا ، ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش .

وفى أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد أفريقية ؛ فقصد منها مدينة قفصة ؛ وكان قد قام بها رجل اسمه على ، يُعرف بابن الرند ، وتلقب بالناصر لدين النبى ، فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استنزلوه ، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ، ورجعوا إلى مراكش .

صُلح ملك صقلية

وفى هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالإتـاوة ، بعد أن خافه خوفًا شديدًا ، فقبل منه ما وجه به إليه ، وهادنـه على أن يحمل إليه فى كل سنة مالاً اتفقا عليه ، وبلغنى أنه اتصلت إليـه منه ذخـائر لم يكن عند ملك مثلهـا ، مما اشتهـر منها حجـر ياقـوتٍ يســمى الحافر ـ جعلوه فيها كللـوا به المصحف ، لا قيمة له ، على قدر استدارة حـافر الفرس ، وهو فى المصحف إلى اليوم ـ مع أحجارٍ نفيسة .

المصحف العثمانى فى المغرب

وهذا المصحف الـذى ذكرناه ، وقع إليهم من نسخ عثمان ـــ رضي الله عنه ـــ من خزائن بنى أمية ، يحملونـه بين أيديهم أنَّى توجهوا ، على ناقـة حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة مـا يعدل أموالاً طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعـة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصَيّان عليهما لواءان أخضران ، وموضع الأسنّة منهما ذهب شبهُ تُفاحتين ، وخلف الناقـة بغل محلًّى أيضًا ، عليه مصحف آخر يقال إنـه بخط ابن تومرت ، دون مصحف عثمان فى الجرم ، محـــلى بفضة مموهة بـالذهب ، هـذا كله بين يـدى الخليفة منهم .

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقـوب إلى مراكش من أفـريقية ، بعـد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها ـ كما ذكرنا ـ وكثرت فى أيامه الأموال واتسع الخراج .

حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك

وكان ـ كما ذكـرنا ـ ســـخيًّا جواداً ، بلغنى أنه أعطى هلال بن محمـد بن سعد المتقدم الذكر ، صـاحب شرقى الأندلس ، اثنى عشر ألف دينـار فى يوم واحـد ، ولهلال هذا معـه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له .

أخبرنى بعض ولد هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً ، فلما أصبحت إذا رسوله يستحثنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانى حتى مست ثيابى ثيابه ، ثم أخرج إلىّ من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذى رأيت فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ، فتهيبت أن أسأل عن شأن المفتاح ، فقال لى ابتداءً : يا أبا القمر ، إن عامل مُرسية أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صُندوقًا وجده ـ زعم ـ فى بعض خزائنكم ، لا يدرى مافيه ، وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ! فقلت : هلاَّ أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح ! وأمر فحمل الصندوق إلىّ ففتحته ، فإذا فيه حلىٌّ وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تُملى على الموحدين ليدرسوها ـ وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم ـ فجمع العلماء ذلك وجاءوا به يمليه على الناس بنفسه ، فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجىء بلوح يكتب فيه الإملاء ، فجاء هلال هذا المذكور يومًا ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له الوزير : أين لوحك يا أبا قمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله إياه ، وقال : هذا لوحك ! فلما كان من الغد جاء ومعه لوحٌ غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر إليه قال له : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت إذا مت أن يُجعل بين جلدى وكفنى ! وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض من كان فى المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المُحب الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخِلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

اتساع الدولة وزيادة الخراج

وكان الذى يُسهل عليه بذل الأموال ــ مع ما جُبل عليه من ذلك ـ سعة الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصل منها الأموال .

كان يـرتفع إليه خـراج إفريقية ، وجملتـه فى كل سنة وقْـر مائة وخمسين بغـلاً ، هذا من إفريقيـة وحدها ، خـلا بجاية وأعمالها ، وتلمسـان وأعمالها ، والمغرب ـ وحـدُّ عمل المغرب عندهم الذى يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تـدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون ، طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل ، وهى أخصب رقعة على الأرض فيما علمت ، وأكثرها أنهاراً مطردة ، وأشجاراً ملتفة ، وزروعًا وأعنابًا ـ ومدينة سَلاَ وأعمالها ، وسبتة وأعمالها ــ وأعمال سبتة هذه فى غـاية السعة والضخـامة ؛ لأن بـلاد غُمارة كلهـا ترجع إليها ، وهى ـ كما ذكرنا ـ طولاً وعرضًا نحو من اثنتى عشرة مرحلة ـ وجزيرة الأندلس قاطبة ، أول ذلك آخر بـلاد المسلمين مما يتـاخم أرض الروم ، وآخره أيضـاً مما يتـاخم أرض الروم من أعمال شلب ، ومسافة ذلك طولاً وعرضًا نحو من أربع وعشرين مرحلة .

هذا كلـه لا ينازعه إيـاه أحد ولا يمتنع عليـه منه درهم ، مضافـاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمال مراكش أيضاً فى نهاية من السعة ، لأن بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيرة ، فلم يرتفع لملك من الملوك ــ أعنى ملوك المغرب ـ قبل أبى يعقوب هذا وبعـده ، ما ارتفع إليه من الأموال .

وقد بلغنـى من جهة رجل من أصحـابنا كـان يتولى بيـوت الأموال ، قـال لى : وجدت خرائط كثيرة مما كـان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب بختمها . . قال لى هـذا القول فى غرة سنة ٦١١ .

وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغـــرب أول من وردها من الغُزّ[١] ، وذلـــك فى آخر سنة ٧٤ ، ومازالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف .

---

(١) نسبة إلى المماليك الترك الذين سكنوا مصر .

ولم تزل أيـام أبى يعقوب هذا أعياداً وأعـراساً ومواسم ، كثـرة خِصب ، وانتشار أمنٍ ، ودرور أرزاقٍ ، واتساع معايش ، لم يـر أهل المغرب أيامًا قط مثلها ، واستمـر هذا صدراً من إمارة أبى يوسف .

محاولة أبى يعقوب فتح شنترين ووفاته

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو ، واستنفر أهل السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم ، وخرج بجيوشه قاصداً جزيـرة الأندلس ، فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا ، وقصـد مدينة أشبيليـة على عادته ، إذ هى منزله ومنزل الأمراء من بنيه بـالأندلس أيام كونهم بها ، فأقام بها ريثما أصلح الناس شئونهم وأخذوا أهبتهم ، ثم خرج يقصد مدينة شنترين[١] أعادهـا الله للمسلمين ، وهذه المدينة ــ أعنى شنترين ـ بمغـرب الأندلس ، وهى من أمنع المدائن ـ وقد تقدم ذكرها فى أخبار الدولـة اللمتونية ـ يملك وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ، ملكٌ من ملوك النصارى يعـرف بابن الريق ـ لعنـه الله ـ فخرج أمير المؤمنين ـ كما ذكـرنا ـ فى جيوشه حتى نـزل عليها ، فضايقها وأخذ فى قطع ثمارها وإفسـاد زروعها وشن الغارات على نـواحيها ، وكـان ابن الـريق ــ لعنه الله ــ حين سمع بحـركـة أبى يعقوب وصـح عنده أنـه يقصـــده ، نظر فى أمره ، فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته ، فلم يكن له هم إلا أن جمع وجـوه دولته وأعيـان جنده وذوى الغنـاء من قـواده وسائر أتبـاعـه ، ودخل بهم مدينـة شنترين ، واثقاً بحصانتها وشـدة منعتها ، هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسـلاحًا وجميع ما يحتاج إليه ، وجلل أسوارها مُقاتلةً معهم الدرق والقِسِىُّ والحراب ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

فنزل عليهم أبو يعقـوب ، فألفاها ـ كما ذكرنا ــ ، قد استعد أهلها بكل مايظنونـه نافعاً

(١) شنترين : مدينة كبيرة بـالأندلس ، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجو ، وهى مفتاح واديـه ، موقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، وبينهما ثمانون ميلاً ، وقـد ظلت شنترين فى يد العرب منذ الفتح إلى أن ملكها ألفونس السـادس ملك قشتالة سنة ٥٤٣ ثم كـانت هذه المحاولة لاستردادهـا ، وقد قام بعبء الدفاع عنها فى هذه المحاولة ، الدون شانجو(Don Sangho) .

لهم ودافعاً عنهم ، وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة ، يسمى تاجو ، فبالغ أبو يعقوب - كما ذكرنا - فى التضييق عليها وانتساف معيشتها وقطع المواد والمدد عنها ، فما زاد أهلها إلا صرامة وشدة وجلدًا ، فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان فى آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى أشبيلية ، فإذا كان وجوهُ الزمان عادوا إليها أو بعث من يتسلمها ، وصوروا له أنها فى يده ، لا يمنعه منها مانع ، فقَبِلَ ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غداً إن شاء الله . ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار ، لأنه كان قاله فى مجلس الخاصة ، فكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ فى أهبة الرحيل ، أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقى - وقد تقدم ذكر أبيه فى قضاة عبد المؤمن - وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم ، يُدعى خطيب الخلافة ، وكان له حظ جيد مع الفقه ومعرفة الحديث ، وقسمٌ وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة ، فلما رآه الناس قوض خباءه قوضوا أخبيتهم ثقة به ، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها ، فعبر فى تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيدِ المواقع واختيار المنازل ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ، فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ماعزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ، ورأوا انفضاض الأجناد وافتراق أكثر الجموع ، خرجوا منتهزين الفرصة التى أمكنتهم ، فى خيلٍ كثيفة ، فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذى فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ، فقُتِلَ على باب الخباء من أعيان الجند خلق كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ، وخُلص إلى أبى يعقوب فطُعن تحت سرته طعنة مات منها بعد أيام يسيرة .

وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا ، وعُبر بأمير المؤمنين النهر جريحًا ، فجُعل فى محفة وسِير به .

عاقبة أبى الحسن المالقى الخطيب

وسأل أمير المؤمنين : من كان السبب فى حركة الناس على هذا الوجه المؤدى إلى هذا الاختلال ؟ فأُخبر بما فعله أبو الحسن المالقى ، فقال : عنده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فارًّا بنفسه على ملك الروم ابن الريق ، فأحسن نُزُله وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقًا واسعًا ، ولم يزل عنده مكرمًا إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحدين يستعطفهم ويسأل من عرفه من أعيانهم الشفاعة له ، وأدرج فى ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ، ويدلهم على بعض عوراتهم مما كان خفى عنهم ، وقال لملك الروم ابن الريق : إنى أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالى وأولادى وأخبرهم بسلامتى وأعلمهم إكرام الملك إياى وإحسانه إلىّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسهم ، وأريد أن توجه مع الذى يحمله من يخفره إلى أول بلاد المسلمين ، فأذن له فى ذلك وأجابه إليه ، فكتب الكتاب . .

وكان العِلج الموكل به الذى يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه ، يعرف لسان العرب ـ إلا أنه لم يكن يتكلم به ـ ويقرأ الخط العربى ، فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشورًا ، ولم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربى ، فلمح العلج الكتاب لمحة ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ، فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر . .

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ، فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحوٍ من مرحلة ، أُمر بالقبض عليه هناك وأُخذ الكتاب منه ، فلما أُتى بالكتاب فتحه وجمع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور ، واستحضر أبا الحسن ، وقال لترجمانه : قل له : ما حملك على ما صنعت مع إكرامى لك وبرى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برك بى وإكرامك إياى لا يمنعانى من

النصح لأهل دينى والدلالة لهم على مافيه مصلحتهم ! فشاور ابن الريق ـ لعنه الله ـ قسيسه فى أمره ، فأشاروا عليه بإحراقه ، فأحرقوه .

وفاة الأمير أبى يعقوب

وأما ما كـان فى أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب ، فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكـرنا ، أثقله الجرح واشتد عليه ، فما سـاروا به إلا ليلتين أو ثلاثا حتى مـات رحمه الله ، فأخبرنى من كان معهم فى تلك السفـرة أنـه سُمع النـداء فيما بين العشاءيـن فى العسكر كلـه : الصـــلاة على الجنازة ، جنـازة رجل ! فصلى الناس قـاطبة على الجنـازة لايعرفون على مـن صلوا ، ولم يعلم بذلك إلا خواصُّ أهلِ الدولة ، وساروا به حتى بلغـوا أشبيلية فنزلوها ، فصبَّروه وبعثوا به فى تابـوت مع كافور الحاجب مـولاه المتقدم الذكـر إلى تينمل ، فدفن هناك مع أبيـه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قُبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠

أخبرنى ابنه أبو زكـريا يحيى ـ رحمـــة الله عليه ـ أنـه كان قبل موته بأشهـر يسيرة كثـــيراً مـــا يردد هذا البيت :

طـوى الجديـدان مـا قـد كنت أنشره وأنكـــــــرتْنى ذوات الأعينِ النجُـلِ !

ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

وهو يعقوب بن يـوسف بن عبد المؤمن بن على كما ذكرنا ، يكنى أبا يـوسف ، أمه أم ولد رومية اسمها ساحر ، بويع له فى حياة أبيه بأمره بذلك ، وكان سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين ســـنة ، فكانت مدة ولايته منذ وفـاة أبيـــه إلى أن توفى فى شـــهر صفر الكائن فى

سنة ٥٩٥ ، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا ، وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

صفاتـــه

كـان صافى السمـرة جدًّا إلى الطـول ما هـو ، جميل الـوجه ، أَعْيَنَ أَفْـوَه أفنى ، شديـد الكحل ، مستدير اللحيـة ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جـزل الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثًـا وأكثرهم إصـــابة بالظن ، كـان لايكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرِّبًا لـلأمور ، عارفًا بأصـول الشر والخير وفروعهما ، ولى الوزارة أيـام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضـاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ، فدبرها بحسب ذلك ، فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم .

أولاده

كان له من الولد : محمد ـ ولى عهده ، وسيأتى ذكر مولده ووفاته ـ وإبراهيم ، وعبد الله وعبد العـزيز ، وأبو بكـر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، ومـوسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ، هؤلاء أولاده المخلفون بعده ، ومات له فى حياته عدةٌ من الولد ، وله بنات فيهن كثرة .

وزراؤه

أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى إلى أن مات .

ثم وزر لـه بعده [أبـو يحيى] أبو بكـر بن عبـد ا لله بن أبى حفص عمر إينتى المتقـدم الذِّكر ، واستمـرت وزارة أبى يحيى هذا إلى أن استشهد ـ رحمه الله ـ ببـلاد الروم على ماسيأتى بيانه إن شاء الله ، فاضطرب أمر الوزارة قليلا .

ثم وقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر ، وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، وهو ابن عم الوزير الشهيد [أبى يحيى] المذكور آنفا ، فوزر أبو عبد الله هذا أيامًا يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحى أشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا إليه من رده ، وأعفوه من الوزارة .

ثم وزر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاتى ، فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف ، وصدراً من إمارة ابنه أبى عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه

عنبر الخصى مولاه ، ثم ريحان الخصى مولاه أيضًا ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجبا له إلى أن مات ريحان المذكور .

كُتابه

أبو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة ، كان من كتاب أبيه ـ حسبما تقدم ـ جمع أبو [الفضل] جعفر هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ، لم يزل كاتبًا له إلى أن توفى ، أعنى أبا الفضل .

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة من أعمال ألمرية من بلاد الأندلس ، لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ، تركته حيا حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بى وفاته فى شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما ، كاتبا الإنشاء الخاصة .

وكُتَّاب الجيش : رجل يعرف بالكُباشى ، ذهب عنى اسمه ، وقد كان يكتب قبله

أبو الحسن بن مُغنٍ ، استمرت كتابة الكباشى هذا ديوان الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف .

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم ــ أعنى من كتبة الإنشاء ـ من عرف طريقتهم وصب فى قالبهم وجرى على مهيعهم وأصاب مافى أنفسهم كأبى عبد الله بن عياش هذا ، فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ، ثم جرى الكُتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة .

قضاتــه

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر إلى أن مات ، وولى بعده أبو عبد الله محمد ابن مروان من أهل مدينة وهران ، ثم عزله وولى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد ، رجلاً من ولد بَقِيّ بن مخلد الفقيه المحدث الذى يروى عن أحمد بن حنبل ، وقد تقدم ذكر بَقِى هذا وطرفٌ من أخباره فى صدر الدولة الأموية فى أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس ، ولم يزل أبو القاسم هذا قاضيًا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب ـ كما ذكرنا ــ على مراحل من مدينة شنترين ، سُترت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية ، وهم فى كل يوم يصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفة مشاةً على أرجلهم كما جرت العادة ، ثم يركبون والمحفة مسدول عليها سترٌ أخضر إلى أن بلغوا أشبيلية كما ذكرنا ، فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبى يعقوب ـ زعموا ــ بتجديد البيعة لابنه أبى يوسف ، فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الأصناف .

وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كِبَر أمرها ، ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، فتم له الأمر وبايعه الناس ، يحسبون ذلك بإذن أبيه ، فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأ له ، أعلن وفاة أبيه عند خواص الدولة ، ولم تجر عادتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هلم .

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة ؛ لما كانوا يعرفون من سوء صباه ، فلقى منهم شدة ـ على ماسيأتى بيانه ـ وكانت هذه البيعة العامة ـ كما ذكرنا ـ فى سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره ـ على ما تقدم ـ عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سَلاَ ، وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكأ عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن ، بعد ما ملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الأقطاع الواسعة .

بنيان مدينة الرباط

ثم شرع فى بنيان المدينة العظمى التى على ساحل البحر والنهر من العُدْوة التى تلى مراكش ، وكان أبو يعقوب ـ رحمه الله ـ هو الذى اختطها ورسم حدودها وابتدأ فى بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ، فشرع أبو يوسف ـ كما ذكرنا ـ فى بنيانها إلى أن أتم سورها ، وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جدًّا ، لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له مأذنة فى نهاية العُلو ، على هيئة منار الأسكندرية ، يُصعد فيه بغير دَرَج ، تصعد الدواب بالطين والآجُرّ وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ، لأن العمل ارتفع عنه بموت أبى يوسف ، ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً ، وأما المدينة فتمت فى حياة أبى يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها ، وهى مدينة كبيرة جدًّا ، تجىء فى طولها نحواً من فرسخ ، وهى قليلة العرض

ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر فى

أمر نفقاتها وما يصلحهـا ، فلم يزل العمل فيها وفى مسجدها المذكور طـول مـدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراكش .

طمع بنى غانية فى التغلب على إفريقية

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة ٨٠ ـ خرج الميرقيون بنـو ابن غانية من جزيرة ميرقة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوهـا وأخرجوا من بها من الموحدين ، وذلك لست خلوان من شعبان من السنة المذكورة ، وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامـدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

التعريف ببنى غانية ودار ملكهم

وتلخيص خبر هـؤلاء القـوم ـ أعنـى بنى غانيـة ــ أن أمير المسلمين على بن يـوسف بن تاشفين ، وجـه إلى الأندلس برجلين ، اسم أحدهما يحيى ، والآخـر محمد ، ابنى على ، من قبيلة مسوفة ، يعـرفان بابنى غانية ، وهى أمهما ، فأما يحيـى وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الـدهر ، اجتمع له من المناقب مـا افترق فى كثير من الناس ، فمنها أنه كـان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله ـ عز وجل ـ والتعظيم له والاحترام للصالحين ، هذا مع علو قدم فى الفقه واتسـاع رواية للحـديث ، وكان ــ مع هـذا ـ شجاعـًا فارسـًا ، إذا ركب عُـد وحده بخمسمائة فارس ، وكـان على بن يوسف يُعـده للعظائم ويستـدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً مـن جــزيرة الأندلس ودفـع بـه للمسلمين غيـر مـرة مكـاره قد كانت نزلت بهم ، كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ، ثم عزله عنها وولاه قرطبة ، فلم يزل بها والياً إلى أن مات ـ رحمة الله عليه ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين ، لا أعلم له عقبا .

محمد بن غانية

وكان أخـوه محمد والياً من قِبَله على بعض أعمال قـرطبة ، فلما مات اضطرب أمـر محمد هذا وبقى يجول فى بلاد الأندلس والفتنة تتزايد ودعوة المصامدةتنتشر ، فلما اشتد خوف محمدٍ هذا أتى مـدينة دانيـة فعبر منها إلى جزيـرة ميرقة فى حشمـه وأهل بيته ، فملكهـا والجزيرتين اللتين حولها ، منرقـة ويابسة ، ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفـاه إليها على طريق السجن بها ، فالله أعلم .

وهذه الجزيـرة ـ أعنى ميرقـة ـ أخصب الجزر أرضـاً ، وأعدلها هـواء ، وأصفاهـا جوًّا ، طولها وعـرضها نحـو من ثلاثين فرسخـًا ، اتفق أهلها على أنهم لم يـروا فيها شيئـاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخْشى ضرره ، ويجاورها بالقرب منها جزيرتـان تقتربان منها فى الخصب ، تسمى إحداهما منُرقة ، والأخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

فاستقل محمد بمملكـة هذه الجزر ، وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريـًا على أمر لمتونة الأول ، يدعو لبنى العباس ، وكان له من الولد : عبد الله ، وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ، وبنات .

فعهد فى حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ، فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ، ودخل عليه فى جماعة من الجنـد وعبيدٍ لـه فقتله ـ قيل فى حيـاة أبيه ، وقيـــل بعد وفاتـه ـ وتـوفى عبد الله المذكور .

إسحاق بن محمد

واستقل أبو إبراهيم بـالملك استقلالاً حسنـًا ، وحسنت حالته ، وكثر الـداخلون عليه بجزيرة ميرقة من فل لمتونة وبقاياهـم ، فكان يحسن إليهم ويصلهـم حسب طاقته .

وأقبل على الغـزو ، وصرف عنايتـه إليه ، فلم يكـن له هم غيره ، فكـان له فى كل سنـة سفرتـان إلى بلاد الـروم ، يغنم ويسبى وينكى فى العدو أشد نكـاية ، إلى أن امتـلأت أيدى أصحابه أمـوالاً ، فقوى بذلك أمره ، وتشبه بـالملوك ، ولم يزل هذه حالــــه إلى أن توفى فى سنة ٧٩ ، وفى أولها وفى آخر أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

وكـان يراسل الموحـدين ويهاديهم ويهاندهـم ويختصهم من كل مايسبى ويغنم بنفيسـه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ، فلما كان فى شهور سنة ٥٧٨ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، ويتوعدونه على ترك ذلك ، فوعدهم ذلك واستشـار وجوه أصحابه ، فاختلفوا عليه ، فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وحاضٍ لـه على الدخول فيما دعوه إليه ، فلما رأى ختلافهـم أرجأ الأمر إلى أن ينظر

وخرج إلى بـلاد الروم غازيًـا ، فـاستشهد ـ رحمه الله ـ هناك ، وقيل إنـه طعن طعنة فى حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جىء به حيًّا حتى أُدخل قصره فمات فيه ، فالله أعلم .

وكان له من الولد : علّ ـ وهو أكبر ولـده والقائم بأمره من بعده ـ [وعبد الله] ويحيى ، وأبو بكـر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبـراهيم ، توفى إبراهيم هـذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل .

على بن إسحاق

ولما توفى أبو إبراهيم إسحـاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعـده ابنه على بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول ميرقة إلى العدوة ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة مـن أعيـانها ـ على ما يقال ـ يدعونه إلى أن يملكوه ، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ، ومما جرأه أيضا كون الموحدين بالأندلس ، وسماعه خبر موت أبى يعقوب واشتغالهم ببيعة أبى يوسف ، وظن أن الأمر سيضطـرب وأن الخلاف سينشأ ، فكان هذا أيضـًا مما أعانه على الخروج ؛ ولـولا هذه الأسباب التى ذكرنا لم يجسر على الخروج .

فقصد ساحل بجاية فنزل به ، فقاتلـه أهلها قتالاً غير كثير ، ثم دخلها ، وكان دخوله إياها ـ كما ذكرنا ـ يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة .

استطراد عن انتقاض العرب بإفريقية على الموحدين

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، لم يكن واليا عليها ، وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان أبو موسى مارًّا بها حين رجع من أفريقيـة ، وكان واليًا عليهـا هو وأخوه الحسن من قِبَل أخيهما أبى يعقـوب ، فظهر من العـرب إفساد ببعض نـواحى إفريقيـة ، فخرج أبـو موسى هـذا وأخوه أبـو على بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون ، فانهزم جند إفـريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين ، فأقـاما عندهم ، وانتهـى الخبـر إلى أبى يعقوب ، فـأرسل إلى أولئك العرب ، فطلبوا مـالا اشتطوا فيـه غايـة الاشتطاط ، ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحـدين على ستة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أُخبر بـذلك أبو يعقوب استكثر المال وقـال : هذه أيضًا مضرة أخرى ، إن أعطينـاهم مثل هذا المال تقووا بـه على ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ، فأطلقوا أبا علىّ وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما ، فهذا ما أوجب كون أبى موسى ببجاية ، فخرج من أسر العرب إلى أسر الميرقيين ! .

رجع الحديث عن بنى غانية فى بجاية

فدخل على بن إسحـاق ـ كما ذكرنـا ـ بجايـة فى اليوم المؤرخ ، وأقام بها سبعـة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبنى العباس ، ثم لـلإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبـد الحق بن عبـد الرحمـن الأزدى الأشـبيلى ـ مؤلف كتـاب الأحكام وغيره من التآليف ـ فأحنـق ذلـك عليـه أبا يوسـف يعقـوب

أمير المؤمنين ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه !

وخرج على بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها ، وسار حتى نزل على قلعة بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحى ، فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد .

استرجاع بجاية من يد الميورقيين

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقيهم منشرح الصدر ظاهر البشر ، وقال لهم من القول مابسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا .

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلاً اسمه محمد بن أبى سعد الجنفيسى ، ثم سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشًا عظيماً أمَّر عليهم رجلاً من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لما كانوا يرونه فى ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره ، فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور ، وأقام هو فى تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر ، وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزامًا قبيحًا ، واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم فى كل وجه ، وهلك أكثرهم عطشا ، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين ، فلَمَّ شعثهم ، وجبر ما وهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقى على ابن غانية بموضع يعرف بالحامة ، حامة دقيوس ، فما وقف أصحاب على إلا يسيرا حتى انكشفوا عنه ، وأبلى هو عذرا فأُثخن جراحًا ، وخرج فاراً بنفسه فمات فى خيمة لعجوز أعرابية .

وكان حين خرج من ميرقة خرج معه من إخوته : عبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، فبقى هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ، ثم رأوا أن يقدموا

عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ، فقدموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى رجع أن أمير المؤمنين من هذا الوجه .

استرجاع قفصة

وفى هذه السفرة انتقضت عليهم أيضًا مدينة قفصة ، ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين ، فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ، ثم دخلها عنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعًا ، بلغنى أنه قتل أكثرهم ذبحًا ، وأمر بأسوارها فهدت .

إبراهيم الزويلى الكاتب

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب ، اسمه إبراهيم ، يُعرف عندنا بالزويلى ، فى قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورميهم إياها بحجارة المنجنقين :

سائل بقفصة هل كان الشقى لها ... بعلاً وكانت له حمالة الحطبِ

تبت يدا كافرٍ بالله ألهبها ... فكان كالكافر الأشقى أبى لهب

وفيها يقول :

لما زنت وهى تحت الأمر مُحصنة ... حصبتموها اتباع الشرع بالحصبِ

أنشدنى ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها ، فلما انتهى إلى هذا البيت « لما زنت . . » غلبنى الضحك لِما سبق إلى خاطرى من سوء معناه ، فسترت وجهى ، فقال لى : مالك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لى ، فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق إلى

خاطرى ، فسبنى وقال لى : أنت والله شيطان سيىءُ القريحة ، غالبٌ على طباعك اللهو ! . .

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلى هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء ، جمعتنى وإياه مجالس عند السيد الأجل أبى زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيت منه العجب .

رجع الحديث عن بنى غانية

ولما فرغ أبو يوسف من أمر إفريقية ، كر راجعًا إلى المغرب .

ولم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم بـه أخوه من تدبير الأمور ، ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة ميرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودُعى فيها للموحدين ، فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ، فلما قدم عبد الله قام معه عِلْجٌ من علوج أبيه يسمى نجاحا ، كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة ، وكان متحصناً فى قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالى والجند ، فلما قدم عبد الله ـ كما ذكرنا ـ تلقوه ، وانضاف إليهم خلق منَ بوادى الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم ، فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ، فلم يدفعه عنها أحد ولا أمتنع عليه من أهلها ممتنع ، ففتحوا له الأبواب ، ودخلها بمن معه ، وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس ، فحظى محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة ، وولوه مدينة دانة ، فلم يزل واليًا عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة ، فضبط أمرها وجرى فى الغزو وإخافة العدو على سنن أبيه ، فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحدون فى سنة ٥٩٩ على ماسيأتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفـريقية ينبه تارة ويخمل أخرى ، وله أخبـارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

اختلاف بنى عبد المؤمن

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً فى هذا الوجه الذى ذكرنا ، طمع فى الأمر أخوه أبـو حفص عمر المتلقب بـالـرشيد ، وعمـه سليمان بن عبـد المؤمن ، وكان أحـدهما بشرقى الأندلس بمدينة مرسية ، والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة .

فأما أبـو الربيع سليمان فسـولت له نفسـه وزين له سـوء رأيه أن يجمع على نفسـه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ماأراد ، فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعثت عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين .

وأما عمر فكان قـد بدأ من ذلك بتنقص أمير المؤمنين أبى يوسف على رءوس الأشهاد ، تعريضـاً مرة وتصريحًا تارة ، وإلقاء ذلك إلى خـواصه ليلقوه إلى وجـوه الأندلس ، وانتهى أن قتل قاضى مرسية وخطيبها المعروف بابن أبى جمرة ، وقيل : إنه وكزة برأس السيف فى صدره وكزة مات منها بعد أيام .

فاستحثت هـذه الأخبار أمير المؤمنين وأزعجته ، فعجل من بجايـة إلى فاس سبع عشرة مرحلـة ، وهذا نهايـة ما يكون من سرعـة السير لمثله ، فلما سمع بقـدومه أبـو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ، فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضًا ، فأما عمر فلقيه بالقرب من مـدينة مكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تدُرْ بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده ، وحُمل بعد التقييد إلى مدينـة سلا ، ولقيـه سليمان عمه ، ففعل بـه مثل ذلك ، وسار حتى نـزل مدينـة سلا ، وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد ، وسار حتى بلغ مراكش ،

فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما ، فقتلهما صبراً ، ودفنهما ، وكتب يعلمه بذلك ، فبلغنى أنه قال له : بنيت قبريهما بالكدان والرخام ، وجعل يذكر حسنهما ، فكتب إليه : مالنا ولدفن الجبابرة ، إنما هما رجلان من المسلمين ، فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين .

وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأُشربت قلوبهم خوفه ، بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له ، لأشياء كانت تظهر منه فى صباه توجب ذلك ، وكان قتله هذين الرجلين فى سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد ذلك زُهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل .

وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيتٌ ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صِلته منهم بالصلات الجزيلة .

دعوة أبى يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة

وفى أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار ، وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى) فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك ،

وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجُعلَ السَّنِى من الكسا والأموال ، وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا ، يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غير واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أَشكل عليه من ذلك ، فقال لى وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أوهذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبى داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر فى أيام يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ، ونال عنده طلبة العلم ـ أعنى علم الحديث ـ ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم ـ وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم ـ يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء ـ يعنى الطلبة ـ لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمرٌ فأنا ملجؤهم وإلىَّ فزعهم وإلىَّ ينتسبون ! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم ، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم .

استرجاع مدينة شلب

ولما كان فى سنة ٥٨٥ ، قصد بطرو بن الريق ـ لعنه الله ـ مدينة شلب ، من جزيرة الأندلس ، فنزل عليها بعساكره ، وأعانه من البحر الإفرنج بالبُطس والشوانى ، وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ، على أن يجعل لهم سبى البلد ، وله هو المدينة

خاصة ، ففعلوا ذلك ، ونزلوا عليها من البر والبحر ، فملكوها وسبوا أهلها ، وملك ابن الريق - لعنه الله - البلد .

وتجهز أمير المؤمنين فى جيوش عظيمة ، وسار حتى عبر البحر ، ولم يكن له همٌّ إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها ، فلم تُطق الروم دفاعه ، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ، ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له طُرُّش ، ورجع إلى مراكش .

طامعٌ آخر من بنى عبد المؤمن !

وبعد رجوعه مرض مرضًا شديداً خيف عليه منه ، وكان قد ولى أخاه أبا يحيى ، الأندلس ، فجعل يتلكأ فى خروجه ويبطىء تربصاً به وطمعًا فى وفاته ، وكلما أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيى أم لا ؟ فلما بلغ أبو يحيى استحثاثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول ما يرد عليه خبر وفاته ، فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ماتركت أمير المؤمنين إلا هامة اليوم أو غد ، وليس لها غيرى ! فجعل أشياخ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهل بلدٍ على أهل بلد ، حتى بلغ مرسية ، وكتبوا بذلك مساطير خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالسفر ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، يُحمل فى محفةٍ على بغلين ، وبلغه أمر أبى يحيى المذكور ، وجاءته كتب أهل الأندلس والمساطير التى كتبوها .

ولما سمع أبو يحيى بحركته ، جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر ، فلقيه بمدينة سَلاَ ، فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده : هذا الشقى قد جاء ! وأمر به فقُيد ، ووجَّه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدوا شهادتهم ، وأمر به فأحضر وقال : إنما أقتلك بقوله ﷺ : « إذا بويع خليفتان بأرضٍ فاقتلوا الآخر منهما » ! وأمر به فضربت عنقه ، وتولى قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس ، وأمر به فكفن ودفن ، وأقبل على

القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً ، وأمر بإخراجهم على أسوأ حال ، حفاة عراة الرءوس ، فخرجوا وكل واحدٍ منهم لا يشك أنه مقتول !

ولم يزل أمر القرابة من يومئذ فى خمول وهلم ، وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة ، فكان جملة من قتل يعقوب : أخويه وعمه !

وقعة الأرك

ولما كان فى سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأدفنش ـ لعنه الله ـ من العهد ، فخرجت خيل الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها ، إلى أن كثر عيثها بالأندلس .

وتجهز أمير المؤمنين وأخذ فى العبور ، فعبر البحر فى جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ، ونزل مدينة أشبيلية ، فلم يقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجند وقسم الأموال ، وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأدفنش ـ لعنه الله ـ بقصده ، فتجهز هو أيضًا فى جموع ضخمة ، والتقوا بموضع يعرف بفُحْص الحديد ، وكان الأدفنش قد جمع جموعًا لم يجتمع له مثلها قط ، فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم ، لما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير المؤمنين فى ذلك كله لامستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة ، التقى المسلمون وعدوهم ، فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم ، وكانت الدائرة على الأدفنش ـ لعنه الله ـ وأصحابه ، ولم ينج إلا هو فى نحوٍ من ثلاثين من وجوه قواده ، واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين ، وغيرهم ، منهم الوزير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر فى وزراء أبى يوسف .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح ، وقد انجلى عنها أهلها ، فدخلها ، وأمر بكنيستها فغيّرت مسجداً ، فصلى فيها المسلمون ، واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ، ثم رجع إلى مدينة أشبيلية منصورًا مفتوحًا عليها .

وكانت هذه الهزيمة أُختاً لهزيمة الزلاقة ، المتقدم ذكرها فى مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

وأقام أمير المؤمنين بأشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم فى السنة الثانية ، فنزل على مدينة طليطلة بعساكره ، فقطع أشجارها ، وانتسف معايشها ، وغور مياهها ، وأنكى فى الروم أشد نكاية .

ثم عاد فى السنة الثالثة أيضًا ، وتوغل بلاد الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ، ورجع إلى مدينة أشبيلية ، فأرسل الأدفنش إليه ـ لعنه الله ـ يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشر سنين ؛ فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراكش ، وذلك فى سنة ٥٩٤ .

عزم أبى يوسف على قصد مصر ، ووفاته

فبلغنى من غير واحد أنه صرّح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى صدر سنة ٥٩٥ ـ كما ذُكر ـ ودفن بتينمل مع آبائه .

شىء من سيرته

وكان فى جميع أيامه وسيره مؤثرًا للعدل ، متحريًا له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التى هو فيها ، كان فى أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء الأوَل . . .

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه فى الصلوات الخمس ، لم يزل على ذلك مستمرًّا أشهرًا ، إلى أن أبطأ يومًا عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ، فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لومًا وتأنيباً ، وقال : ما أرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلى بكم ؟ أليس قد قدم أصحاب رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

وكان يقعد للناس عامة ، لايحجب عنه أحد من صغير ولا كبير ، حتى اختصم إليه رجلان فى نصف درهم ، فقضى بينهما ، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان فى البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره .

ولما ولى أبا القاسم بن بَقِيّ المتقدم الذكر ، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه فى جميع القضايا ، فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر فى كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم .

وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة ، فلا يقولن امرؤٌ منكم إلا حقا ، وربما تلا فى بعض المجالس ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولما خرج إلى الغزوه الثانية سنة ٩٢ ـ وهى الغزوه التى كانت بعد الوقعة الكبرى التى أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره ـ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم

كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ، فكان فى ذلك شبيهًا بما حُكى عن قتيبة بن مسلم والى خُراسان حين لقى الترك وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يُكثر السؤال عنه ، فأُخبر أنه فى ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه إلى السماء ينضنض بها ، فقال قتيبة : لأصبعه تلك أحب إلىّ من عشرة آلاف سيف !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد ، فتساوى عنده - رضى الله عنه - الفريقان وقال : لكل مذهب ، ولم يزد هؤلاء ردهم ولا نقص أولئك قبولهم .

وكان كثير الصدقة ، بلغنى أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوه - أعنى التى كانت فيها الوقعة الكبرى - بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامة نحو من نصفها ، والباقى فى القرابة ، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعًا ، وجعلوا فى كل ربع أمناء معهم أموال يتحرَّون بها المساتير وأرباب البيوتات ، وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون ، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره ، فيُخْتَنُون ويأمر لكل صبى منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة ، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين ، هذا كله شاهدته لا أنقله عن أحد من الناس .

وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحةً فسيحة بأعدل موضع فى البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع بِرَك فى وسطه ، إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارًا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجًا عما جلب إليه من

الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نَقَه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا دُفع إليه ماله وتُركَ وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مَرِضَ بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيتٍ أهلِ بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله .

مماليك الغُزّ ، المصريون فى المغرب

وفى أول ولايته ـ إما سنة ٨٣ أو ٨٢ ـ ورد علينا البلاد الغُزُّ من مصر كان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقُش ، ذكروا أنه كان مملوكاً لتقىِّ الدين ابن أخى الملك الناصر ، ورجل يسمى شعبان ، ذكروا أنه من أمراء الغز ، ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضى عماد الدين ، فى آخرين ، فأحسن نزلهم ، وبالغ فى إكرامهم ، وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ، وجامكية الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل ، وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشىء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصلة ، هذا مع أنه أقطع أعيانهم أقطاعا كأقطاع الموحدين أو أوسع : أقطعَ رجلا منهم فيما أعرف ، من أهل إربل ، يُعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها ، وأقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل فى كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار ، هذا خارجًا عن جامكيتهم الكثيرة التى ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها .

ولم يرد المغرب من هذه الطائفة ـــ أعنى الغُز ـــ ألطف حسا ولا أزكى نفسًا ولا أحسن محاضرةً ولا أطيب عشرة من شعبان هذا المذكور ، ما لقيته إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يومًا لشاعر من أصحابنا من أهل أشبيلية :

وقائل : فيما لم تهجع ؟ فقلت له : كيف الهجوع لطرفٍ نافر الوسن

لم تدر أن الكرى الممنوع عن بصرى هى السنات التى فى مقلتى حسن !

فضحك وقال : لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ، ورفرف فما طار ، وأراد غاية فوقع دونها ، ولله من أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

قلت : هو أبو الطيب ، قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدته يومًا ـ وقد جرى ذكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه وأكثر :

إذا صال ذو ود بود صديقه فيا أيها الخل المصاحب لى صل بى

فإنى مثل الماء ليناً لصاحبى وناهيك للأعداء من رجلٍ صلب !

فاستحسنها وكتبها عنده ، وقال لى رحمه الله : لك علىَّ بهذين البيتين حق ، فما وافقنى شىء من الشعر فى هذا المعنى ولا فى غيره ولا وقع منى موقعهما .

وفى الجملة كان له شغف بالآداب شديد، وكان يقرض شيئًا من الشعر ، وربما ندَرَت له الأبيات الجيدة ، سألته أن يكتب لى شيئًا من شعره أو ينشدنيه ، فأبى علىَّ كل الإباء وحلف لا يفعل . . .

أبو يوسف وعقيدة العامة فى ابن تومرت

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون ، فقعدوا تحت شجرة خرُّوب مقابلة للمسجد ، وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم

ووعدهم به : لِيبصرنَّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها ! فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم فى تينمل يومًا عظيمًا ، اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف ويقلن ما معناه بلسان : صدق مولانا المهدى ! نشهد أنه الإمام حقًّا!

فأخبرنى من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً لعقولهن ، لأنه لا يرى شيئًا من هذا كله ، وكان لايرى رأيهم فى ابن تومرت ، فالله أعلم .

أخبرنى الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المرى ونحن بحجر الكعبة قال : قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أبا العباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة - يعنى عصمة ابن تومرت قال : وقال لى يومًا وقد استأذنته فى فعل شىء يفتقر إلى وجود الإمام يا أبا العباس ، أين الإمام . . . ؟ أين الإمام . . . ؟

أخبرنى شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس ، يسمى أبا بكر بن هانىء ، مشهور البيت هناك ، لقيته وقد علت سِنُّه فرويت عنه ، قال لى : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك - وهى التى أوقع فيها الأدفنش وأصحابه - خرجنا نتلقاه ، فقدمنى أهل البلد لتكليمه ، فرُفِعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله - على ماجرت عادته - فلما فرغت من جوابه - سألنى كيف حالى فى نفسى ، فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ، ثم قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام ، - أعنى ابن تومرت - فنظر إلىّ نظرة المغضب ، وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حكمك أن تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئًا من السنة ، ثم بعد هذا قل ماشئت ، فى أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

اهتمامه بالتشييد والبناء

وكان عند رجوعه من السفرة التى استنقذ فيها مدينة شلب من أيدى الروم على ما

تقدم ، أمر أن يبنى له على النهر الأعظم ، نهر أشبيلية ، حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريًا فى ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد ـ فإنه كان مهتمًا بالبناء ، وفى طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ، زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها ـ فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه ، وسمّى ذلك الحصن « حصن الفرج » .

على بن حزمون الشاعر

ولما رجع من غزوته العظمى ـ المتقدم ذكرها فى سنة ٥٩١ جلس للوفود فى قبة من تلك القباب مشرفةٍ على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ، وأنشده الشعراء ، فممن أنشده فى ذلك اليوم صديق لى من أهل مرسية اسمه على بن حزمون ، أنشده قصيدة فى عروض يسمى الخبب كان يقترحه على الشعراء فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حيتك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفى عُرس
أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لملتمِس
ورفعت منار الدين على	عمدٍ شُمٍّ وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهمو فغدوا	فرصاً فى قبضةِ مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحْصَ ولم يُقس

خرجوا بطراً ورثاء النا ... س ليختلسوا مع مختلس

ومضيت لأمر الله على ... ثقةٍ بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلاكله ... بظُباك على بشرٍ رجس

وتساوى القاع بهامهم ... الربض مع الحرب الضرس

سُقِيَتْ بنجيعهمو أَكَمٌ ... وطِئُوا منهن على دهس

فأولئك حزب الكفر ألا ... إن الكفار لفى نكس

أذوى الصلبان وراءكمو ... خيل الملك الخبر الندس

لو أن البحر تناوله ... جُرَعاً وطأته على يبس

كأن الُصمَّ تُراجمها ... أضحت كحل المقل الذعس

ملأ التوحيد أعنتها ... وأغار بها روح القدس

نهضت فمضت فقضت أملاً ... أنسى عتب الدنيا فُنِسى

جاست جنبات الكفر فلم ... تترك لهمو ما لم تجس

لم يبق بها مثوى رجل ... إلا وعليه شذى فرس

لحقوا بقرون الشُمِّ فلا ... سقيا لطلولهمو الدُّرس

إن كان نجا أدفنشهمو ... فإلى عيشٍ نكدٍ تعس

نظر الملك الأعلى فرأى ... ملكا ما بين قناً وقسى

كالصُّبح توشح رونقه ... كالطور بنور الله كُسِى

فمضى لم يلو على أحد ... ورمى بالدرع وبالترس

لصليل الهند بمفرقه ... لا يسمع صلصلة الجرس

سهر الموتور وأرَّقه ... تذكار المنصل والمرس

وبكاء عقائل هاتفة ... كالورق ينُحْنَ مع الغلس

برزت وكأن ذوائبها ... أذناب روامحة شُمس

ترنو كظباء الرمل على ... وجلٍ لضراغمة شرس

قد كن مها أُنُسٍ فغدت ... تحت الرايات بلا أنس

إن الأيام قد ازدهرت ... كالروض يروق لمغترس

وتناسقت الآمال لنا ... كالثغر تنظم فى لعس

وتلألأ نور الحق على الْـ ... أثر المهديَّة فاقتبس

أجزيرة أندلس اعتصمى ... بإمام الأمة واحترسى

أرعاك حراسته ملك ... جبريل له أحد الحرس

حكمت أسيافك سيدنا ... فى كل مصر الكفر مسى

ومضت فى الروم مضاربها ... وكذلك تفعل فى الفرس

لا يُخلف ربك موعده ... دَوِّخ أقطارهمو ودس !

أوردتها على تواليها وإن كان فيها طول ، لغرابة عروضها وجودة أكثر أبياتها ، أنشدنيها منشئها المذكور من لفظه ، ثم أعدتها عليه بلفظى أخر مرة لقيته بمدينة مرسية فى سنة ٦١٤ .

ولعلى بن حزمون هذا قدم فى الآداب ، واتساع فى أنواع الشعر ، ركب طريقة أبى عبد الله ابن حجاج البغدادى ـ سامحه الله وغفر له ـ فأربى فيها عليه ، وذلك إنه لم يَدَعْ

موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل فى عروضها ورويِّها موشحة على الطريقة المذكورة ، وله مع هذا فى الهجاء يد لا تطاول ، غير أنه يفحش فى كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة :

ابتدأ يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قواد الأندلس يقال له محمد ابن عيسى ، مشهور النجدة عندهم . والأبيات :

تأملت فى المرآة وجهى فخلته	كوجه عجوزٍ قد أشارت إلى اللهو
كأن على الأزرار منى عورة	تنادى الورى : غضوا ولاتنظروا نحوى
فلو كنت مما تنبت الأرض لم أكن	من الرائق الباهى ولا الطيب الحلو
وأقبح من مرآى بطنى فإنه	يقرقر مثل الرعد قرقر فى الجو
وإلا كقلبٍ بين جنبى محمدٍ	سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو
يود بأن لو كان فى بطن أمه	جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
ثقيل ولكن عقله مثلُ ريشةٍ	تطير بها الأرواح فى مَهْمَةٍ دوى
تميل بشدقيه إلى الأرض لحية	تظن بها ماءً يفرغ من دلو
وقد حدثوا عنه بكل نقيصةٍ	ولكن مثلى لا يُرَوِّى ولا يَرْوِى

وله فى هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق ، لأنى لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عنى .

ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهًا وثروة ، كل ذلك خوفًا من لسانه وحذرًا من هجائه ، ولا أعلم فى جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجى هذا الرجل تحفظ

فيه وتدرس ، أسأل الله له المسامحة ولجميع إخواننا من المسلمين .

محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد

وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند فى هذا اليوم فى السلاح التام ، فلما انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هيآتهم ، قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل ، واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابةٌ فأمطرت مطرًا جودًا حتى ابتل الناس ، فقال فى ذلك صديق لى من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أصله من الجزيرة الخضراء ، كان يكتب لأبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصًا به :

بادى الكرامة بل بادى الكرامات	قد شفَّع الله آياتٍ بآيات
ياليت شعرى ماشىء دعوت به	قبل السلام ومن بعد التحيات
شىء تأثر عنه الجو فاتصلت	من السحائب رايات برايات
من كل وطفاء لفاء الرباب همت	ماءً نقيًّا على زعفٍ نقيَّاتِ
قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد	تفتحت لك أبواب السماوات

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره ، وله ! إحسان كثير وقدم راسخة فى صناعتى النظم والنثر ، مع تحقق بشىء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ، أنشدنى ـ رحمه الله ـ من شعره :

قف بالقباب وأين ذاك الموقف	واسألهم بمامهم أن يعطفوا
وانشد فؤادك إن عرفت مكانه	بين القباب وما إخا لك تعرفُ
عند التى رمت الجمار غدية	وبنانها بدم القلوب مُطرفُ
نفسى الفداء لها وإن لم تُبق لى	نفساً تُذكرنى بها وتُعرفُ

وهى قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد [منها] على خاطرى سوى ما أوردته .

وأنشدته ـ رحمه الله ـ يومًا ونحن فى قبة على شاطىء نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب ، بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حـــاكت يمين الـــريـــاحُ محكمـــةً ... فى نهرٍ واضـح الأســـــاريـــــر

فكلما ضعفـت بـــــه حلقـــــاً ... قـــام لها القطـــرُ بـــالمســامير

فاستحـــسنهما وقال لى : ذكرتنى هـذا المعنى ، وأنشدنى فيـه لنفسه أبياتًـا ما سمعت بمثلهـا ، هذا على إكثـار النـاس فى هذا المعنـى وتواردهم عليـه حتى صـار أخلق من الليل والنهـار من كثـرة تكـراره على الأسماع ، فلا يتخلص منـه إلا من لَطُفَ حسـه وجـاد طبعـه وحَسُنَ ميزه ، والأبيات :

بين الـــريـــاض وبين الجو معترك ... بيض من البرق أو سُمــرٌ من السمرِ

إن أوتــرت قـوسهـا كف السماء رمت ... نبـــلاً من الماء فى زغـفٍ من الغـــدر

لأجل ذاك إذا هبـت طـــــلائعهـــــا ... تـدرَّع النهـر واهتـــزت قنـا الشجـرِ

فانظر ـ حفظك الله ـ إلى حسن توطأته لهذا المعنـى وقوةِ تخلصه إلى هـذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق .

واستأذنت عليه يومًا وهو فى مجلس له ، فلم يـر ـ رحمه ا ـ أن يحجبنى ، فاسترفع ما كان لـديه وأذن لى ، فدخـــلت ، فتلقـانى أحسن لقاء ، وأخـذ يحدثنى ، وفهمت أنـه مستحيٍ خَجِلٌ إذ عـرف أنى تفطنـــــت لبعض الأمـر ، فأنشـدتـه رافعًـا عنـه كلفـة الخجل لبعض الشـــعراء :

أدرهـا فما التحـريـم فيهـا لـذاتها ولكن لأسبـاب تضمنهـا السكـر

إذ لم يكن سُكـرٌ يـزلُّ بـه الفتى فسيـان مـاءٌ فى الـزجـاجـة أو خمر !

فطـرب ـ نضر الله وجهـه ـ وعاوده أنسـه وانبسط ، ثم سكت عنى سـاعة واستـدعى الدواة وكتب بديهًا فى قريب من المعنى الذى أنشدته فيه :

مـاضرَّت الخمـر لـولا الشرع يشربُها قـومٌ حـديثهمـو همسُ التسـابيحِ

ليسـوا بِـرعُشٍ إذا أدوا فـوضهمـو عنـد القيـام ولا ميـل مـراجيحِ

بيت كبيتٍ وفيـه شـادنٌ سَـدِنٌ مـزج الكئـوسِ بـه وقـدُ المصـابيح

وأنشدنى بعد هذا لنفسه ، فى هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعَة سينية لم أسمع بأحسن منها ، لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها ، وهو :

ولكن قـومـاً لا يغيـب نهارُهم إذا غـربت شمسٌ يُـديـرونها شمْسـا

وله ـ رحمه الله ـ رحلة إلى مصر لقى فيها ابن سناء الملك[1] وأخذ عنه من شعره ، وهو أول من سمعت يذكره عندنا ويروى شعره .

ولأبى عبد الله هذا اتساع فى صناعـة الشعر ، إلا أنه نحل كثيرًا من شعره السيـد الأجل أبا الربيع سليمان بـن عبد الله بن عبد المؤمن أيـام كتابته له ، ولم يدع بعـد ذلك فى شىءٍ مما نحله إياه من شعره ، ولا ذكـر أنه له ، فكان أكثر شعره يُنشد لأبى الربيع وتـرويه الرواة له ،

---

(١) وهو أبو بكر السعيد هبة الله بن جعفـر وهو من شعراء مصر فى المائة السادسة ، مات بمصر ٦٥٨ هـ وقيل ٦٥٩ هـ .

عرفت ذلك بعد مفارقته إياه ، لأنى فقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف علىّ كلامه ، ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جدا ، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه !

وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال : دخلت على السيد أبى الربيع وهو فى قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغارٍ فى أعلاها ، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبنى وقلت بديهاً :

لما رأتـه الشمس يفعل فعلهـا — فى العـالمين مُقـاسما ومسـاهما

خـافت تـوالى الجودِ يُنفـد مالـه — نثـرت عليـه دنـانـراً ودراهما !

فحذف الياء من « دنانير » ، وهذا جائز ، كما قال الأول :

تضـل بـه أمـناً وفيـه العصـافر

أبو جعفر الحميرى المؤدب

ومما يتعلق بأخبار أبى يوسف ـ رحمه الله ـ ما أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى ـ رحمه الله ـ أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ ، وذلك أنا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زيابة التيمى(١) التى أولها :

يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لـو لاقيتـه خـاليـاً — لآب سيفـانـا مع الغـالبِ !

---

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى ، وزيابة : أمه ، وبها يعرف ، والحارث المذكور فى البيت هو الحارث بن همام الشيبانى ، وأنشد ابن زيابة هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى شعر قاله ، انظر ديوان الحماسة لأبى تمام .

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لى فى هذا البيت ، وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله ـ لما فصل عن قرطبة متوجهًا إلى لقاء الأدفنش ـ لعنه الله ـ قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : ياأبت ، رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين ! فقلت : يابنى ، لئن صدقت رؤياك هذه ليَهْزِمنَّ الأدفنش لعنه الله ! وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيتُه خالياً لآب سيفانا مع الغالبِ !

فصدقت الرؤيا والتعبير .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحوًا من سنتين ، فما رأيت أروى لشعرٍ قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائر أو بيت نادر أو سجعةٍ مستحسنة منه ، رضى الله عنه ، وجازاه عنا خيراً . أدرك جلةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ، قال لى ولده عصام ـ وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قُرئت علىَّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت له :

لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها . فقال لى : ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصلٌ أصح من الأصل الذى كتبت منه ! فقلت له : أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! وكنا فى المسجد فى زاوية ، فقلت له : أين ؟ فقال لى : عن يمينك ! فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يمينى إلا الأستاذ ! فقال لى : هو الأصل ، وبإملائه كتبت ، كان يُملى علىَّ من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ، فالتفت إلينا وقال : فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبى قال : بعيداً أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبى ! والله لقد أدركت أقوامًا لايعدُّون مَنْ حفظ كتاب سيبويه حافظًا ولا يرونه مجتهداً !

توفى أبو جعفر هذا فى شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كمُلت له ست وتسعون سنة ، لم يبق فى الأندلس أعلى رواية منه فى كل ما يُروَى ، ولم أر قبله ولا بعده ـ مع اتساع علمه وشدة تميزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل هذه الصناعة ـ أكثر إنصافًا منه ولا أسرع رجوعًا إلى الحق ، كنت أنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتًا لا أعدها شيئا يحملنى على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك منى ، فيلهج بها ويشتد استحسانه لها ، وربما درسها فحفظها .

أنشدته يوماً ـ وقد استدعى منى ذلك على عادته ـ بيتين ارتجلتهما فى شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة ـ رحمه الله ـ مع حسنٍ رائع وظرف ناصع ، كان اسمه « فتحاً » وهما :

يا من له عن كناسٍ ... من المتيم قلبهُ
ما أنت كاسمك فتحٌ ... وإنما أنت قلبُه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعنى به طول نهارك ، إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت ! فلما كان من الغد قال لى ـ رحمه الله : أعلمت ما صنع عصام أمس ؟ قلت : لا ، قال : كان كما قالوا فى المثل : « سكت ألفاً . . . » ، لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملةً فقال :

سَبَى فؤادى خشف ... فقوتى اليوم ضعفُ
سموه فتحاً مجازاً ... وفى الحقيقة حتفُ !

مازاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت أنا : هذا والله أحسن من شعرى ! فتغير لى وقال : يابنى ، دع عنك هذه العادة ، فإن أسوأ ما تخلَّق به الإنسان : الملق وتزيين الباطل ،

سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب ، واللـه إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء ، وإلا فقد اختل ميزُك وساء اختيارك ، وما أظن هذا هكذا .

وسمعته ـ من شدة إنصافه رحمه الله ـ يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا على بن خروف رحمه الله ، وذلك أن الأستاذ ـ رحمه الله وعفا عنه ـ كان يلقب بالوزغى ، وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب بالغرنوق ـ وهو اسم عندهم للكركى ، والفصيح فيه غرنيق ـ فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ، وذلك خلقٌ قد أعاذه الله منه ونزهه بفضله عنه ، فقال ابن خروف فى ذلك ، سامحه الله :

أحقًا سامٌ أبرص ماسمعنا — بأنك قد تعشقت ابن ماء

وكيف وأنت فى الحيطان تمشى — وذاك يطيرُ فى جو السماء !

فأبعده الأستاذ ـ رحمه الله ـ وأنهى خبره إلى القاضى أبى الوليد ابن رشد ، فأوجعه ضربًا ، وامتنع الأستاذ من قراء ته عليه ، فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه ، وأبعده عن مريع جنابه ، وولاَّه الأستاذ خطته ، وألقى حبله على غاربه ، فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شىء من العلم ، وإنما كان يعتمد فيما يأتى به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى مالا حاجة لنا بأكثره ، رغبة فى تنشيط الطالب وإيثارًا للأحماض ، ولنرجع ـ الآن ـ إلى ماقطعنا :

اليهود فى عهد أبى يوسف

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ، فشاع هذا الزى فى جميع

يهود المغرب ، ولم يزالوا كـذلك بقية أيامـه وصدرًا من أيام ابنـه أبى عبـد الله ، إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل ما يظنون أن شفاعته تنفعهم ، فأمر أبـو عبد الله بلبسان ثيـاب صفر وعمائم صفر ، فهم على هذا الـزى إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزى وتمييزه إياهم به ، شكه فى إسلامهم ، وكان يقول : لـو صح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر الأمور ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمرهم .

ولم تنعقـد عندنـا ذمةٌ ليهـودى ولانصرانى منـذ قام أمـر المصـامدة ، ولا فى جميع بـلاد المسلمين بالمغرب بيعـةٌ ولا كنيسة ، إنما اليهود عندنـا يظهرون الإسلام ويصلون فى المسـاجد ويُقْرِءون أولادهـم القرآن ، جـارين على ملتنا وسـنتنا والله أعـلم بما تُكن صـدورهم وتحويه بيوتهم .

محنة أبى الوليد بن رشد

وفى أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشـد ـ المتقدم الذكر ـ محنة شديدة وكان لها سببـان جلىٌّ وخفى ، فأما سببها الخفى وهـو أكبر أسبابها ، فإن الحكم أبا الـوليد ـ رحمه الله ـ أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطـاليس صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه مارآه لائقًـا به ، فقال فى هذا الكتـاب عند ذكره الـزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ : « وقـد رأيتهـا عند ملك البربـر . . . » جـارياً فى ذلـك على طريقـة العلماء فى الإخبار عن ملـوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى مايتعـاطاه خَدمةُ الملـوك ومتحيلوا الكتَّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ، فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفى الجملة فإنها كانت من أبى الوليد غفلة ، فقد قال القائل : « رحم الله من عرف زمانه فهانَه ، وميز مكانه فكانَه ! » وما أحسن ماقال الأول :

وأنـزلني طـول النـوى دارَ غُـربـةٍ　　إذا شئت لاقيت الـــذى لا أُشــاكلــه

فحـــامقتـــه حتى يُقـــال سجيــةٌ　　ولـــو كـان ذا عقلٍ لكنـت أعـاقلــه !

واستمر الأمـر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ، ثم إن قومًـا ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا إلى ذلك طـريقاً ، بأن أخـذوا بعض تلك التلاخيـص التى كان يكتبهـا ، فوجـدوا فيها بخطـه حاكيًا عن بعض قدماء الفلاسفة بعـد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزُّهرة أحد الآلهة . . . » فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمـدينة قـرطبة ، فلما حضر أبـو الوليـد ـ رحمه الله ـ قال لـه بعد أن نبـذ إليه الأوراق : أخطك هـذا ؟ فأنكـــر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كـاتب هذا الخط ! وأمـر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ، وكتبت عنه الكتب إلى البـلاد بالتقدم إلى الناس فى تـرك هذه العلوم جملة واحـدة ، وبإحراق كتب الفلسفـة كلها ، إلا مـا كـان من الطب والحساب ومـايتـوصل به من علم النجـوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمتِ القبلـة ، فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعمل بمقتضاها .

ثم لما رجع إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد ـ رحمه الله ـ إلى مراكش ، فمرض بها مـرضه الذى مات منه ، رحمه الله ، وكانت وفـاته بها فى آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين ، رحمه الله .

ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعـد هذا التاريخ بيسير ، وكانت وفاته ـ كما ذكرنا ـ فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ .

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد ابن أبى يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه أم ولدٍ اسمها زهر ، رومية ، بويع له بعهد أبيه إليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه ، وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهرا ، وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦ ، ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفًا بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر فى التاريخ المذكور ، وسنه يوم بويع له البيعة الكبرى العامة ، سبع عشرة سنة وأشهر ، وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهرا .

صفاته

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين ، أسِيل الخدين ، حسن القامة ، كثير الإطراق ، شديد الصمت بعيد الغَور ـ كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ـ حليمًا ، شجاعًا ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه جدًّا ، إلا أنه كان يُبخِّل أولاده .

أولاده

كان قليل الولد جدا، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولى عهده ، ويحيى ، وإسحاق ، توفى يحيى فى حياته بإشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغنى عن جماعة من الحشم أنه كان رشح يحيى لولاية العهد ، وله بنات .

وزراؤه

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجَّان ، وزير أبيه .

ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبى يوسف . . .

صلة المؤلف بإبراهيم ابن أبى يوسف

وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر ولو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ، كان لى ـ رحمه الله ـ محبًّا وبى حفيًّا ، وصلت إلىّ منه أموال وخِلع جمةٌ غير مرة ، لم أعرفه أيام وزرائه ، لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام ، وإنما كانت معرفتى إياه حين ولوه إشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، من جهة رجل من أصحابنا من الكُتاب اسمه محمد بن الفضل ـ جازاه الله عنى خيراً ـ هو الذى أوصلنى إليه ، أنشدته أول يومٍ لقيته قصيدةً مدحته بها ، أولها :

لكمو على هذا الورى التقديم ... وعليهمو التفويض والتسليمُ

الله أعلاكم وأعلى أمره ... بكمو وأنفُ الحاسدين رغيمُ

أحييتمو المنصور فهو كأنه ... لم تفتقدهُ معالمٌ وعُلومُ

ومحابرٌ ومنابرٌ ومحارب ... وحمِىً يُحاط وأرمل ويتيمُ

إلى أن أقول فيها فى ذكر ولايته إشبيلية :

فكأنما حمصُ جمالاً سارة ... وكأن إبراهيم إبراهيمُ

وأرى طُليطلةً كهاجر إثرها ... سيزُفها الأدفنش وهو دميمُ

أقول فيها :

يذرُ الصليب صغيره وكبيره ... فيها جُذاذاً والعلوج جُثومُ

ويُحرّق الأعداء فيما أضرمت ... ويجوب نار الحرب وهى جحيمُ

ولم يبق على خاطرى منها لتقـــادم عهدها وقلـة اعتنائى بها سوى هـذه الأبيات التى أوردتها ، فاستحسنها ـ رحمه الله ـــ وبالغ فى الثناء عليها ، تفضلا منـه وسؤدداً ، وجرياً على سنن الأجواد ، هذا مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها .

ثم علت حالى عنده بعد ذلك ـ نضر الله وجهـه ـ إلى أن كان يقول لى فى أكثر الأوقات : والله إنى لأشتاقك إذا غبتَ عنى أشـد الشوق وأصدقه ! ثم لم تزل حـالى معه على هذا إلى أن فارقته ـ رحمه الله ـ وهو والٍ على إشبيلية ولايته الثانية .

وكان توديعى إياه ـــ قدس الله روحه ـ آخر يـوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ، ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ .

لم أر فى العـــلماء بعـــلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر ، كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية .

***

ثم عزله أبوه أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن على ابن أبى عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه ، وكناه أبا يحيى ، فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وكان يحضه على فعل الخير بجهده ، ونشر العـدل حسب طاقته ، والإحسان إلى الرعية والأجنـاد ، رأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعـة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبًا منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع .

أولية الوزير أبى سعيد ابن جامع

كان إبـراهيم بن جـامع جد هـذا الوزير مـن جملة أصحاب ابـن تومرت ، صحبـه من مـراكش ، وكان أصلـه من الأندلس ، آبـاؤه من أهل مدينـة طليطلة ، ونشأ هـو ـ أعنـى

إبراهيم ــ بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم ، بضيعة تسمى روطة ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة كل سنة ، ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة ، وكان يحاول صنعة النحاس ، فتعرف بابن تومرت ، فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم ، وولد له أولادٌ نالوا فى الدولة حظوة وجاهًا متسعًا ، فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكره ، وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبد الله ، كان يتولى فى إمارة أبى يعقوب مدينة سبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول فى جميع بلادهم ، فلم يزل كذلك إلى أن مات ـ ظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله ! ـ وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمان الوزير هذا المذكور ، ويحيى ، وبنات .

فاستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، ووزر بعده لابنه أبى يعقوب إلى حين ارتحلت من البلاد ـ وهو سنة ٦١٤ ـ ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتى ذكره بعد هذا ــ إن شاء الله عز وجل .

حُجَّابه

ريحان الخصى ، ويدعى ريحان بِيَنْك ، حجبه ريحان هذا إلى أن مات .

ثم حجبه بعده مبشر الخصى ، يدعى مبشر وَلِدِى ، فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

كُتَّابه

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر فى كتاب أبيه .

وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه فى كتاب عبد المؤمن وأبى يعقوب .

وأبو عبد الله محمد بن يَخْلُفتن بن أحمد الفازازى ، ذكره الله فيمن عنده ، وقرّب مطالعتى تلك الغرة الميمونة ، وسماعى تلك الألفاظ الحلوة ، واستمتاعى بتلك الشمائل الشريفة ، فما أشد شوقى إلى تقبيل يديه !

هؤلاء كتبة الإنشاء .

وكتاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المُرانى (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس .

ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قضاته

أبو القاسم أحمد [بن محمد] بن بَقِيّ قاضى أبيه .

ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله ، فلم يزل قاضيًا إلى أن مات .

وولى بعده رجلاً من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر ، يدعى أنه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ، كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف ، ولم يزل هذا دأبه ولا برح معروفًا به ، وكان له ـ مع هذا ـ حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشىء من الخلافة ، اتصل بأمير المؤمنين أبى يوسف شهور سنة ٥٨٧ ، فحظى عنده وكانت له منزلة ، سمعت أبا عبد الله الحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته :

جملةُ ما وصل إلىّ من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته إلى أن مات ، تسعة عشر ألف دينار ، خارجا عن الخلع والمراكب والأقطاع .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيًا إلى أن مات بالأندلس فى شهور سنة ٦٠٨ ، وكانت ولايته فى شهور سنة ٦٠١ .

ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمـران ، كان أبوه من قضاة أبى يعقوب ، فاستمرت ولاية أبى عمران هذا إلى هذا الوقت ـــ وهو سنة ٦٢١ ـ لم يبلغنى عزله ولا وفاته ، وأبـو عمران هـذا لى صديق ، لم أر صـديقًا لم تغيره الـولاية غيره ، ولم يـزل يعاملنى بما كـان يعاملنى بـه قبل ذلك ، لم ينقصنى شيئًا من بره ، مـا لقيته قط فى مركبـه إلا سلم علىَّ مبتدئاً وجدد لى بِرا ، جزاه الله عنى أفضل الجزاء ، وعم بذلك سائر إخوانى !

أعمال أبى عبد الله ابن أبى يوسف

ولما تمت بيعة أبى عبد الله العامـة كما ذكرنا ـ وكان الذى تولاها وقام بأمـرها من القرابة : أبو زيد عبد الـرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام ببيعـة أبيه ، ومن الموحـــدين : أبو زيد عبـد الرحمن بن موسى وزير أبيـه ، وأبو محمد عبد الـواحد ابن الشيخ أبى حفص ، وهـو الذى ولاه محمـد بعد هـذا أمر إفـريقية ـــ كان أول شىء شرع فيـه تجهيز الجيـــوش إلى إفريقية ، وذلك أن يحيى بن إسحاق بـن غانية المتقدم الذكر ، كان استـولى على أكثر بلادها أيام اشتغـال الموحدون عنه بغـزو الروم ، فأول جيش جهـز [أبو عبد اللـه] من الموحدين ، الجيش الذى استعمل عليـه السيد أبـا الحسن على بن عمر بن عبـد المؤمن ، لم أر لهم جيشًا أضخم منه ولا أكثر منه سلاحًا ولا أحسن عدة ، وكـان فيه أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافـرة ، فسـار أبـو الحسن هـذا بجيشه المذكـور حتى التقـى هو والميرقيـون فيما بين بجـايـة وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة ، فانهزم الموحدون أصحاب أبى الحسن المذكور ، ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجهز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله ، وأمَّـر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن ابن موسى الوزير ، فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب .

دخول الموحدين جزيرة ميورقة

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبـد الله على إفريقيـة وأعمالهـا ، السـيد الأجل أبـا زيد عبد الـرحمن بن عبد المؤمن ، وخـرج هو فى سنة ٥٩٧ إلى تينمل لـزيارة قبر أبيـه أبى يوسف

وزيارة ضريح آبـائه وابن تومرت ، ثـم رجع إلى مراكش ، وأقام إلى أول سنـة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد إفريقية ـ هذا بعد أن بلغه أن الميرقى استولى على مدينـة تونس وقبض على الوالى عليها عبـد الرحمن ـ فأقام بفـاس ثلاثة أشهر وأيـامًا ، وبدا لـه أن يبعث بعثاً إلى جزيـرة ميرقة ، ليستأصل شأفة بنى غـانية ويقطع دابرهم ، فعمـر الأسطول والطـرائد فيها الخيل والرجـال ، واستعمل على الأسطول عمـه أبا العلاء إدريس بن يـوسف بن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبـا سعيد عثمان ابن أبى حفص من أشياخ الموحدين ، فقصد الجزيرة هذان الرجـلان ففتحاها عنوة وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها ، وكان الذى قتله رجل مـن الأكراد يقال له عمر المقدم ، وذلك أنه حين نازله القوم خـرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبت به فرسـه ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات ، وقيل : إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخـولها ميرقة وقتلهما أميرها المذكور فى شهـر ذى الحجة من سنة ٥٩٩ ، فـانتهبا أمواله ، وسبيا حرمه ، ودخلا بهم مـدينة مراكش على الجمال فى هيئة الأسارى ، فأما النساء فدخلن بهن ليلا فجعلن فى بعض الخانات إلى أن نفذ الأمـر بالمن عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتـاج إلى التزويج منهن وتجهيـزهـا بمال ، وأما الـرجـال فلم يزالـوا فى الحبس إلى أن مَنَّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتُّخذوا أجناداً فهـم كذلك إلى اليوم .

وبلغنى أن المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة .

ثم رجع أمير المؤمنين أبـو عبد الله إلى مـراكش ، وبها اتصل بـه خبر فتح ميرقة ، وكـان رجوعه إلى مراكش فى ذى القعدة من السنة المذكورة .

عبد الرحمن الجزولى الثائر

وقد كان قبل هـذا فى سنة ٩٧ ، قام بسوس رجل من جزولة اسمـه عبد الرحمن ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم « ابن الجزارة » ، فدعـا إلى نفسه ، واجتمع إليه خلق كثير ، واشتد

خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفى كل ذلك يهزمهم ، إلى أن بعثوا بعثًا من الموحدين والغُزّ وأصناف الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التى كان فيها ، وقالوا إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ، ومسامحتكم إياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحدًا ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية ، والتقوا هم وأصحاب عبد الرحمن المذكور ـ وكان يدعى أبا قصبة ـ فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراكش ، فكتب إلىّ بعض إخوانى ، وهو إذ ذاك صبى صغير كان مع أبيه بسوس ـ وكان أبوه من العمال ، من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية ـ يخبرنى بهذا الفتح قبل وصوله إلىّ من جهة كتاب الموحدين المتولين له ، رسالة أولها :

« كُتِبَ من منزل سوس وقد تبلج فجر الفتح فأسفر، وقال فريق الضلال وشيعته أين المفر ؟ وقد ألقى النصر جرانه ، وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه ، وشرح الحال على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال فى إنهاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصرهم الموحدون ـ أنجدهم الله ـ أشد الحصار ، وقطعوا عنهم مواد المعايش وزرافات الأنصار ، ولسان التأييد يتلو علينا بالعشى والإشراق : « **ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق** »[1] ، ولحين ما أخذ الموحدون ـ أنجدهم الله ـ فى حسم دائهم العُضال ، وجردوا لهم من عزماتهم الصادقة ماهو أمضى من النصال ، طاحوا مجدلين بالحضيض ، وملأ جثمانهم الفضاء العريض ، وخيب الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيرهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى بهم ، « **ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** »[2] ، وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعو بأبى قصبة ، فقهره الحزب المنصور وغلبه ، وحز الحسام منه قنة ورقبة . . . » .

***

---

(١) سورة صٓ : الآية : ١٥ : مكية .
(٢) سورة محمد : الآية : ٢٨ : مدنية .

إنما أوردت هذه الـرسالة هـاهنا لغرابـة شأن من وردت عليّ منه ، وذلك أنـه كان حين كتب بها إلى لم يحتلم بعد !

فتح جزيرة منرقة

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتح جزيـرة ميرقة ، كان فيها من أصحاب ابن غانيـة رجل اسمه الزبير بن نجاح ، دخلـوها عليه فقتلـوه ووجهوا برأسه إلى مـراكش ، فهو معلق بها مع رأس أبى قصبة المذكور .

محاربة يحيى بن غانية بإفريقية

ولما كانت سنـة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبـو عبد الله فى جيـوش عظيمة وقصـد بلاد إفريقية ، وقد كان الميرقى يحيى بن غانية قـد استولى عليها ، خلا قسطنطينة وبجاية ، هيأ له ذلك غفلة الموحـــدين عنه ، واشتغال أمير المؤمنين أبى يوسف بغزو الـروم بالأنـــدلس على ما قدمناه .

فسار أبـو عبد اللـه حتى نزل بـلاد إفريقيـة ، فما استعصى عليه بلـد من بلادهـا خلا المهـدية ، مهـدية بنى عبيـد ، فإنه أقـام عليها أربعـة أشهر قبل أن دخلهـا ، أوجب ذلك ماقدمنا من شدة منعتها ـ وكـان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحًّا ، أبا الحسن على بن عبد اللـه بن محمـــد بن غانيـة ـ فلما طال عليـه الحصار سلم البلد وخرج بنفسـه يقصد ابن عمه ، ثم بـدا له أن يـرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهـم فتلقوه أحسن لقاء ، ووصلـوه من الصلات النفيسة بما لا قيمة له ، ولا يصل بمثله إلا الخلفاء ، وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى ابن غانية ، سير بن إسحاق بن محمد ، فأكرموا نُزُوله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملأُوا يديه أموالاً .

ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيماً بإفريقية يصلح ما أفسده ابن غانيـة إلى أن تم له ما أراد من ذلك ، وبلغنى أن جملة ما أنفق فى هذه السفرة مائة وعشرون حِملا ذهبا .

ثم رجع إلى مراكش دار الملك ، بعـد أن ترك بأفريقية من الموحديـن وأصناف الجند من يقوم بحمايتهـا ويذود عنهـا من رامها ، واستعمل عليـه من أشياخ الموحـدين أبا محمـد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر إينتى فأقام بمراكش .

انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة

وكـان رجوعـه إليها فى شهـور سنة ٦٠٤ ، فأقـام بها ـ كما ذُكـر ـ إلى أول سنـة ٦٠٧ ، فانتقض مابينه وبين الأدفنش ـ لعنه الله ـ من المهادنة ، وبدا له أن يقصد بلاد الروم للغزو ، فخرج بـالجيوش حتى عبر البحـر ، وكان عبوره فى شهـر ذى القعدة من سنـة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل إشبيلية قبله ، فأقام بها بقية السنة المذكورة .

فتح شلبتره

وتحرك فى أول سنة ٨ فقصد بـلاد الروم ، فنزل غايـة المنعة تدعى شلبتره ــ معناه بلسان العـرب : الأرض البيضاء ، إلا أن فيـه تقديماً وتأخيراً ، كما جرت العادة فى لسـان العجم ـ ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ، وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أيامًا يسيرة ثم تركها شفقـة على المسلمين وخوفًا عليهم ، فراع فتح هذه القلعة الـروم ، وخامرهم الرعب ، وخرج الأدفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصيـة بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسـانهم وذوى النجدة منهم ، فـاجتمعت له جموع عظيمـة من الجزيرة نفسهـا ومن السام حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى .

أشهر الإمارات الإسبانية فى ذلك العهد

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعة ملوك من الروم : إحدى الجهات تسمى أرغون - وهى التى ذكرنا - وهى شرقى الجزيرة مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى - وهى المملكة الكبرى - بلاد تسمى بلاد قشتال ، يملكها الأدفنش - لعنه الله - وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ، أميل إلى الجنوب قليلا .

والجهة الأخرى تسمى ليون ، فهو أول الحد الشمالى المغربى ، يملكها رجل يدعى بالببوج ، ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير اللُّعاب !

والجهة الأخرى فى الشمال مما يلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب .

والجزيرة بأسرها ، أعنى جزيرة الأندلس ، تسمى فى قديم الدهر عند الروم جزيرة أشانية .

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبى عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة ، وخرج من إشبيلية فى أول سنة ٦٠٩ ، فسار حتى نزل مدينة جيان ، فأقام بها ينظر فى أمره ويعبىء عساكره وخرج الأدفنش - لعنه الله - من مدينة طليطلة فى جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح - وهى كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف فى الواقعة الكبرى - فسلمها إليه المسلمون الذين بها ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش - لعنه الله - بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ! مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه !

وقعة العقاب وهزيمة المسلمين

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيان ، فالتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعقاب ، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم ، فعبأ الأدفنش جيوشه ورتب أصحابه ، ودهم المسلمين وهم على غير أهبة ، فانهزموا ، وقُتل من الموحدين خلق كثير .

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين ، وذلك أنهم كانوا على عهد أبى يوسف يعقوب يأخذون العطاء فى كل أربعة أشهر ، ولا يخل ذلك من أمرهم ، فأبطأ فى مدة أبى عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصًا فى هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ، وخرجوا وهم كارهون. فبلغنى عن جماعة منهم أنهم لم يسلوا سيفًا ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنجة عليهم قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا فى ذلك اليوم ثباتًا لم يُرَ لملك قبله ، ولولا ثباته هذا لاستؤصِلت تلك الجموع كلها قتلا وأسراً !

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراكش . . .

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الاثنين منتصف صفر الكائن فى سنة ٦٠٩ .

وفصل الأدفنش ـ لعنه الله ـ عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالاً وأمتعة من متاع المسلمين ، فقصد مدينتى بياسة وأُبذة ، فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية ، فحرق دورها وخرب مسجدها الأعظم ، ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وفصل أصحابه من السبى من النساء والصبيان بما ملأوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ! .

وفاة الناصر محمد

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمراكش بقية سنة ٩ وأشهراً من سنة ١٠ إلى أن توفى فى شهر شعبان كما قدمنا ، واختلف علينا فى سبب وفاته فأصح ما بلغنى أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ، فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، صلى عليه خاصة الحشم ! .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه أم ولد رومية اسمها قمر ، تلقب حكيمة ، كانت ولادته فى صدر شوال من سنة ٥٩٤ ، قبل وفاة جده أبى يوسف بأربعة أشهر .

بويع له وسنه يومئذ ست عشرة سنة ، لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ، ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بويع له ـ وذلك لأحد عشر يومًا خلت من شعبان من سنة ٦١٠ ـ إلى أن توفى كما ذكر فى التاريخ المذكور ، عشرة أعوام وشهرين .

صفته

كان صافى السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكَحَل ، يشبهونه بجده أبى يوسف فى أكثر خَلْقِه وخُلُقِه .

وزراؤه

أبو سعيد ـ المتقدم الذكر ـ وزير أبيه ، استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .

ثم عزله وولى بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى ابن أبى إبراهيم إسماعيل الهزرجى صاحب ابن تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن ، كما تقدم .

أم هذا الوزير هى بنت أبى يوسف المنصور ، فهو وزيره إلى أن توفى ، كما ذكر .

حجابه

مبشر الخصى حاجب أبيه .

ثم حجبه بعده فارح الخصى ، يكنى أبا السرور ، فلم يزل حاجباً له إلى أن توفى ، كما قيل .

قاضيه

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفى كما قيل .

كُتَّابه

أبو عبد الله ابن عياش كاتب أبيه وجده .

وأبو الحسنا بن عياش .

ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية فى شهور سنة ٦١٩ ، وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يخلفُتَن الفازازى المتقدم الذكر فى كتاب أمير المؤمنين أبى عبد الله ، وكان قاضياً بمدينة مرسية من شرقى الأندلس ، وبها فارقته فأعادوه إلى الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره فى كُتّاب ثلاثة أمراء منهم وكاتب الجيش أحمد بن منيع ، لم يتغير .

بيعتـــه

بويع لأبى يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدرى أبعهد أبيه إليه أم لا ؛ لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه ، لما كان يسمع من سوء أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ـ عم جده الذى دخل عليه الميرقيون بجاية ، وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغنى وفاته إلى وقتنا هذا ـ وأبو زكريا يحيى ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ، ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى يزيد الهنتاتى ـ كان أبوه أول وزير وزر لأبى يوسف ، وقد ذُكر ـ وأبو على عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينمل .

وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة ، وفى يوم السبت أذن للناس عامة ، شهدت ذلك اليوم ، وأبو عبد الله ابن عياش الكاتب قائم يقول للناس :

« تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ رسولَ الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ولكم ، عليه : ألا يُجمر بعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطائكم ، وألا يحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلد من أموركم » .

يعيد هذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة ، ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

فاطمى من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يدعى أنه من بنى عُبيد ويقول : إنه ولد العاضد لصلبه ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام كونه بإشبيلية ، ورام الاجتماع به فلم يأذن له ، وأقام بالبلاد مطرحًا إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله فى شهور سنة ٥٩٦ ، فلم يزل فى الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين إلى إفريقية ، شفع له فيه أبو زكريا يحيى ابن أبى إبراهيم الهزرجى ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك فى أمر يكرهونه ، فلم يقم هذا العبيدى بمراكش إلا أيامًا يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبى عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة ، فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ، لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين فلم أر فى أكثر من شهدته من المشبَّهين بالصالحين مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة ، ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة أمير المؤمنين أبى عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه متواليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدى المذكور وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عود ، ولم يزل ينتقل فى قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفى ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ، أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ، إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس ، لم يبلغنى تفصيل قضية القبض عليه ، وكتب إلى أمير المؤمنين متولى فاس أبو إبراهيم إسحاق ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده فى سجنه ، فكتب إليه يأمره بقتله وصلبه ، فضرب عنقه وصُلب جسده ووُجه برأسه إلى مراكش فهو معلق هناك مع عدة رءوس من الثوار والمتغلبين .

ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئًا من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن

كان قبله ، خلا أنى رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملىء قلبه منه رعبًا ، لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه ، لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت ـ من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك ـ ماقضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع .

ثائران آخران على أبى يعقوب الثانى

وثار فى أيام يوسف هذا ـ بعد قتل العبيدى ـ رجلان : أحدهما ببلاد جزولة من سوس ، كان يدعى بالفاطمى ، قُتل وجىء برأسه إلى مراكش فى شهور سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس ، لم يبلغنى تفصيل أمره لبعدى عن الحضرة ، غير أنى رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله ، والآخر من صنهاجة ، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيما بلغنى وهزم بعوثاً عدة واستفسد خلقًا كثيرًا ، بلغنى هذا كله وأنا بالبلاد المصرية فى التاريخ المتقدم ، وكان الذى تولى قتل هذا الرجل والإراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه ، السيد الأجل أبا محمد عبد العزيز ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن عبد المؤمن بن على ، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها .

وفاة أبى يعقوب الثانى

ثم اتصل بى فى هذه السنة ـ وهى سنة ٦٢١ ـ أن أبا يعقوب أمير المؤمنين توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغنى كيفية وفاته ، فاضطرب الأمر واشرأبّ الناس للخلاف .

ولاية أبى محمد عبد العزيز ابن أبى يعقوب الأول

ثم ذكر لى أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز

ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين محمد عبد المؤمن بن على ، رحمهما الله ونضر وجههما وجزاهما خيرًا عن صلاحهما ، وإصلاحهما ! وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبى يعقوب ، أمه حرة اسمها مريم ، صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه ، وكانت سُبِيت هى وأمها ملكة فيمن سُبُوا من أهل القلعة ، فأعتقهما أبو محمد عبد المؤمن ، وزوج مريم هذه لابنه أبى يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد : أربعة ذكور، وأربعة بنات ، فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبد العزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ، توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت ، قتله العرب أصحاب الميرقى فى شهور سنة ٦٠٥ ، وتوفى إبراهيم منهم بإشبيلية وأنابها فى شهور سنة ٦١٢ ، وتوفى أبو العلاء إدريس منهم بإفريقية كما سيأتى ، والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعلية .

لم يتولَّ أبو محمد عبد العزيز هذا شيئًا من أمرهم فى حياة أبيه ، ولا فى حياة أخيه أبى يوسف ، فلما ولى أبو عبد الله الأمر ، ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس ، وذلك فى شهور سنة ٥٩٨ ، ثم عزله عنها فى شهور سنة ٦٠٣ وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فلم يزل واليًا عليها إلى أن عزله عنها وولاه أمر سجلماسة ، فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة ابنه أبى يعقوب ، إلى أن قتل هذا الثائر المتقدم الذكر فى ولاية أبى يعقوب ابن أبى عبد الله ، فعزله أبى يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر إفريقية فلم يزل أبو العلاء إدريس واليًا بإفريقية إلى أن مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغنى ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبى محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما ، قالوا ، ولئن كان ماقالوا حقا وتم هذا الأمر له ، ليملأنها خيرًا وعدلاً ، ولتزكون الأرض وتخرج بركاتها ، ولترسلن السماء مدرارها ، بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميد سريرته ، هذا إذا ساعده الدهر وقيض الله له أعوانا صالحين ، فإنه ـ ماعلمت ـ صوام قوام ، مجتهد فى دينه ،

شديد البصيرة فى أمره ، قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، أرطب الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ، شهدته والولاية قد اكتنفته ، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو فى ذلك لا يُخل بشيء من أوراده ، ولا يترك وظيفة من الوظائف التى رتبها على نفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن ، وأذكارٍ رتبها على أوقات الليل والنهار ، شهدت هذا كله منه بنفسى ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ، هذا مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيراً من المسلمين أو ظنه مُضافا إلى سخاء نفس وطلاقة وجه .

وصـــفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جدًا ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، وله من الولد ـ على علمى ـ ثلاثة : محمد وهو أكبرهم ، وعبد الرحمن ، وأحمد ، وبنات .

***

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم ـ وهو سنة ٥١٥ ـ إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ فذلك مائة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .

وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه ، وتجشم الضرورة من عُنِىَ بالأخبار إلى معرفته ، من غير تعرض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولاد أولاده ، وأولاد وأولاد أولاده ، وتفاصيل أخبارهم فى ولايتهم وعَزْلهم وأمهاتهم وكُتابهم وحُجابهم ووزرائهم ، إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة ، هذا على أنّا لو كُفينا ضرورات المعاش ، وأُعفينا من كد الزمان ، لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة .

ولم أثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعًا من ثقةٍ عدل ، أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحريت الصدق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ، وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

***

جامع سيرة المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم فى طعنهم و إقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدى محمد بن تومرت ، عشرة أنفس ، وهم المسمَّون بالجماعة ، أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح ، ثم عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين ، ثم عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، ثم فصكة بن وَمزَّال ، وسماه ابن تومرت عمر ، وكناه أبا حفص ، انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير ، وكان له عدة من الولد ، منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد ـ أم محمدٍ هذا ابنة عبد المؤمن ـ ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبد الواحد ، كان عبد الواحد هذا يتولى أمر إفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله سنة ٦٠٣ ، فلم يزل واليًا عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

وكان ابن تومرت يسمَّى فصكة هذا : المبارك ، ويقول : لايزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إينتّى ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ، ولم يبق فى وقتنا هذا من ولده لصُلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان ، فارقته بمدينة مرسية ، وبها ودعته حين ارتحلت إلى هذه البلاد ، وقد ولوه مدينة جيان وأعمالها ، هذا آخر عهدى به ، ثم اتصل بى بديار مصر أنهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدرى أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندى من جملة إخوانى ، رضى الله عنه وعنَّا وعن جميع المسلمين .

. . . ثم يوسف بن سليمان ، وأخوه عبد الله بن سليمان ، وهما من أهل تينمل ، من قبيلة تدعى مسكالة حسبما تقدم ، ثم أبو عمران موسى بن على الضرير ، صهر عبد المؤمن ، كان ضرير البصر ، كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها ، ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجى ـ وهو الذى أسلم نفسه للقتل وفدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم ـ ثم

رجل من أهل تينمل ، يعرف عندهم بابن بيجيت ـ أنا شاكٌّ فى اسمه ـ ثم أيوب الجدميوى ، وهو الذى تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين فى أول الأمر .

فهؤلاء العشيرة المسمَّون بالجماعة ، وبعض الناس يعد فيهم أبا محمد وأسنار ، وهو رجل دبّاغ أسود من أهل مدينة أغمات ، صحب أبا عبد الله ابن تومرت حين مرّ فاختصه أبو عبد الله ابن تومرت لخدمته ، لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه ، فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابن تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك ، توفى وأسنار هذا فى صدر دولة أبى يعقوب بعد أن علت سنه ، وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين ، لم يكتسب شيئًا ولا خلف ديناراً ولا درهمًا ، مع أنه لو شاء لكان أكثر الناس مالاً ، لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمين بالجماعة ، خلق من قبائلهم ، فعدوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض فى العرض العام ، ولد عمر بن عبد الله الصنهاجى ، ثم فرس عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائر أهل الجماعة على طبقاتهم من سبقٍ وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلق كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم . . وهم الجند والأعوان والأنصار ، ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم ـ سبع قبائل ، أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهى قبيلة تسمى هرغة ، وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين ، ثم قبيلة عبد المؤمن ، تسمى كومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب ، لم

يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر فى رياسة ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ، فتبارك المعز المذل المعطى المانع ! فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ، ولا تطاول أيديهم يدٌ بكون عبد المؤمن منهم ، هذا على أنه ـ كما قدمناه ـ ينتسب إلى غيرهم ، ثم أهل تينمل ، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ، ثم هنتاتة ، وهى أيضا قبيلة ضخمة جدا ، وفى بعضها رياسة وشرف فى الدهر القديم ، ثم جنفيسة ، وهى قبيلة عزيزة منيعة ، ولغتها أجود اللغات وأفصحها فى ذلك اللسان ، ثم جدميوه ، وليست كلها ـ بل بعضها ـ رعية ، ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ، ثم بعض قبائل هسكورة .

فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون فى البعوث ، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية .

وإذ قد جرى ذكرهم ـ أعنى المصامدة ـ على هذا النسق ، فلنذكر لك الآن ـ حفظك الله وأصلحك وأصلح بك ـ القبائل التى يجمعها هذا الاسم ، أعنى المصامدة ، وحد بلادهم ، لتعرفهم ممن سواهم من البربر ، فحد بلادهم النهر الأعظم الذى يصب من جبال صنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يُدعى هذا النهر أم ربيع ، عليه قبيلتان ، إحداهما تسمى هسكورة ، وأخرى صنهاجة ، وهما من المصامدة ، وآخر بلادهم الصحراء التى تسكنها قبائل لمتونة ومسوفة وسرطة ، وهؤلاء ليسوا مصامدة ، وقد كانت المملكة فى هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم ، فهذا حد بلاد المصامدة عرضًا ، وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم ، هسكورة ، وصنهاجة ، ودكالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة ، وجنفيسة ، وهنتاتة ، وهرغة ، وقبائل أهل تينمل ، وحول مراكش قبائل منهم أيضًا ، وهم : هزمير ، وهيلانة ، وهزرجة ، يدعونهم الموحدن بالقبائل ، فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ، ثم يجمع الكل جنس البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وماوراء

ذلك ممن ذكرنا ، من لمتونة ومسوفة وسرطة ، وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان .

وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس ، كالعرب والغُزّ ، والأندلس ، والروم ، وقبائل من المرابطين ، وغيرهم .

ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يدعون الجموع ، وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها ، والصنف الآخر يدعون العموم ، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا في النفير الأعظم ، وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد ـ على ماصح عندى تلخيصه ـ عشرة آلاف نفس ، هؤلاء الذين بمراكش خارجًا عما فى سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند .

وإذا كان العرض العام فأول من يعترض ذرية أبى حفص عمر الصنهاجى على طبقاتهم فى أسنانهم ، ثم بعدهم فرس الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل ، وأولهم عرضاً هرغة قبيلة ابن تومرت ، ثم بعدهم أهل تينمل ، ثم كومية ، ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سرعة الهجرة وبُطئها .

وقد جرت عادتهم بالكَتْبِ إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن ، وخاصة أهل علم النظر ، وسموهم طلبة الحضر ، فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلّون ، وصنف آخر ممن عُنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ، ولابد فى كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم ، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم ، فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يُلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه ، كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يُلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء ، يدعون الخليفة ويؤمّن الوزير جهراً يُسمع من بَعُدَ من الناس ، ثم إذا سافروا لايزال القرآن يُقرأ بين أيديهم بالغدو والعشى رُكبانًا ، وإذا نزلوا فأول شىء يصنعونه فى أول النهار بعد صلاتهم الفجر ، أن يخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكل عليه ! » هذه عندهم للركوب ، فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القرابة وأشياخ

الموحدين بين يديه مُشاةً خطوات كبيرة ، ثم يأمرهم بالركوب ، فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه ، فيقرأون حزبًا من القرآن فى نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رفيقًا ، ثم شيئًا من الحديث ، ثم يقرأون تواليف ابن تومرت فى العقائد بلسانهم وباللسان العربى ، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضا وبسط يديه ودعا ، وإذا كان وقت النزول أيضًا نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته ، فإذا بلغها بسط يديه ودعا ، فلا يزال هذا دأبهم فى جميع سفرهم كله .

صفة أحوالهم فى إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم فى جمعهم ، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ، ويخرج معه خواص حشمه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ، فيقرأ قارىء قدر عشر آيات ، حسن القراءة حسن الصوت ، ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التى يتوكأ عليها الخطيب فيقول : « قد فاء الفىء ياسيدنا أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ! » يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الرجل العصا ، فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أَذَّن ثلاثة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم فى نهاية الحسن ، قد انْتُخِبُوا لذلك من البلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأول شىء يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة ، من يُطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ، أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فإنما نحن به وله . . »

ثم يتعوذ و يقرأ سورة «قاف» من أولها إلى آخرها ، ثم يجلس ، فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأ من الحول والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جِدًّا وعزمًا ، وأنفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاءً وصدقًا وحزمًا ، وعلى الإمام المعصوم المهدى المعلوم أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى ، الذى أُيد بالعصمة فكان أمره حتمًا ، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لايدع فيها ظلامًا ولا ظُلمًا ، وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه - رضى الله عنه - فى النسب الكريم ، المجتبى لوراثة مقامه العلى ، الخليفة الإمام أبى محمد عبد المؤمن بن على ، وعلى أبى يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك ، المُحيى سنة رسولك ، الخليفة الإمام أبى يوسف أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، وعلى الخليفة الإمام أبى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين ، اللهم وانصر ولىَّ عهدهم ، الطالع فى أفق سعدهم ، القائم بالأمر من بعدهم ، الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، اللهم كما شددت به عُرى الإسلام ، وجمعت على طاعته قلوب الأنام ، ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ، فاقضِ له بالنصر المقرون بالكمال والتمام ، اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم ، المهتدين بمنارهم ، المقتبسين من أنوارهم ، اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة ، إخوان نبيك ، وطائفة مهديك ، الذين أخبرت عنهم فى صريح وحيك : إنهم لايزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة ، وأمدهم وكافة من انتظم فى سلكهم من أنصار الدين ، وحزبك الموحدين ، بمواد النصر والتمكين ، والفتح المبين ، واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير ، وأكرم نصير . . . » .

ثم يدعو وينـزل فيصلى ، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمَّن الوزيـر على ماتقدم ، فهذه كليات سيرتهم مجملةً على مـا يقتضيه شرط التقريب ، وفى أثناء ذلك تفـاصيل يطول شرحها وليس بالناظـر فى هذا الكتاب إليها كبير حاجـة ، إذ قد بين له ما يستـدل على مالم يرسم فى هذه الأوراق بها رُسم .

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا ـ أصلحك الله ـ منتهى ما بلغ من أخبـار المغرب وسير ملوكه وزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطـاعة ، وقد تقـدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية ـ أعلى الله رُتبها ـ فما كان من إحسان فإلى تلك الهمة العلية نِسبته وعنها منبعثه ، وما كان من غير ذلك فإغضاؤها يستره ، ومسامحتها تغمره .

وقـد رسم مولانـا ـ حـرس الله مجده ـ أن يُضـاف إلى هذا التصنيف ذكـر أقاليم المغـرب وتعيين مدنـه وتحديد ما بينهـا من المراحل عدداً ، من لـدن برقة إلى سـوس الأقصى ، وذكر جزيرة الأندلس ومايملكه المسلمون من مـدنها على ما تقدم ، فلم يرَ المملوك بُدًّا من الجرى على العادة فى سرعة الإجابـة وامتثال مرسوم الخدمة ، لوجوب ذلك عليه شرعـاً وعرفاً ، هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف ، وداخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع النـاس فيه كتبـاً كثيرة : ككتـاب أبى عبيد البكـرى الأنـدلسى ، وكتاب ابن فيـاض الأندلسى أيضـاً ، وكتاب ابن حـرداذبه الفارسى ، وكتـاب الفرغـانى ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستـوعبة له ، ونحن إن شـاء الله ذاكرون من ذلك ـ مـوافقة لرأى مـولانا العـالى ـ مـا يقف به على حـدود البلاد ويصـور له صـورتها على التقريب من غير تطـويـل ، جارين فى ذلك عــلــى ما ســلـف من عادتنا فى سـائر الكتاب : فنقول وباللـه التوفيـق ومنه الإعانة :

قد تقرر واشتهر أن أول حد البلاد المصرية مما يلى الشام ، العريش ، وآخره مما يلى المغرب ، مدينة أنطابُلس المعروفة ببرقة ، هذا عرض الديار المصرية ، وحدها فى الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومى ، هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن .

أولاً : المدن العامرة على الساحل

وأول حد بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لأهلها ، افتتحها المسلمون فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة ـ أعنى أنطابلس ـ إلى مدينة طرابلس المغرب ، قريب من خمس وعشرين مرحلة .

اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان

وما بين الإسكندرية وطرابُلس المغرب ، خمس وأربعون مرحلة ، وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشى فيها القوافل ليلاً ونهاراً : وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا ، فإذا ظهر فى البحر عدوٌّ نور كل حصن للحصن الذى يليه ، واتصل التنوير ، فينتهى خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب وذلك فى حدود ٤٤٠ ــ حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجى وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبنى العباس ، فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا ، واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم ، فهم اليوم بها ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم .

ومدينة أنطـابلس هذه خراب ، لم يبق منها إلا آثارها ، وفيها بين بـرقة وطرابلس حصن يسمى طُلميثة ، بـالقرب منه معدن كبريت ، فأمـا مدينة طرابلس فلم تـزل معمورة إلى هذا الوقت ، وهى أول مملكة المصامدة ، وقـد استولى عليها فى مدة ملكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم ، المملـوك قراقُش المتقـدم ذكره فى تـرجمة أبى يوسف ، ثم أخـرجه منهـا المصامـدة ، واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثير من إفـريقية حسبما تقدم تلخيصه ، ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهى فى ملكه إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

[بلاد إفريقية الساحلية]

فحد بلاد إفـريقية مما يلى المشرق ، مدينـة أنطابلس المذكورة ، وحدهـا مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسطنطنية الهواء ، سميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعتها ، ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينـة المغرب قريبـة من خمس ، وخمسين مرحلة ، فهـذا حد إفريقيـة طولاً ، وعرضها يختلف بحسب مـزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها ، وسميت إفريقيـة بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها ، وأفريقش هذا هـو أبو البربر ، فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح ، خلا صنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حمير ، هـذا كله قول أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدن ذكر أفريقش إلى ذكر صنهاجة .

فأول مدن إفـريقية المعمورة ، طـرابلس المغرب المتقدم ذكـرها ، ومنها إلى مـدينة تسمى قابس ، عشر مراحل ، وقـابس هذه على ساحل البحر الـرمى وكذلك طرابلس ، وتنصب إلى قابس هـذه أنهار من بعض تلك الجبـال التى تليها ، فهى بـذلك أخصب بلاد إفـريقية وأوسعها فـواكه وأعنـاباً ، ومن قـابس هذه إلى مدينـة صـــغيرة على السـاحـل أيضاً تسمى سفاقس ، أربع مراحل ، ومن سفـاقس إلى مهدية بنى عُبيد ، ثلاث مـراحل ، وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبـار أبى محمد عبد المؤمن بن على ، وبظاهر المهديـة المذكورة وقريب منها

جدا ، مدينـة تدعى زويلة ، بنـاها بنو عبيد حين بنوا المهـدية ، فاختصوا المهـدية لأنفسهم وحشمهم وأعيـان جندهم ووجـوه قوادهم ، وأسكنـوا زويلة هـذه سائر النـاس من الرعيـة والسودان وأراذل كتـامة وغيرهم من أتباعهم ، ولما ارتحل المعز إلى مصر بعـد أن افتتحها على يـدى خادمـه جوهـر ، ارتحلت معه طـائفة كبيرة من أهل زويلـة هذه فإليهم ينسب البـاب والحارة التى بالقاهـرة اليوم ، ومن مهدية بنى عبيـد إلى مدينة تسمى سوسـة ـ وإليها تنسب الثياب السوسية ـ مرحلتان ، ومن سوسة إلى مدينة تـونس ، ثلاث مراحل ، ولم تكن تونس هذه فى قدم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت فى أول الإسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهرى لمصلحة رآها ، وإنما كانت المدينة الكبرى مدينـة على الساحل هناك تسمى قرطاجة بينها وبين تونس نحو من أربع فراسخ .

شأن مدينة قرطاجة فى القديم

وهذه المدينـة ـ أعنى قرطاجـة ـ هى كانـت حاضرة إفريقيـة أيام الروم ، وهى مـدينة عظيمة ، ظهـر فيها من قوتهـم وشدة طاعـة رعيتهم لهم وفرط جبروتهم مـا يعجب منه من تأمله ، ويعتبر فيه من وقف عليه ، وذلك أنهم جلبوا إليها المياه من بعد شديد ، وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أيسرها جميع من فى هذا العصر ، وكانوا يضاهون بها مدينة القسطنطينيـة العظمـى ، المنسـوبـة إلى قسطنطين بـن هيـلان ملك الأفـرنج ، ثم لما افتتح المسلمون إفريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خرَّبوا هذه المدينة المذكورة ، واتخذوا مـدينة القيروان دار ملكهم ومقـر ولاتهم ومجتمع جنـدهم ومـركز جيـوشهم ، وأسسـوا على ساحل البحـر مدينة تونـس المذكورة وكان هناك قبل ذلك ديـر معلَّم عند الروم يـزورونه من أقاصى بلادهـم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً ، سموا المدينة تونس ، باسم الراهب الذى كان فى ذلك الدير ، فما زالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا .

ولما خربـت مدينة القيروان على مـا سيأتى الإيماء إليـه ، صارت مـدينة تونـس حاضرة

إفريقية ومقر ولاتها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها ، وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة ـ ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة ـ ست مراحل ، وفيما بين تونس وبونة بُليدة صغيرة تسمى بنى زرت ، بينها وبين تونس يوم تام فى البر للمُجِدّ (ولبنى زرت ، هذه شأن غريب ، وذلك أنه يخرج فى بحرها كلما طلع هلال ، نوعٌ من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك ، هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلّة ، وهذا منسوب إلى الطلسمات ، اعتنى به من عنى بخدمة القمر) ، ومن مدينة بونة إلى مدينة قسطنطينة التى هى أحد حَدَّى إفريقية ، خمس مراحل ، وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلاً .

هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن إفريقية ، وبها مما يلى الصحراء مدن أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذافرغت مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

بلاد المغرب الساحلية

ومن قسطنطينة المغرب إلى بجاية ، خمس مراحل على الرفق ، وبجاية هذه هى دار ملك بنى حماد الصنهاجيين الذين تنتسب قلعة بنى حماد إليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل .

لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها فى ولاية يحيى منهم ، أبو محمد عبد المؤمن بن على حسبما سبق .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر ـ وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة ـ قريب من أربع مراحل ، وهذه المدينة ـ المعروفة بالجزائر ـ على ساحل البحر الرومى وكذلك مدينة بجاية ، ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تَنَس ، أربع مراحل ، ومن مدينة تنس إلى مدينة وهران ، سبع مراحل ، ومن مدينة وهران إلى مدينة سبتة على التقريب ، ثمان عشرة مرحلة .

ضيق البحر بين المغرب والأندلس

وبساحل سبتة هذه يلتقى البحران ، بحر مانطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقيانس الذى هو البحر الأعظم ، وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلاً ، ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربر إلى موضع يُدعى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتة نصف يوم ، ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف ، مقابلاً لقصر مصمودة المذكور ، فأضيق ما يكون البحر هنالك ، وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلاً ، ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر فى كل وقت من أوقات النهار ، وقد ذكر المؤرخون أن الروم بنت فى قديم الدهر قنطرة على هذا الخليج ، ثم طغت المياه فغطتها ، فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه .

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة ، يوم تام فى البر ، وطنجة هذه آخر الخليج الذى به يلتقى البحران ، وهى على ساحل البحر الأعظم الذى لا عمارة وراءه ، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط ، المتصل ببحر الهند والحبشة ـ وطنجةهذه آخر بلد بالمغرب المحقق ، وما بعدها من البلاد فإنما هو فى الجنوب ، كمدينة سلا ، ،مدينة مراكش ـ ثم لا يزال دائرًا فى الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومى ، ومدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ،

وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ، مسافة ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ، فهذا ذكر المدن التى على ساحل البحر من بلاد المغرب .

ثانياً : البلاد التى ليست على ساحل

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن إفريقية والمغرب ، فنقول :

بلاد إفريقية

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمى قفصة ، ثلاث مراحل ، من مدينة قفصة إلى مدينة تُورَز ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هى حاضرة بلاد الجريد وأُم قُراها ، وبلاد الجريد التى يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسم يسمى قسطيلية ، وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها ، وقسم يسمى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها . ومنْ مدينة توزر إلى مدينة بسكرة أربع مراحل ، وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس ، بينها وبينها مرحلتان ، فهذه المدن التى تلى الصحراء من بلاد إفريقية ، ويتخللها قرى كثيرة لم نذكرها لصغرها .

شأن القيروان فى قديم الزمان

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينة القيروان المشهورة ، منها إلى الساحل ثلاث مراحل ، وهى كانت ـ أعنى القيروان ـ دار ملك المسلمين بإفريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يُولون عليها الأمراء من قبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبد الأغالبة بملك إفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أغلب ابن محمد بن إبراهيم بن

أغلب التميميون ، فاتخذوا القيروان دار ملكهم ، فلم يزالـوا بها إلى أن أخرجهـم عنها بنو عبيد وملكـوها أيام كونهم بأفـريقية ، ثم ولوا عليها حين ارتحلـوا إلى مصر زيرى بن مناد الصنهاجى ، فلم يـزل زيرى وبنوه ملـوكاً عليها ، إلى أن كان آخـرهم الذى أخرجـه العرب عنها ، تميم بن المعـز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيـرى بن مناد المذكور ، فـانتهبتها الأعراب وخربتها ، فهى كذلك خراب إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية .

وكـانت القيروان هذه فى قـديم الزمـان منـذ الفتح إلى أن خربتهـا الأعراب ـــ دار العلم بالمغـرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليهـا كانت رحلة أهلـه فى طلب العلم ، وقد ألّف الناس فى أخبـار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كـان به من الزهاد والصـالحين والفضلاء المتبتلين ، كتباً مشهـورة ، ككتاب أبى محمـد ابن عفيف ، وكتاب ابن زيـادة الله الطبنى ، وغيرهما من الكتب ، فلما استولى عليها الخراب ـ كما ذكرنا ـ تفرق أهلها فى كل وجه ، فمنهم من قصد بـلاد مصر ، ومنهم من قصد صقلية والأنـدلس ، وقصدت منهم طائفـة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها إلى اليوم .

فهذه نبـذة من أخبار إفريقيـة ، وفيها مدن كثيرة قـد خربت لا أعرف أسماءهـا ، لقلة معرفتى بتفـاصيل أحوال إفريقيـة ، لأنى لم أدخل منها إلا مدينـة تونس خاصـة ، أتيتها فى البحر من الأندلس ، وذلك سنة ٦١٤ ، وإنما نقلت مـا نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع .

وفى خـراب القيروان على ما تقـدم يقـول أبو عبـد اللـه محمد ابن أبى سعيـد ابن شرف الجذامى :

تـرى سيئـات القيروان تعـاظمت	**فجلت عن الغفـران واللـه غـافُـر !**
تـراهـا أُصيبت بـالكبـائر وحـدهـا	**ألم تك قـدمـاً فى البـلاد الكبـائر ؟**

بلاد المغرب

. . . فقسطنطينة آخر بلاد إفريقية ، ما يلى البحر منها وما يلى الصحراء ، وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية ، فأول ذلك بليدة صغيرة قبلى بجاية فى البر ، تسمى ميلة ، بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بنى حماد أربع مراحل ، وهى أيضاً ـ أعنى القلعة ـ قبلى بجاية .

طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش

وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية إلى مراكش ، فمن بجاية إلى مدينة تلمسان عشرون مرحلة ، وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ، ومازونة ، ووهران ــ وقد ذكرناها فى بلاد الساحل ــ وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلاً ، وذلك يوم للمُجِد ، ومن مدينة تلمسان إلى مدين فاس عشر مراحل ، سبع منها إلى المدينة التى تدعى رباط تازا ، وثلاث إلى فاس ، وقبلى مدينة تلمسان فى الصحراء ، مدينة سجلماسة ، منها إلى تلمسان عشر مراحل ، وهذه المدينة ــ أعنى سجلماسة ــ متوسطة فى الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواء ، فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

التعريف بمدينة فاس

ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان ـ كما ذكرنا ـ عاث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ،

فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ، وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة ، لأنها خير من مدينة فاس فى شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها ، وما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معايش ، وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، ويتخلّل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها ، وفى داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ـ إلا ما كان من العطر الهندى ـ سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة فى شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً .

***

ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناسة الزيتون ، يوم تام للمُجِدّ ، ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سلا ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وهى فى الجنوب ، كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان ، يصب فى البحر الأعظم المذكور .

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراكش مدينة عظيمة ، سموها رباط الفتح ، كان الذى اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأتمها ابنه يعقوب ، وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدم ذكره ، وقيل : إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ، وذلك أنه قال لهم : « تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر ـ يعنى البحر الأعظم ـ ثم

يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها رباط الفتح ، وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة ، النهر المذكور ، وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر ، فإذا مد عبروا فى القوارب .

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسى المملكة ، تسع مراحل فمراكش آخر المدن بالمغرب ، وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن على ، ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ، ثم زاد فيها بعدهما علىُّ بن يوسف بن تاشفين ، ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت فى نهاية الكبر ، فهى اليوم طولاً وعرضاً قدر أربع فراسخ ـ هذا إذا ضُمت إليها قصور بنى عبد المؤمن ـ وأجرى المصامدة فيها مياهًا كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك ، فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :

ليس فيها ما يقال له كمُلَتْ لو أنه كمُلا

ترجمة المؤلف بقلمه

وبهذه المدينة ـ أعنى مراكش ـ مسقط رأسى ، وهى أول أرض مس جلدى ترابها ، وكان مولدى بها لسبع خلوان من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ، فى أول أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على .

ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ، فلم أزل بها إلى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين فى علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراكش ، فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس فى أول سنة ٦٠٣ ، فأدركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ، فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم ، انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم !

بلاد السوس الأقصى

فمراكش هذه آخر بلاد المدن الكبار بالمغرب المشهورة به ، وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بليدات صغار بسوس الأقصى ، فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت ، وهى حاضرة سوس ، وإليها يجتمع أهله ، ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجندر ، هى على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون ما فى ذلك المعدن ، وفى بلاد جزولة مدينة هى حاضرتهم أيضًا تسمى الكُسْت ، وفى بلاد لمطة مدينة أخرى هى حاضرتهم أيضا تسمى نول لمطة ، فهذه المدن التى وراء مراكش ، فأما تارودنت وزجندر فدخلتها وعرفتها ، ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجندر ، وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر إليها إلا أهلها خاصة .

ذكر مابالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزئْبق وغير ذلك ، وأسماء مواضعها

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذى بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طلميثة .

وفيها بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان ، فيه معدن حديد .

وفيها بين سلا ومراكش قريبًا على ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً ،

موضع يدعى إبستنار ، فيه معدن حديد أيضًا ، وليس هذا الموضع على طريق السفار ، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه .

وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وركناس ، فيه معدن فضة ، وقد ذكرنا معدن زجندر الذى بسوس ، غير أن فضته ليست هناك ، أعنى فضة معدن زجندر .

وبسوس أيضا معدنان للنحاس ، ومعدن توتيا ، وهى التوتيا التى يصُبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .

فهذه جملة مابالغدوة من المعادن .

المعادن بجزيرة الأندلس

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً ، فمنها معدن فضة ببلاد الروم فى الجهة المغربية ، بموضع يدعى شنترة .

وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون ، فيه معدن زئبق ، منه يفترق الزئبق على جميع المغرب .

وفى أعمال ألمرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية ، فيه معدن رصاص .

وفى أعمال ألمرية أيضاً على يوم ونصف منها موضع يسمى بكارش ، فيه معدن حديد أيضاً .

وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أوربة ، على نصف يوم من دانية ، فيه معدن حديد .

فهذا أيضًا جملة ما بالأندلس من المعادن ، فأما الذهب فمسوق إليها من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التى بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ، يسمى بجردة ، ينصب من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الرومى .

ونهر بجاية الذى يسمى الوادى الكبير ، وهو متنزهها وعليه بساتينها وقصورها .

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادى ملوية ، يصب فى البحر الرومى أيضًا .

ونهر يدعى سَبُو ، هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها ، ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة .

وهذان النهران ينصبان إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة .

وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتا ، ينصب إلى البحر الأعظم أيضا . ونهر سلا المتقدم الذكر .

وفيما بين سلا ومراكش ، وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهر عظيم يدعى أم ربيع ، ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وانْسِيفن ، يصب فى البحر الأعظم أيضًا .

ونهر على أربعة أميال من مراكش ، عليه قنطرة عظيمة ، يسمى تانسيفت ونهر سوس الأقصى .

ونهر ببلاد حاحة ، يسمى شفشاوة .

هذه الأنهار كلها تصب إلى البحر الأعظم ، فهذه جملة الأنهار الكبار التى بالمغرب التى لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاءً ولا صيفًا ، ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التى تيبس فى الصيف .

ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهى المعروفة فى قديم الزمـان عند الروم بجزيرة أشبانية ، وقد تقدم ذكر حدودها فى صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ، وكان دين أهلها فى الدهر القديـم دين الصابئـة من عبادة الكـواكب واستنزال قـواها والتقـرب إليها بأنـواع القرابين ، شهدت بـذلك طلسمات وجدت بها وضعتهـا القدمـاء من أهلها ، ثم انتقل أهلهـا إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدى أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانـت هذه الجزيرة ــ أعنى الأندلـس ـ منتظمة فى مملكـة صاحب روميـة ، يستعمل عليها من شاء من أصحـابه ، فلم تزل كذلك والـروم يملكونها ـ وقاعدة ملكهم منهـا مدينة تسمى طالقة ، على فرسخين من إشبيليـة ، وهى مدينة عظيمة باقٍ أثرهـا إلى هذا اليوم ـ إلى أن غلبهم عليها القوطـا ، وهى قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجـوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى .

وانفرد القوطا هـؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخم مُلك قريبـاً من ثلاثمائة سنة ، وكانـت دار ملك القوطـا ، مدينة طليطلة ، وهى فى قريـب من وسط الجزيـرة ، فلـم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم ـ كما ذكـرنا ـ إلى أن افتتحها المسلمون فى شهـر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ماتقدم فى صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم ، فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بنى أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، على هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر حسبما تقدم فى صدر هذا الكتاب .

فهذه تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

وأنا ذاكر ــ إن شاء الله ـ أول ما يلقاه من يعبر إليهـا من حـدودها ومدنها ، فأول ذلك أنى أقول :

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحـر أقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ، ثم يضيق الخليج ويتقارب العدوتان حتى ينتهى ذلك إلى قصر مصمودة من العدوة وجزيرة طريف من الأنـدلس ، ثم يأخذ فى السعـة ، وأول هذا الخليج ممـا يلى طنجة ، الجبل الخارج فى البحـر الأعظم المعـروف بطرف أشبرتـال ، وآخره الجبل الـذى شرقى سبتـة ، فإذا عبرت إلى جزيـرة الأندلس من سبتـة ، كان الذى تنـزل به المدينـة المعروفة بـالجزيرة الخضراء ، وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ، فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى - فى التحقيق على ساحل البحـر الرومى ، وجزيـرة طريف على سـاحل البحر الأعظم ، وبين الموضعين - أعنى الخضراء وطريف - ثمانية عشر ميلاً .

وفى شرقى الجزيرة الخضراء الجبـل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضـاً جبل طارق ، وله طرف خارج فى البحر يسمى طرف الفتح ، وعنـده يلتقى البحران بجزيرة الأندلس فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس .

البلاد التى تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١

فأما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها ، فأنا ذاكر أسماء المدن التى بأيدى النصـارى فى وقتنا هذا ، ومـوضعها من الجزيـرة من مشرقٍ ومغرب ، من غير تعرض إلى مابينها من المسافات ، إذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك :

فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرقـى على ساحل البحر الـرومى ، مدينـة برشنـونة ، ثم مدينة طـرعونة ، ثم مدينة طرطـوشة ، هذه البلاد التى على ساحل البحـر الرومى المذكور ، أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور ، مـدينة سرقسطة ، ولاردة ، وأفراغة وقلعة أيوب ، هذه كلها يملكها صاحب برشنونة - لعنه الله - وهى الجهة التى تسمى أرغن .

وفى الحد المتوسط مابين الجنوب والمغرب من المدن : مـدينة طليطلة ، وكونكة ، وأقليج

وطلبيرة ، ومكادة ، ومشريط ، ووبذ ، وأبلة ، وشـقوبية ، هـذه كلها يملكهـا الأدفنش ـ لعنه الله ـ وتسمى تلك الجهات قشتال .

وتجاور هـذه المملكة فيما يمل إلى الشمال قليـلاً ، مـدن كثيرة أيضًا ، وهى : سمـورة ، وشلمنكة ، والسبطـاط ، وقلمريـة ، هذه كلهـا يملكها رجـل يعرف بـالببوج ـ لعنه الله ـ وتسمى هذه الجهة ليون .

وفى الحد المغربى الـذى هو ساحل البحـر الأعظم أقيانس ، مـدن أيضا منها : مـدينة الأشبونة ، وشنترين ، وبـاجة ، وشنترة ، وشنت ياقو ، ومدينة يـابرة ، ومدن كثيرة ذهبت عنى أسماؤها ، يملكها رجل يعرف بابن الريق ـ لعنه الله .

فهذا مـا بأيدى النصارى من مدن جـزيرة الأندلس مما يلى بـلاد المسلمين ، ووراء هذه المدن مما يلى بـلاد الروم ، مدن كثيرة لم تشتهر عنـدنا لبعدهـا عنا وتوغلها فى بـلاد الروم ، لم يملكها المسلمون قط ، لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

المدن التى بقيت بأيدى المسلمين إلى سنة ٦٢١

وأنا ذاكـر ـ بعد هذا ـ ما بقى بأيدى المسلمين من البلاد ، وعـدد المراحل التى بينها ، وقربها من البحر وبعدها ، حتى يبين ذلك ـ إن شاء الله تعالى :

فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة بالأندلس اليوم ، حصن صغير على شاطىء البحر الرومى يسمى بنشكلـة ، بينه وبين مدينة بلنسيـة ثلاث مراحل ، وهذا الحصن ممـا يلى بلاد الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا .

ثم مدينـة بلنسية ، وهى مـدينة فى غايـة الخصب واعتدال الهواء ، كـان أهل الأندلس يدعـونها فيما سلف من الزمان : مُطيب الأنـدلس ، والمطيب عندهـم ، حزمـة يعملونها من

أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ، سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ، وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومى قريب من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان .

وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر ، وسميت جزيرة ؛ لأنها فى وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التى على ساحل البحر الرومى ، يوم تام .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مدينة مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ، أولها مما يلى مرسية : حصن لرقة ، ثم حصن آخر يدعى بَلِّس ، ثم حصن آخر يدعى بلس ، قُلْيَة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، يقال لها أيضاً وادى الأشى ، هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم ، فهذه البُليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينة ألمرية (محففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تضرب أمواج البحر فى سورها ، بينها وبين وادى آش هذه مرحلتان للمجد .

وبعد المدينة المعروفة بألمرية على ساحل البحر الرومى ، حصن مُنكب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضا فى سورها ، بينها وبين ألمرية أربع مراحل .

وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتح ، يلتقى البحران ، كما ذكرنا ، فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومنكب ، وألمرية ، ودانية ، وبين ألمرية ودانية نحو من ثمان مراحل ، ووراء دانية الحصن الذى يسمى بِنَشْكُلة ، وقد تقدم ذكره .

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى مايضرب الموج فى سوره ، فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر ـ كما ذكرنا ـ قريب من أربعة أميال .

***

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ، فنقول :

من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً ، وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرفق .

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان ، مرحلتان ، فبين جيان وبين البحر الرومى ثلاث مراحل .

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

ذكر قرطبة

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس ، وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمار وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه بلدة .

حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال : كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع الجهات ؟ .

وقيل : إنه كان فيها ثلاثة آلاف مُقَلَّس ، وكان لا يتقلس عندهم فى ذلك الزمان إلا من صلح للفُتيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها ، أن الماشى كان يستضيىء بسروج قرطبة ثلاث فراسخ لاينقطع عنه الضوء .

وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ، فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم .

وحكى أبو مروان ابن حيان ـ رحمه الله ـ فى أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة فى الجامع ، اجتنب الناس الصلاة فيها أيامًا ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ، فقيل له : أنهم يقولون : ماندرى هذه الدراهم التى أنفقها فى هذا البيان من أين أكتسبها ! فاستحضر الشهود والقاضى أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطى المتقدم الذكر فى قضاته ، واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التى جرت العادة بها ، أنه ماأنفق فيه درهمًا إلا من خمس المغنم ! وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه ، ومن الخمس أيضا كان أبوه بناه ، وزاد فيه أبو عامر محمد ابن أبى عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ، فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خُمس المغنم ، وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لايصلى فيه أحد ويدعو بشىء من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجيب له ، قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

وحكى غير واحد أن الأدفنش ـ لعنه ا ـ لما دخلها فى شهور سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تَبلُ دوابهم ولم تَرُثْ حتى خرجوا منه ، وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً فى فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

ذكر إشبيلية

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل ، وإشبيلية هذه هى حاضرة الأندلس فى وقتنا هذا ، وهى التى تسمى عندهم فى قديم الزمان حمص ، سُميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس .

وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعت كل ناعت ، وهى على شاطىء نهر عظيم ينصب من جبل شقورة ، وتنصب فيه أنهار كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضم ، تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ، ترسو على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم ، ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ، منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ، وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ، فزاد ذلك فى حسن هذه المدينة ، أعنى إشبيلية .

***

ومن إشبيلية إلى مدينة شلب التى على ساحل البحر الأعظم ، خمس مراحل ، وبين ذلك بليدات صغيرة ، كمدينة لبلة ، وحصن مرتلة ، ومدينة طبيرة ، ومدينة العليا ، والمدينة المعروفة بشنتمرية ، هذه البلاد كلها فيما بين شلب وإشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومى خمس مراحل ، وقرطبة أيضًا على ساحل هذا النهر الذى ينصب إلى إشبيلية ، يعظم جدا حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد فى القوارب من قرطبة إلى إشبيلية ، ويصعدون من إشبيلية إلى قرطبة ، كهيئة النيل .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شريش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التى بين كل بلد وبلد على التقريب ، منها ما سافرت فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته مستفيضًا عن السُّفار المترددين .

فصـــل

[أنهار الأندلس الكبار المشهورة]

وقد رأيت أن أذكرها ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها :

فأول ذلك ممـا يلى المشرق : نهر طرطـوشة ، وهـو نهر عظيم من جبال هنـاك إلى مدينـة طرطوشة ، ثم يصب فى البحر الرومى ، وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلاً .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضًا فى البحر الرومى ، منبعه من جبل شقورة ، وهو قسيم نهر إشبيلية ، منبعهما واحد ثم يفترقان ، فينصب هذا إلى أشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم ــ وقد تقدم ذكـر منبعه ــ ثم تنصب فيه قبل وصولـه إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحـراً كما ذكـرنـا ، ثـم يصـــب فى البحـر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو ، وهو الذى عليه مدينة طليطلة وشنترين ، وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل ، وعلى هذا النهر أيضًا مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ، ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

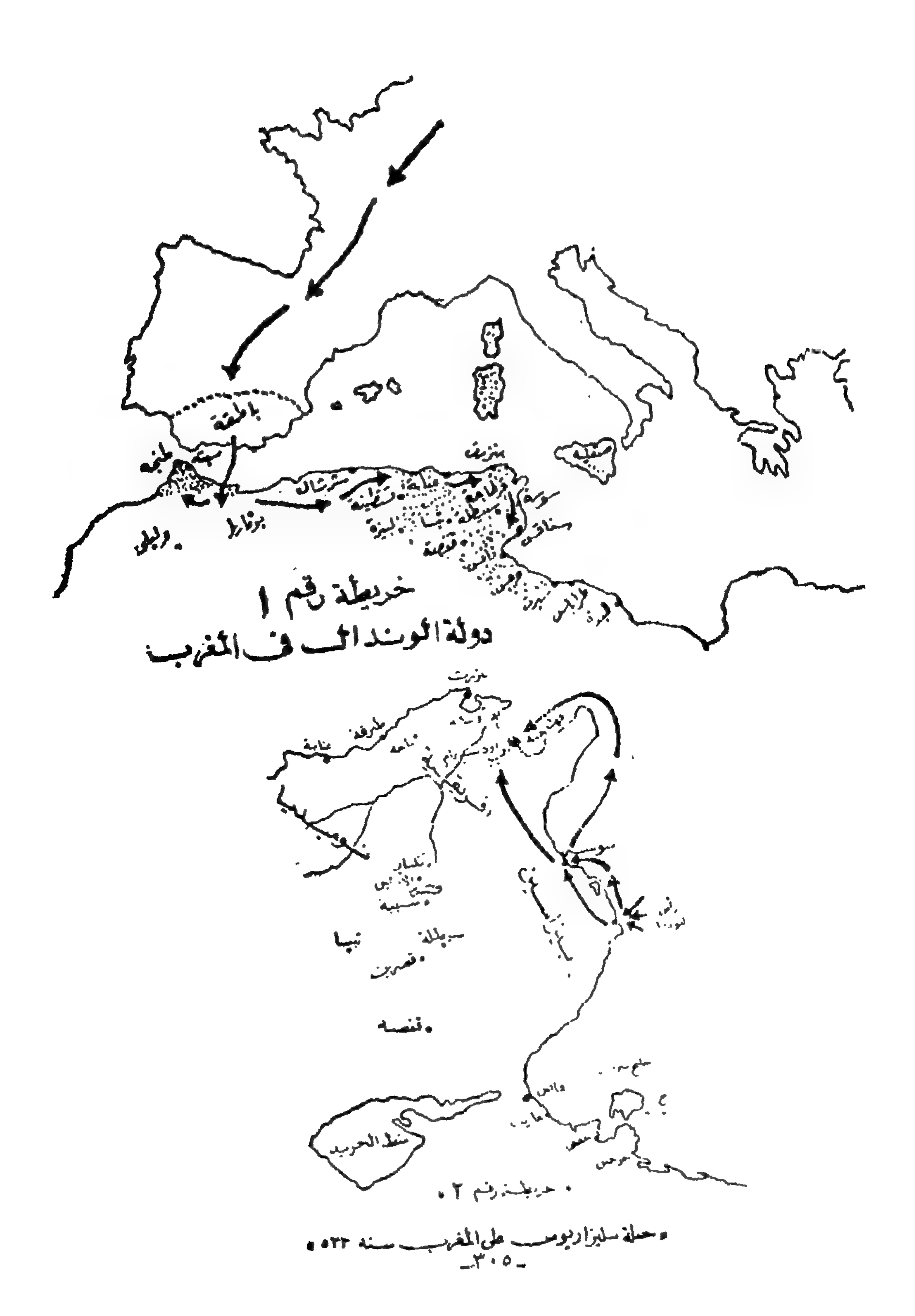
***

وقد نجز ــ بحمد الله جـ ميع هذا الإمـلاء حسبما رسمه مولانا ، وجـريتُ فى ذلك كله على عادتـى فى التلخيص ، وتركت أسماء القـرى والضياع والأنهار الصغار ، وغير ذلـك مما لاتدعو إليـه الحاجة ولا يُخل بالتصنيف تركه ، فإن وافق غرض مـولانا ولاق بنفسه وأتى وفق مراده ، فهى البغية الكبرى والأمنية العظمى التى لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق إليها ، وإن يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحُرم الإصابة ولم يقع على المراد ولا وفَّ المقصود !

وبالله أعتصم ، وإياه أسترشد ، وعليه أعتمد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

وكـان الفراغ من هـذا الإملاء يـوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنـة ٦٢١ والحمد للـه رب العالمين ، وصـلى الله على سيـدنا محمد وآله وصحبـه أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

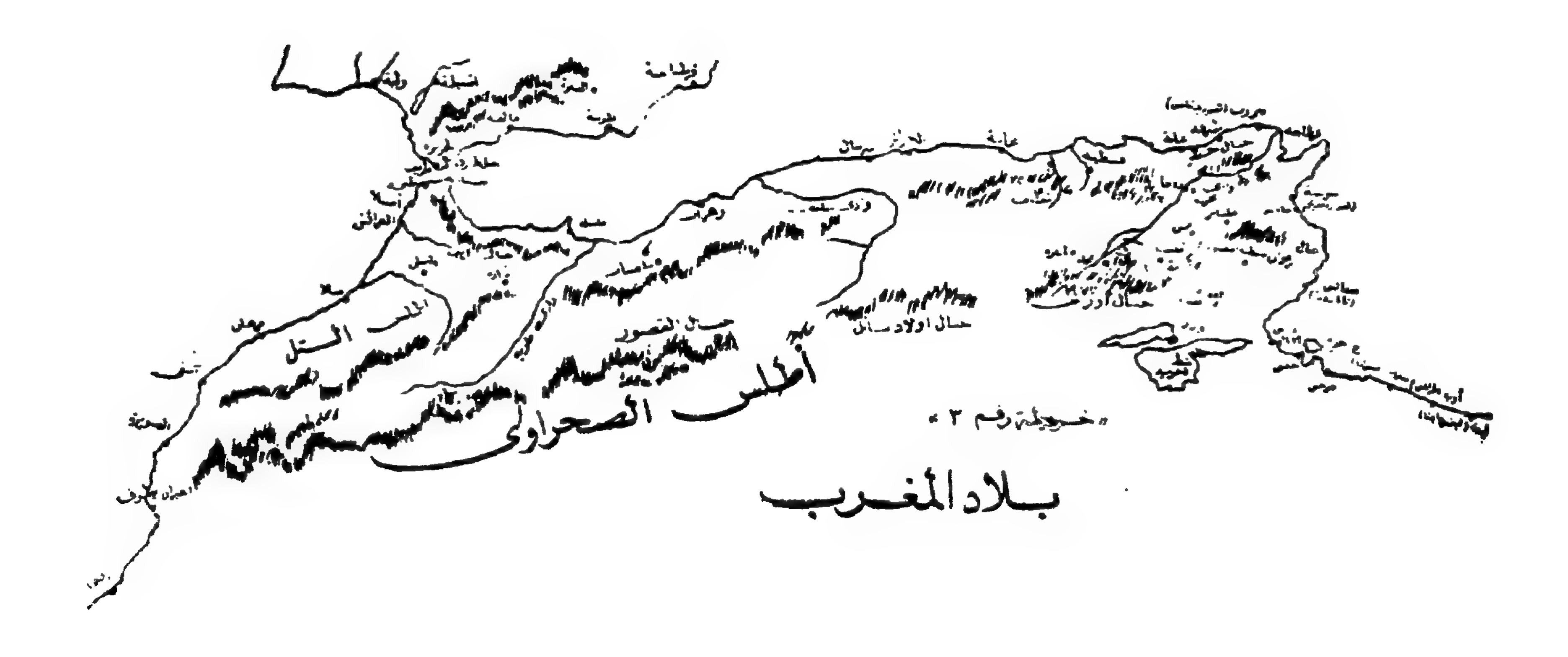
تم بحمد الله



خريطة رقم ١
دولة الوندال في المغرب

خريطة رقم ٢

حملة بليزاريوس على المغرب سنة ٥٣٣

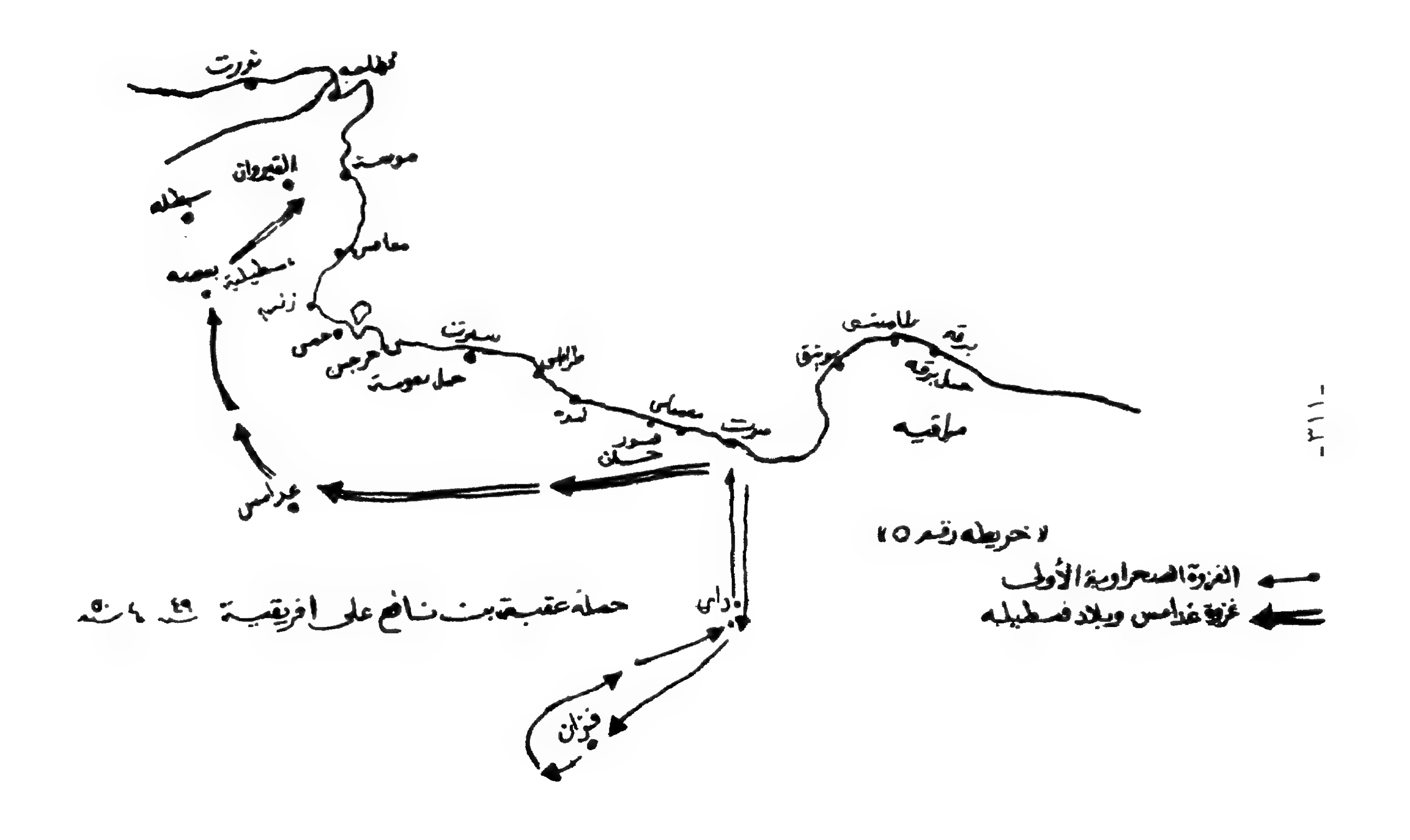


بلاد المغرب
« خريطة رقم ٣ »
أطلس الصحراوي
أطلس التل

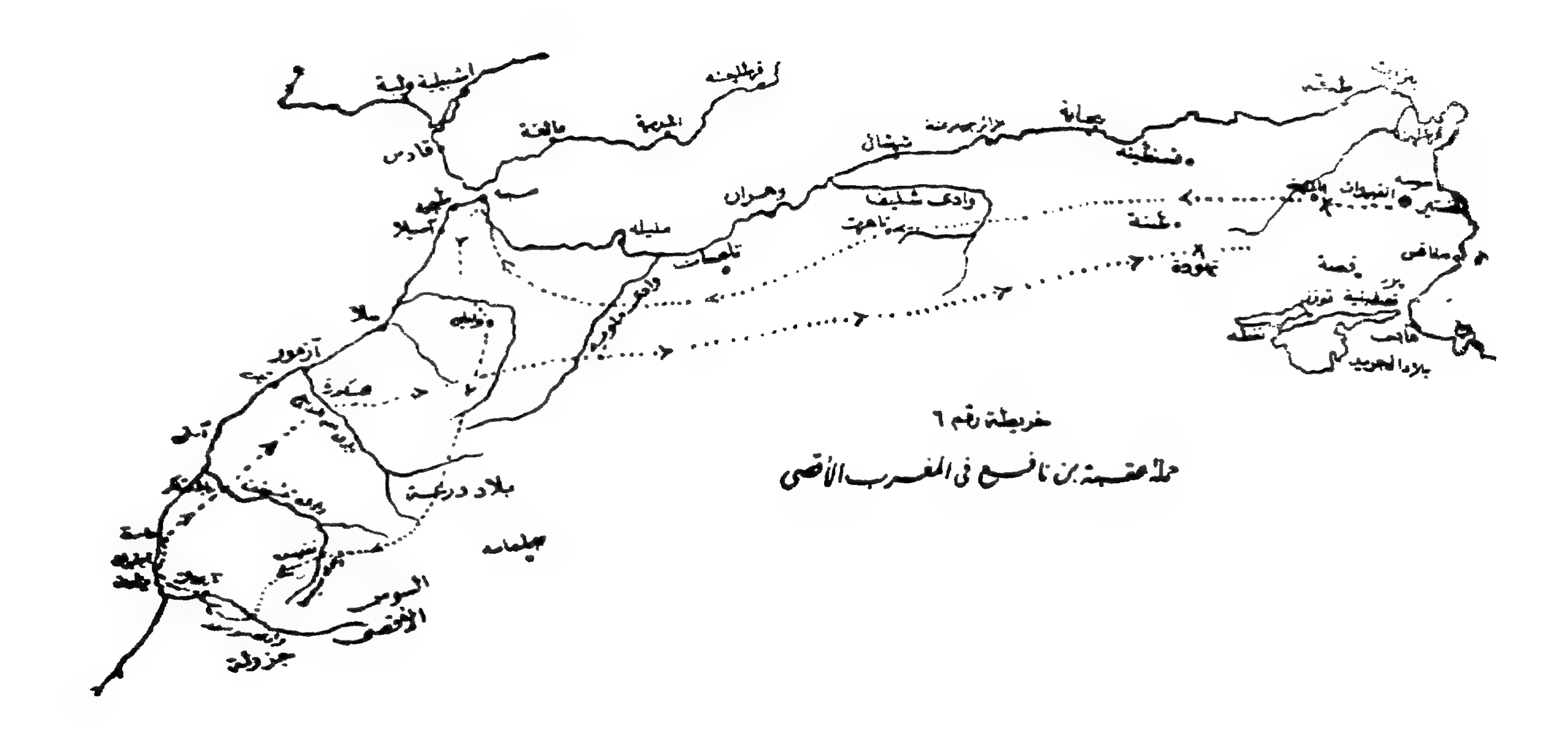


خريطة رقم ٤

حملة عبد الله بن سعد



القيروان
سبيطلة
غدامس
فزان
ودان
سرت
طرابلس
برقة
مراقية
قصور حسان
حملة عقبة بن نافع على افريقية ٤٩ هـ - ٥٠ هـ
خريطة رقم ١٥
الغزوة الصحراوية الأولى
غزوة غدامس وبلاد قسطيلية

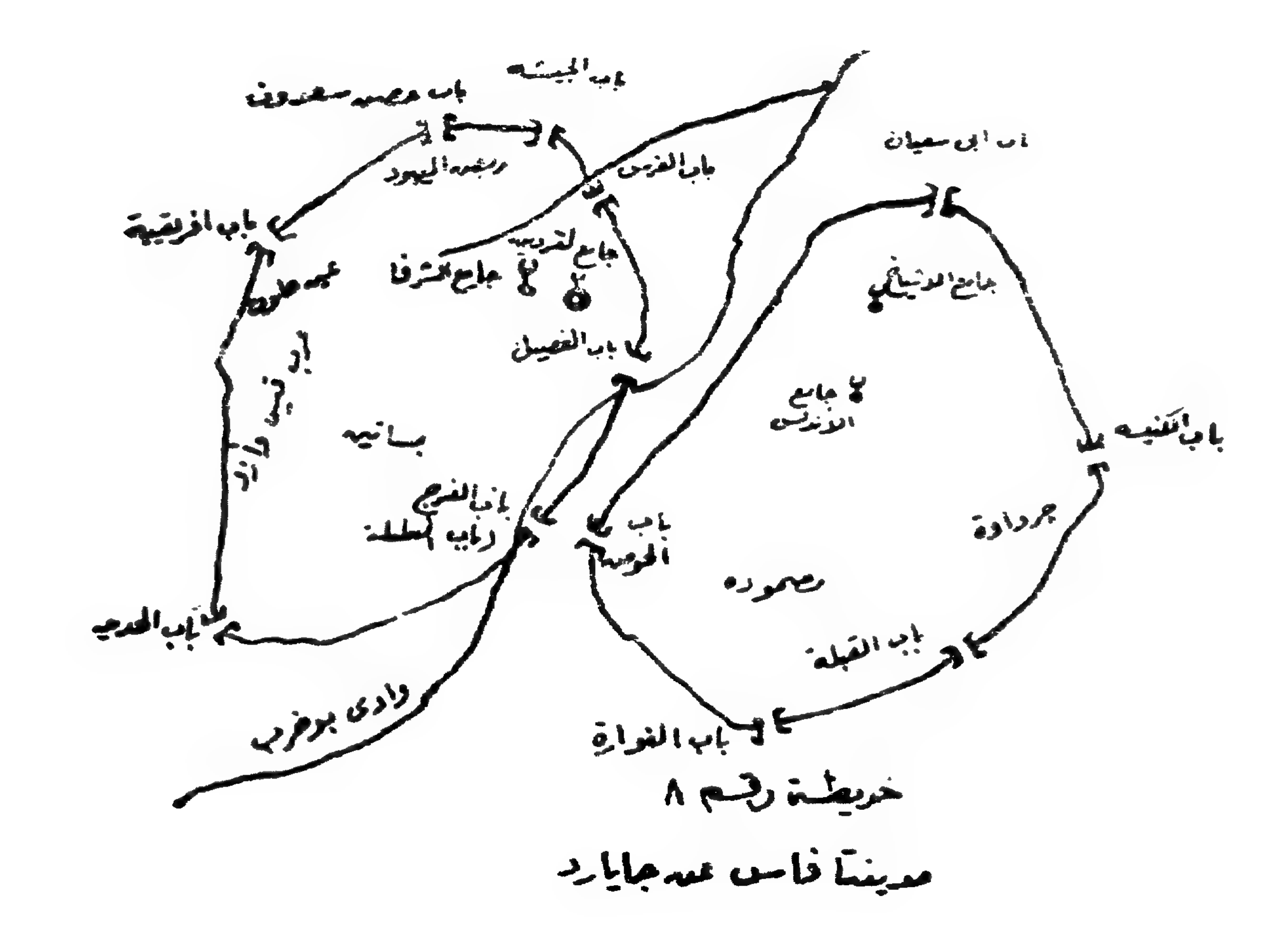


خريطة رقم ٦

حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى

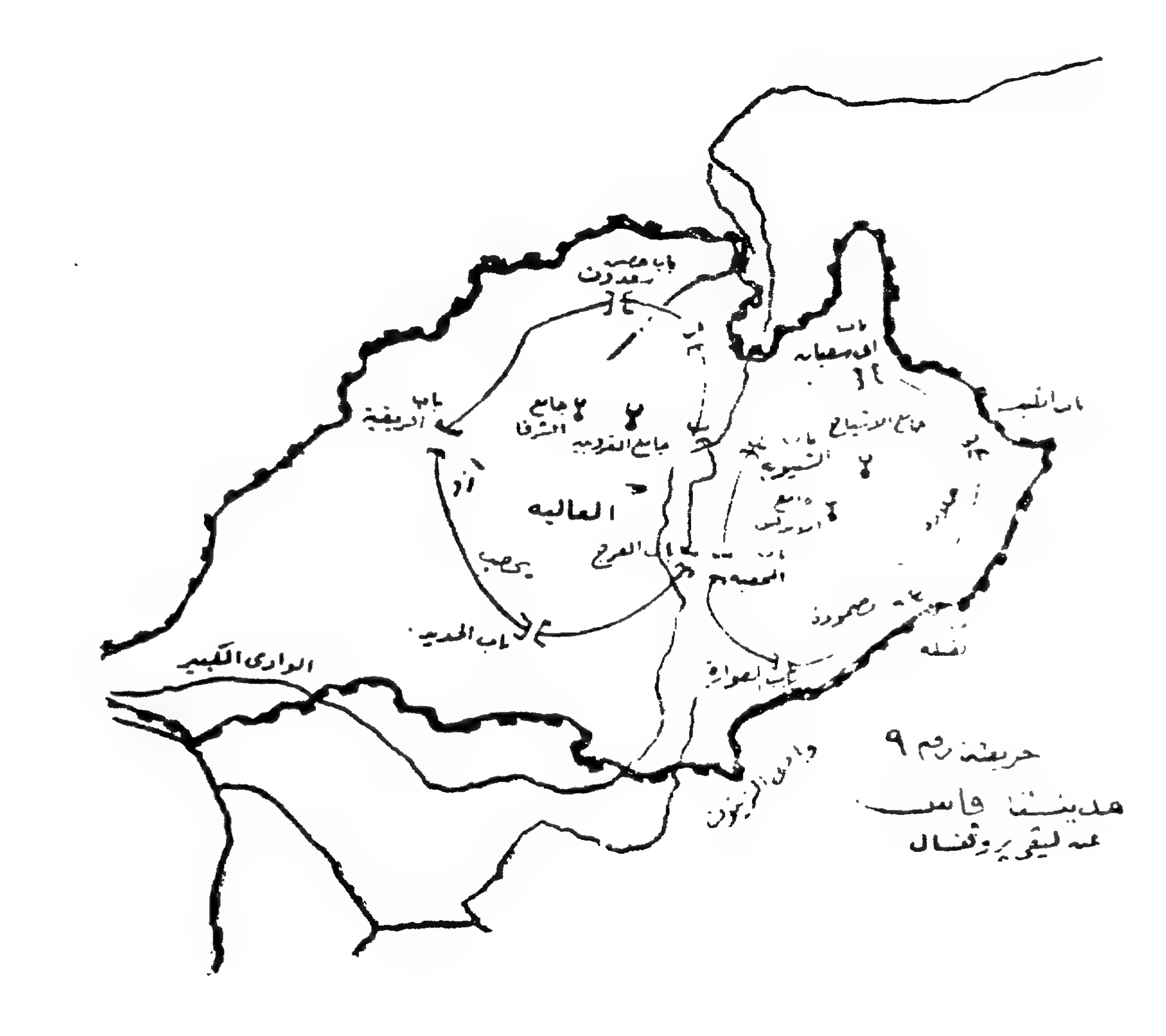


مواضع وقبائل البربر في المغرب الأقصى



خريطة رقم ٨

مدينة فاس عند جايارد



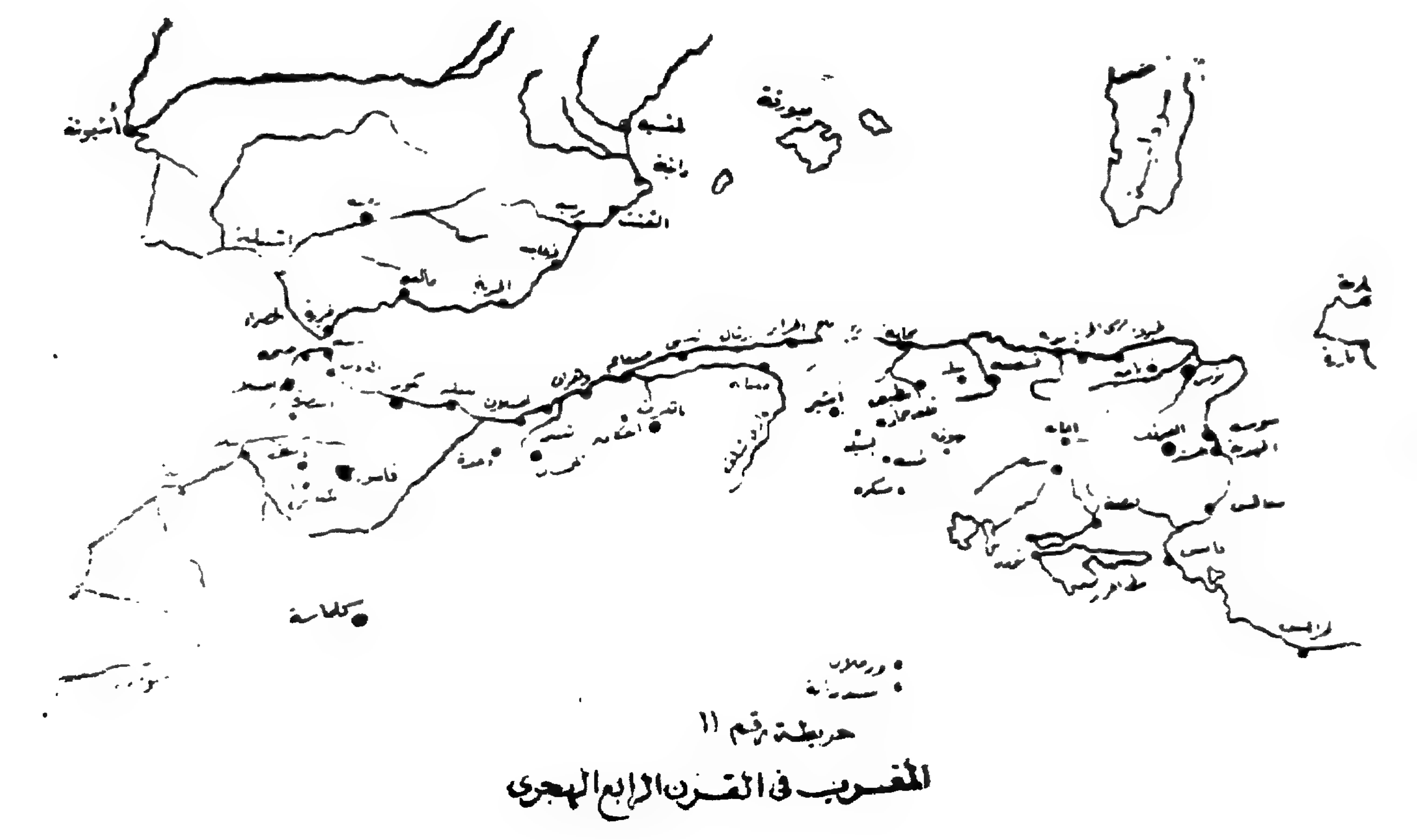
خريطة رقم ٩

مدينة فاس

عن ليفي بروفنسال

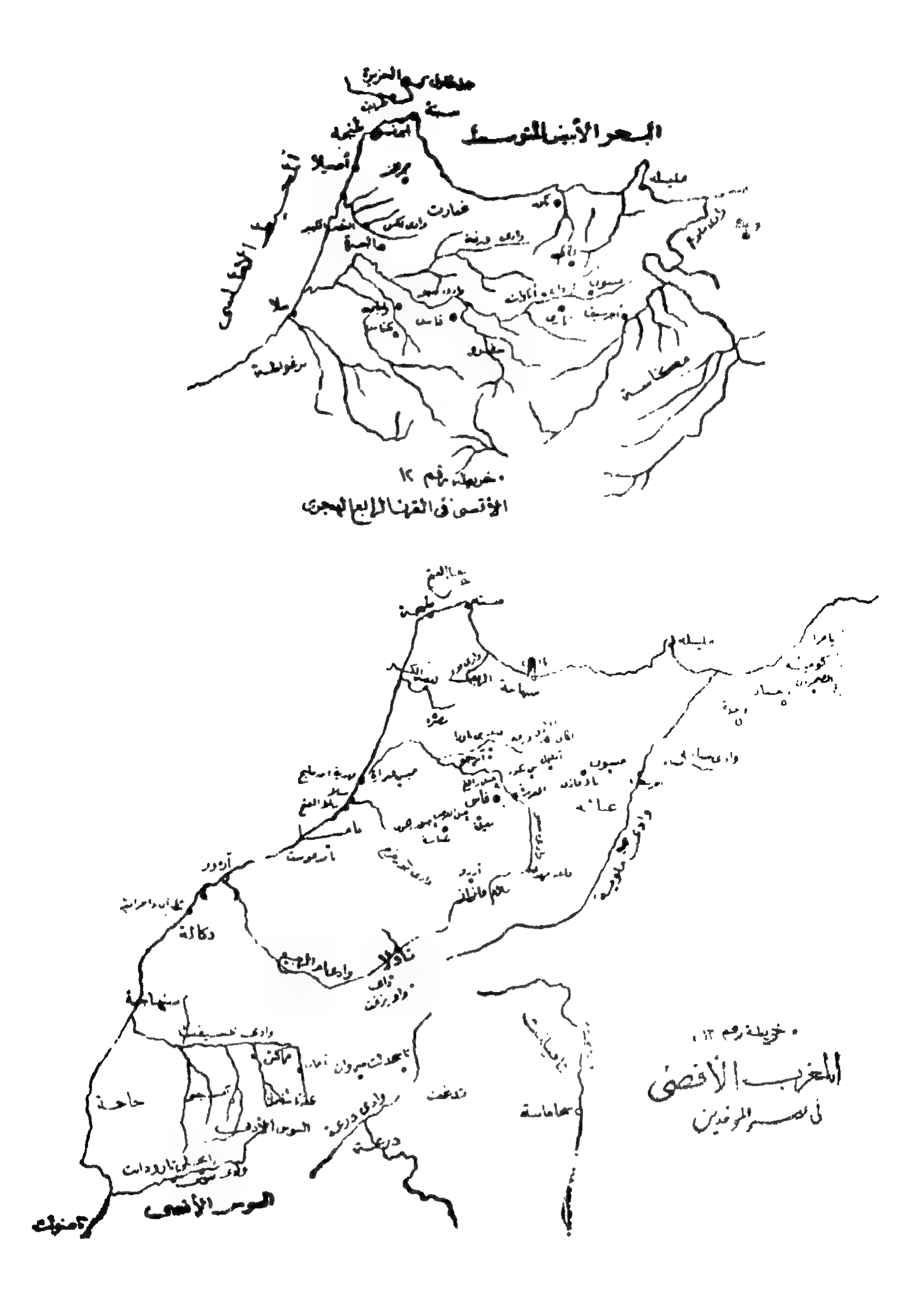


فاس في عصر بني مرين



خريطة رقم ١١

المغرب في القرن الرابع الهجري



• خريطة رقم ١٢
الأقصى في القرن الرابع الهجري

• خريطة رقم ١٣
المغرب الأقصى
في عصر الموحدين


المسلمون في
صقلية وجنوب ايطاليا
دوقية بنفنتو
طارنت
ريو
قطانية
سرقوسة
جرجنت
مدينة الملك


خريطة
الأندلس
وعليها معظم الاعلام الجغرافية الواردة في
تاريخ المغرب والاندلس
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
مملكة ليون
جليقية
البرت
قطلونية
أراجون
برتغال
قلمرية
شنترين
أشبونة
يابرة
بطليوس
باجة
قادس
طليطلة
جبال طليطلة
قشتالة القديمة
سرقسطة
تطيلة
قلهرة
بنبلونة
وشقة
لاردة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
المرية
قرطاجنة
غرناطة
مالقة
قرطبة
البسيط
منورقة
ميورقة
يابسة
شاطبة
غالة
(الأرض الكبيرة)
جبال البرت
مليلة
تطوان
أصيلا

قائمة بالمصادر
والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المصادر

١ ـ **ابن الآبار :** (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :

(أ) الحلة السيراء . جزءان ، تحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٦٣ م القاهرة .

(ب) التكملة لكتاب الصلة . جزءان نشر كوديرا طبعة مدريد سنة ١٨٨١ ،وطبعة القاهرة ١٩٥٩ م ضمن المكتبة الأندلسية .

(جـ) المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى القاهرة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

٢ ـ **ابن الأثير :** (ت ٦٣٠ هـ / ١١٥٤ م) :

ـ كتاب الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة فى سنة ١٣٠٣ هـ .

٣ ـ **الإدريسى :** (٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) .

ـ وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس .

ـ « مستخرج من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

ـ طبعة ليدن سنة ١٨٦٦ م بعناية دوزى ودى غوى .

٤ ـ **ابن أبى أصيبعة :** (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) .

ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ـ ط بيروت ١٩٦٥ م .

٥ـ **الأندلسى** : أبو عبد الله محمد بن محمد :

ـ الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، الطبعة الأولى تونس ١٢٨٧ م .

٦ـ **الباجى** : الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودى .

ـ الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية ، تونس ١٣٢٣ هـ .

٧ـ **ابن بشكوال** : (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) .

ـ كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم تحقيق عزت عطار الحسينى ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٨ ـ **البيذق** : أبو بكر الصنهاجي (كان حيًّا فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) :

ـ كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال سنة ١٩٢٨ م . نشره عبد الوهاب بن منصور بعد ذلك بالرباط سنة ١٩٧١ م .

٩ـ **ابن جبير** : (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

ـ رحلة ابن جبير ، بيروت سنة ١٩٤٩ م .

١٠ـ **الجزنائى** :

ـ كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل الجزائر سنة ١٩٢٣ م

١١ ـ **الحميري** : (ت أواخر القرن ٩هـ / ١٥م) :

ـ كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشر ليفي بروفنسال طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

١٢ ـ **ابن الخطيب** : (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) :

(أ) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثانى ، تحقيق ونشر ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ م .

(ب) أعمال الأعلام فيمن بـويع قبل الاحتلام من ملوك الإسـلام ، القسم الثالث ، تحقيق ونشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبـراهيم الكتاني بعنوان « تاريخ المغرب فى العصر الوسيط » الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

(ج) الإحاطة فى أخبـار غرناطة . تحقيـق محمد عبد الله عنـان القاهرة ١٩٥٦ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

١٣ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ٧أجزاء طبعة جديدة عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

١٤ ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

ـ وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان . طبعـة القـاهـرة سنـة ١٢٩٩ هـ وطبعة ١٩٥٠ م .

١٥ ـ ابن أبى دينار : (ت ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) .

ـ المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس ، طبعة ١٢٨٦ هـ .

١٦ ـ ابن الزبير :

ـ كتاب صلة الصلة ، نشر ليفي بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٨ م .

١٧ ـ ابن أبى زرع : (ت نحو منتصف القرن ٨ هـ / ١٤ م) :

ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر كارل يوحن نورتبرغ ، أوبسالة ١٨٤٣ م .

١٨ ـ الزركشى :

ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس سنة ١٢٨٩ هـ .

١٩ ـ **ابن زيدان :** عبد الرحمن بن محمد :

إتحـاف أعـلام الناس بجمـال أخبـار حاضرة مكناس ، ٥ أجزاء طبعـة الرباط سنة ١٩٤٩ م .

٢٠ ـ **زينى دحلان :** أحمد بن السيد زينى دحلان .

ـ الفتوحات الإسلامية ، جزءان ، المطبعة الحسينية بمصر .

٢١ ـ **ابن سعيد :** (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) .

(أ) المغـرب فى حلى المغـرب ، تحقيق ونشر شـوقى ضيف ، طبعـة القاهـرة سنـة ١٩٥٣ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

(ب) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق إبراهيم الإبيارى ، نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٥ م .

٢٢ ـ **ابن صاحب الصلاة :** (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م) :

ـ كتاب المن بـالإمامـة على المستضعفين بأن جعلهم اللـه أئمة وجعلهم الـوارثين ، تحقيق عبد الهادى التازى . بيروت سنة ١٩٦٤ م .

٢٣ ـ **ابن صاعد :** (ت ٤٦٢ هـ) .

ـ كتاب طبقات الأمم ،مطبعة السعادة بمصر .

٢٤ ـ **الصفاقسى :** محمود بن سعيد بن مقديش .

ـ نزهة دائرة الأنظار فى علم التواريخ والأخبار ، الجزء الأول تونس سنة ١٣٢١ هـ

٢٥ ـ **الضبى :** (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) :.

ـ بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس وعلمائها وأمـرائها وشعرائها وذوى النباهة فيها ومن دخل إليها أو نزح عنها ، ضمن المكتبة الأندلسية .

٢٦ ـ ابن عذارى : (كان حيا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .

(أ) البيان المغْرِب فى أخبار الأندلس والمغرب . الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس ، بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(ب) البيان المغْـرِب فى أخبار الأنـدلس والمغرب . القسم الثـالث ، تحقيق أمبروثو هويثى ميرنـدا ومحمد بن تاويت وإبـراهيم محمد الكـتانى طبعة تطـــوان سنة ١٩٦٠ م .

٢٧ ـ ابن غازى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن على (ت ٩١٩ هـ):

ـ الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، طبع الحجر مغربى .

٢٨ ـ الغبرينى : الشـــيخ أبـو العباس أحمد بن أحمد بن عبـد الله (ت ٧١٤ هـــ / ١٣١٥ م) .

ـ عنوان الدراية فيمن عرف مـن العلماء فى المائة الســابعة ببجــاية ، نشر محمـد ابن أبى شنب الجزائر ١٣٢٨ هـ .

٢٩ ـ ابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد :

ـ جـذوة الاقتباس فيمن حل من الأعـلام بمدينـة فــاس ، طبــع الحجـــر فاس ســنة ١٣٠٩ هـ .

٣٠ ـ ابن القطـــان : (كان حيا فى منتصـــف القـــرن الســابع الهجـــرى / الثالث عشر الميلادى) .

ـ نظم الجمان من أخبار الزمان ، نشر محمود على مكي ، تطوان ١٩٦٤ م .

٣١ ـ القفطى : (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م):

ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة ١٣٦١ هـ بمصر .

٣٢ـ **القلقشندى :** (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) .

ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . الجزء الخامس ، طبعة دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م .

٣٣ ـ **المراكشى :** (كان حيا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) :

ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة سنة ١٩٤٩ م .

٣٤ـ **المقرى :** (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

(أ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، عشرة أجزاء تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٠٢ هـ . عشرون جزءا ، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦ م .

(ب) أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . ثلاثة أجزاء نشر مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٤٢ م .

٣٥ـ **ابن المؤقت :** محمد بن محمد بن عبد الله :

ـ السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، جزءان طبع الحجر مراكش سنة ١٣٣٥ هـ .

٣٦ـ **مؤلف مجهول :**

ـ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبع الرباط ١٩٣٦ م .

٣٧ـ **مؤلف مجهول :**

ـ الذخيرة السنية فى تاريخ الدول المرينية ، طبع الجزائر سنة ١٩٢٠ م .

٣٨ ـ **مؤلف مجهول** : (كان حيا فى النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

ـ كتاب الطبيخ ، نشر وتحقيق أمروثو هويثى ميراندا . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلدان التاسع والعاشر سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ م .

٣٩ ـ **الناصرى** : أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٢ م) :

ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الجزء الثانى والثالث تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى . الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م .

٤٠ ـ **النباهى** : أبو الحسن المالقى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) (الرابع عشر الميلادى) :

ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ م .

٤١ ـ **الونشريشى** : أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمسانى. (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) .

ـ أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

***

(ب) المراجع العربية

١ ـ أحمد بن عامر :

ـ الدولة الصنهاجية . للدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٢ م .

٢ ـ أحمد لطفى عبد البديع :

ـ الإسلام فى إسبانيا . المكتبة التاريخية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م بالقاهرة .

٣ ـ أحمد مختار العبادى :

ـ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ م .

٤ ـ أرشيبالد لويس :

ـ القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة / أحمد محمد عيسى .

٥ ـ أرنست رينان :

ابن رشد والرشدية . باريس ١٨٨١ م . ترجمة / عادل زعيتر .

٦ ـ أنخل جنثالث بالنثيا .

ـ تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة / حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥ م .

٧ ـ ج . ترند واخرون :

ـ تراث الإسلام جزءان . ترجمة / زكى حسين وآخرين . لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م .

٨ ـ حسن أحمد محمود :

ـ قيام دولة المرابطين . صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م .

٩ ـ الحسن السائح :

ـ الحضارة المغربية عبر التاريخ . الدار البيضاء . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م .

١٠ ـ حسن على حسن عبد الجواد :

ـ الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة . رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم بإشراف د / أحمد شلبى سنة ١٩٧٣ م .

١١ ـ حنا الفاخورى وخليل الجر :

ـ تاريخ الفلسفة العربية . جزءان . دار المعارف بيروت .

١٢ ـ خواد بخشى :

ـ الحضارة الإسلامية . ترجمة / على حسنى الخربوطلى . القاهرة ١٩٦٠ م .

١٣ ـ ديلاسى أوليرى :

ـ الفكر العربى ومكانه فى التاريخ . ترجمة / تمام حسان ومراجعة مصطفى حلمى . وزارة الثقافة والإرشاد القومى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٤ ـ سلفادور غومث نوغالس :

ـ الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم فى فكر الغرب أثناء العصور الوسطى .

ترجمة / عثمان الكعاك . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٧م .

١٥ ـ شارل أندريه جوليان :

(أ) تاريخ إفريقيا الشمالية . ثلاثة أجزاء ترجمة / محمد فرالى والبشير بن سلامة عن الطبعة الثانية ١٩٥٨ م التى نقّحها وزاد عليها روجيه لوتورنو . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٨ م ١٣٩٨ هـ .

(ب) تاريخ إفريقيا . ترجمة / طلعت أباظة ومراجعة عبد المنعم ماجد . دار النهضة بمصر سنة ١٩٦٨ م .

١٦ـ شاخت وبوزورث :

ـ تراث الإسلام . ثلاثة أقسام . ترجمة ونشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ضمن سلسلة عالم المعرفة سنة ٩٨ ـ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م .

١٧ـ الشخات السيد زغلول :

ـ السريان والحضارة الإسلامية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الإسكندرية سنة ١٩٧٥ م .

١٨ـ طارو وجان جيروم :

ـ أزهار البساتين فى أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين . ترجمة وتعليق أحمد بلا فريج ومحمد الفاسى طبعة الرباط سنة ١٣٤٩ هـ .

١٩ـ عبد الله العراوى :

ـ تاريخ المغرب . محاولة فى التركيب . ترجمة / ذوقان قرقوط سنة ١٩٧٧ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٢٠ـ عبد الله على علام :

ـ الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على . دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م .

٢١ـ عبد الله كنون :

ـ النبوغ المغربى فى الأدب العربى . الطبعة الثالثة . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٧ م بيروت (٣ أجزاء) .

٢٢ـ عبد الرحمن على الحجى :

الحضارة الإسلامية فى الأندلس . بيروت ١٩٦٩ م / ١٣٨٩ هـ .

٢٤ـ عثمان أمين :

ـ إحصاء العلوم للفارابى . الطبعة الثانية . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٩ م .

٢٥ـ ليبولد توريس بالباس :

ـ الفن المرابطى والموحدى . ترجمة / سيدي غازى . منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧٦ م .

٢٦ـ ليفى بروفنسال :

(أ) الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة / سيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى . مراجعة أحمد لطفى عبد البديع . نشر مكتبة النهضة بمصر .

(ب) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى . باريس ١٩٤٨ م .

٢٧ـ مانويل جوميث مورينو :

ـ الفن الإسلامى فى إسبانيا . ترجمة / أحمد لطفى عبد البديع وسيد محمود عبد العزيز سالم . مراجعة جمال محمد محرز . الدار العربية للترجمة والنشر .

٢٨ـ محمد بيصار :

ـ فى فلسفة ابن رشد . الوجود والخلود . دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

٢٩ـ محمد عبد الله عنان :

(أ) دولة الإسلام فى الأندلس . القسم الأول والثانى من العصر الثالث . القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٤م .

(ب) الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال . القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م مؤسسة الخانجى .

٣٠ـ محمد المرزوقى :

ـ قابس تونس ١٩٦٢ . الناشر مكتبة الخانجى بمصر ، والمثنى ببغداد .

٣١ـ محمد ولد أدادة :

ـ مفهوم الملك فى المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع الهجرى . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٧ م .

٣٢ـ محمود على مكى :

ـ مدريد العربية . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

٣٣ـ محمود قاسم :

ـ دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ م .

٣٤ـ مراجع عقيلة الغناي :

(أ) قيام دولة الموحدين . الطبعة الأولى ١٩٧١ ، المكتبة الوطنية ببنغازى . ليبيا .

(ب) سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة بنغازى ليبيا ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م .

٣٥ـ نجاة باشا :

ـ التجارة فى المغرب الإسلامى من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٦ م .

٣٦ـ يوسف أشباخ :

ـ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة / محمد عبد الله عنان . مجلدان القاهرة ١٩٤١ ، مجلد واحد القاهرة ١٩٥٨ م .

(ج) المراجع الأجنبية

1 - **Altamira. R** : A history of Spain from the beginnings to the present day. Translated by Muna Lee. Copyright 1949. by D. Van Nostrand Company Canand. Ltd.

2 - **Artz. F. B** : The mind of the middle ages, Newyork 1953 .

3 - **Darbour. N** : A Survey of north west Africa (The Maghrib) Oxford University press, London 1959 .

Barbour. N : Morocco, Thames and Hudson Lt. London 1965 .

4 - **Barker. E and Clark. G** : The European inheritance. 3 Volumes Oxford 1954 .

5 - **Bell. F.** : Les Benou Ghanga. Paris 1903 .

6 - **Bernard. L. and Hodges. T. B** : Readings in european history Newyork 1958 .

7 - **Cambridge Medieval History** : 8 Volumes, Cambridge 1936 .

8 - **Cantor. F. N** : The medieval world, 300 - 1300, Columbia University, Third printing 1964 .

Cantor. F. N : Medieval history, the life and death of a civilization, Columbia University, first Printing 1963. The Macmillan company, Newyork .

9 - **Chapman. C.E** : A history of Spain, Newyork 1931 .

10 - **Encyclopeadia Judaica,** Massadah publishing company Ltd. Jerusalem, Tel - Aviv, 1958 - 1959 .

11 - **Haskins. H. Ch** : Studies in medieval culture, Newyork 1929 .

12 - **Hayes. F. C. and Baldwin. W. M** : A history of Europe. The Macmillan company, Newyork, fifth printing 1959 .

13 - **Hirschberg. J. W** : A history of the Jews in north Africa. V. I second revised-edition. Transiated from the hebrew. Leiden 1974 .

1 4 - **Hulme. M. E** : The middle ages. Newyork, Henry Haltanel comany 1936 .

. 15 - **Ibars. A. P** : Valencie arabe, Valencia 1901 .

16 - **Lafuente. M** : Historia general de Espana. T. III Y IV. Barcelona 1977 .

17 - **Lea. Ch. H** : A history of the inquistion in spain. V. I, II . London . Macmillan company 1906 .

18 - **Meakin. B** : The moorish empire, London, Newyork 1899.

19 - **O'callaghan. F. J** : A history of medieval Spain, copyright 1975, Cornell University, Ithaca, Newyork.

20 - **Painter. S** : A history of the middle ages. 284 - 1500, Newyork 1954 .

21 - **Prestage. E** : Chivalry, members of king's college, London 1928 .

22 - **Remiro G. M** : Historia de murcia musulmana, Zaragoze 1903 .

23 - **Russel. B** : History of western philosoph. London, second impression 1947

24 - **Scott. S. P** : A history of the moorish empire in Europe V. II, III philadelphia, London 1904 .

25 - **Sephenson. G** : Medieval history (Europe from the second to the sixteenth century) Harper and brotheres publishers, Newyork and London .

26 - **Thompson. W. J** : The middl ages, 300 - 1500, V. II, III printed in the United States of America, by the plimpon press .

(د) الدوريات

١ ـ إحسان عباس :

ـ نوازل ابن رشد . مجلة الأبحاث عن الجامعة الأمريكية ببيروت . المجلد ٢٢ ، الأجزاء ٣ ، ٤ سنة ١٩٦٩ م .

٢ ـ أحمد الأهوانى :

ـ الفلسفة فى الأندلس . مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٥ ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٣ م .

٣ ـ أحمد لطفى عبد البديع :

ـ التروبادور غرسية فرنانديث ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ م .

٤ ـ أحمد المكناسى :

ـ دراسة تمهيدية عن الخزف الإسلامى القديم فى المغرب مجلة تطوان ، العدد الثانى سنة ١٩٥٧ م .

٥ ـ أرنولد شتيجر :

ـ التأثيرات والمصادر العربية فى مؤلفات ألفونسو الحكيم العاشر . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٦ ـ أمبروثو هويثى ميراندا :

(أ) موقعة الأرك . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثانى سنة ١٩٥٤ م .

(ب) المطبخ الأندلسى المغربى خلال العصر الموحدى . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

٧ ـ جون بكويث :

ـ أثر الفن الإسلامى فى الفن الغربى الحديث . مجلة الأبحاث تصدر عن الجامعة الأمريكية ببيروت العدد ١٣ ١٠آذار سنة ١٩٦٠ م .

٨ ـ حسين مؤنس :

(أ) الثغر الأعلى الأندلسى . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الحادى عشر ، ج ٢ ديسمبر ١٩٤٩ م .

(ب) عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله المعروف بالخليفة الناصر الموحدى . . مجلة كلية الآداب . . بجامعة القاهرة ، المجلد الثالث عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٥٠ م .

(ج) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٩ ـ خنثو بوسك بيلا :

ـ الوثائق العربية المحفوظة فى كاتدرائية وشقة . . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

١٠ ـ خوسيه كامون أثنار :

ـ الأساليب الفنية المستمرة فى الفن الإسلامى . . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث ١٩٥٥ .

١١ ـ خنثو مياس بياكروزوا :

(أ) المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب فى إسبانيا العربية . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

(ب) كتاب الرد على اليهود لرامون لل . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(ج) نشاط الدراسات الفلكية فى الأندلس . . نفس الدورية والعدد .

١٢ ـ خوليان ريبيرا :

ـ المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا الإسلامية . . . ترجمة جمال محرز مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلدان الرابع والخامس سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م .

١٣ ـ رامون منندث بيدال :

(أ) إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام . . ترجمة أحمد لطفى عبد البديع مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الأول ١٩٥٣ م .

(ب) إسبانيا وإدخال العلوم العربية إلى الغرب . . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . المجلد الثالث ١٩٥٥ م .

١٤ ـ سعد زغلول عبد الحميد :

ـ العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى . مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . المجلدان السادس والسابع سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ م .

١٥ ـ الصديق بن العربى

ـ طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب . . مجلة تطوان المغربية العدد الأول سنة ١٩٥٦ م .

١٦ ـ عبد العزيز بن عبد الله :

(أ) العربية لغة العلم والحضارة . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

(ب) البحرية المغربية والقرصنة . مجلة تطوان المغربية العددان الثالث والرابع سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م .

(ج) تطور الفن فى عهد الموحدين . مجلة البينة ، السنة الأولى ، العدد التاسع شعبان ١٣٨٣ هـ/ يناير ١٩٦٣ م .

١٧ ـ ليبولد توريس بالباس :

ـ الأبنية الإسبانية الإسلامية . ترجمة علية إبراهيم العنانى . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٨ ـ الأب مانويل ألونسو ألونسو :

ـ ابن سينا وآثاره الأولى فى العالم اللاتينى . ترجمة تاج الدين أبو زيد . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . . العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٩ ـ محمد المنونى :

ـ تاريخ المصحف الشريف بالمغرب ، مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الخامس عشر ، ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ/ مايو سنة ١٩٦٩ م .

٢٠ ـ نيفل باربر :

(أ) سفارة جون ملك انجلترا إلى محمد الخامس ملك المغرب . ترجمة محمد ابن تاويت . مجلة تطوان المغربية العدد الخامس سنة ١٩٦٠ م .

(ب) أخبار الأندلس فى المدونات الإنجليزية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . المجلد الثالث عشر سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م .

الكشاف العام

١ ـ الأعلام

ا ـ الأماكن الجغرافية

٣ـ الطوائف والبطون

٤ ـ الآيات الواردة فى النص

٥ ـ الأحاديث

٦ ـ الكتب الواردة

٧ ـ الأشعار

فهـرس الكتـاب

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة
الخرائط	٣٠٥
المصادر والمراجع العربية والأجنبية	٣٣١
الكشاف العام	٣٥١
الفهرس	٣٧٥

رقم الإيداع ٢٦٠٩ لسنة ١٩٩٤
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5496 — 05 — 5


مطابع
ت ٩٣٢٢٧٠٦٠

هذا الكتاب

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة فى حياة أمتنا العربية ، وهى صفحة هامة للباحثين والدارسين ، فلهذا أسرعت فى تقديم كتاب من كتب الدراسات المغربية هو « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » حيث يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول وفى نفس الوقت طرازاً تاريخياً أو موسوعة تاريخية أيضاً . فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور فى منطقة الشرق والغرب الإسلامى حتى القرن السابع الهجرى بشئ من الدقة والتفصيل .

فلهذا يعتبر هذا الكتاب لاغنى عنه لكل دارس وباحث ومحقق مهتم بعلم التاريخ ، حيث برز لنا عبد الواحد المراكشى المؤرخ لعصرى المرابطين والموحدين من شتى النواحى الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع براعة الحس فى النقد العلمى والأدبى حيث يملك هذا المؤلف قوة العبارات ورصانة الأحداث والأخبار ومدى تعلقه بالدولة الموحدية .

والله ولى التوفيق

الناشر

دار الفرجانى

القاهرة : ٩ ميدان الذهبى ـ منشية البكرى ـ مصر الجديدة

ص . ب : ٢٣٨٢ الحرية تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥